

أَيَّامُ الْحَجَّاجِ

الناشر



رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

مدير الإعلام

رائد قديح

تصميم الغلاف

مصطفى الدناصوري

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

الطبعة الأولى

1439 هـ - 2018 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 13171 / 2018

ISBN: 978 - 977 - 838 - 160 - 3

دار النخبة

230 شارع السودان - المهندسين

الجيزة - جمهورية مصر العربية

تلفون: 00202 - 38511969

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

أَيَّامُ الْحَجَّاجِ ابنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ بَيْنَ الْبِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ

لطفي عبد الفتاح شمعون

النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

2018

اللاهراء

لكل من علمني حرفاً أهدي كتابي هذا.

لطفي عبد الفتاح شمعون

مقدمة

ذكرت في مقدمة كتابي السابق (أيام المتنبي بين البداية والنهاية) الذي صدر في عام 2013، أنني لم أعتد الشكل التاريخي التقليدي الذي يعتمد البُحاث عادة عند الكتابة عن شخصية تاريخية معينة، إنما اعتمدت شكلاً يُمكن أن يُطلق عليه (التأريخ الفني) بمعنى أنه من حيث (التأريخ)، يعتمد على ما يذكره الرواة، ويرجح الأقوى والأقرب إلى منطق الأشياء، ويُبدى شواهد وأسباب اعتماده رأياً دون غيره.

ومن حيث هو (فني)، فإنه يستخدم أسلوباً فنياً في تناول موضوع الدراسة، وهو استحضار بطل الدراسة - إن صح التعبير - استحضاراً فنياً على صفحات الكتاب، ليدير معه حواراً جدلياً فكرياً، ويطرح معه قضايا عصره وأحداثه، ليلور معه أسباب توجُّه ما في حياته دون غيره، لتأتي محصلة الحوار ما استقر عليه الرأي بحسب ما يراه الباحث، اعتماداً على ما بين يديه من مراجع، وما طُرِح فيها من آراء في موقف ما. ثم يُوثَّق هذا في الحاشية.

وأزِيدُ هنا أنني قد أضيف إلى الحاشية بعض التفاصيل، قد تُساهم في رسم صورة للمرحلة التاريخية التي عاشتها الشخصية. أو أُنَاقِش قضية ما، بها من التفاصيل ما يُخْرِجُهَا عن خطِّ الأحداث في حياة بطل الدراسة؛ حيث القارئ المتعجِّل في غنى عنها، ليبقى مكانها في الحاشية لمن شاء منهم أن يستزيد.

وهذا هو كتابي الثاني (أيام الحجاج بن يوسف الثقفي بين البداية والنهاية) في هذا الاتجاه، وهو في هذه المَرَّة يتناول شخصيةً تاريخيةً أثارت جدلاً شديداً لخطورة دورها التاريخي؛ ذلك الدور الذي لولاه ما كانت تنجو دولة بني أمية

من الانهيار بعد سنوات معدودات من بدايتها، فكان لعبقريته في إدارة المعارك، وفلسفته في إدارة الصراع مع معارضي بني أمية، الفضل الأكبر في بقاء هذه الدولة واستمرارها، خاصة مع ولاية عبد الملك بن مروان الذي تكالبت عليه الفتن والقلق في مستهل ولايته، وكادت أن تعصف به وبدولته، ثم الوليد بن عبد الملك. تلك الفترة التي شهدت بذوغ نجم الحجَّاج، بعدما ترك مسقط رأسه في الطائف، وذهب إلى الشام مشاركاً في الحروب والحياة السياسية على السواء.

هذه الفترة التي شهدت أيضاً قمة مجد الدولة الأموية وصفحات ناصعة من توسعاتها شرقاً وغرباً. بفضل عبقريته.

ما هو هذا الدور الذي قام به الحجَّاج باقتدار وتمكُّن؟!.

وما هي فلسفته ومبرراته في مواقفه المختلفة من الأحداث؟!.

تلك المواقف التي وسمته بالدموية؛ فقد قتل أكثر من مائة وعشرين ألف نفس من أجل بني أمية.

فضلاً عن أكثر من ثلاثين ألفاً تركهم معتقلين في سجنونه ليست عليهم تُهمٌ معينة كما يذكر المؤرخون، وذهب إلى لقاء ربه في رمضان سنة خمس وتسعين من الهجرة؟!.

هذا ما يُجِيبُ عنه الْحَجَّاجُ، وتُجِيبُ عنه الصفحات التالية.

والله وليُّ التوفيق.

لطفي عبد الفتاح شمعون

المقطم في مارس 2018 م جمادى الآخرة 1439 هـ

تمهيد

هناك على مقربة من بيت الله الحرام.. حيث جبال تهامة.. وبالتحديد على جبل أبي قبيص.. وجنود الحجاج ينتشرون كالنحل في كل مكان ويُعدُّون العدة وينصبون المنجنيق استعداداً لضرب الكعبة... لمحتُ الحجاجَ يمرُّ بين الجنود على فرسه، يُحمِّسُهم ويحثُّهم على الإسراع في تنفيذ الأوامر، والاستعداد على أكمل وجه.. قبل أن يُعطي إشارة البدء في إطلاق المنجنيق.. على البيت الحرام.. حيث يتحصن عبدُ الله بن الزبير.. ذهبت ناحيته..!

الباحث: (اقتربت منه على وَجَل) أنت الحجاجُ بنُ يوسف الثقفي؟

الحجاج: هل تقصدني يا رجل؟! (في دهشة وغضب) من أنت وما هذه الثياب الغريبة التي ترتديها؟ لستَ على هيئة جنودنا، جاسوسٌ أنت.؟ (يضع يده على مقبض سيفه)..!

الباحث: هل خانك ذكاؤك يا حجاج؟، إن ذكاءك يُضرب به المثل..! كيف أكون جاسوساً وها أنا ذا أنادي عليك وسط جنودك في ذروة معركةٍ؛ هي من أخطر المعارك في تاريخك وتاريخ بني أمية؟! معركة لها ما بعدها، إما أن تكونَ أو لا تكونَ يا حجاج..!؟

الحجاج: (مازال يضع يده على مقبض سيفه) إني أرتاب فيك يا رجل..! من أنت وماذا تريد؟ قبل أن تسقط رأسك عن كتفيك؟!

الباحث: (مسحتُ رأسي بيدي، وتماسكتُ، ثم قلتُ له مُتظاهراً بالشجاعة)

قبل أن تعرف من أنا، أريد أن أسألك سؤالاً: بالله عليك.. من يَقْتُلُ مائةً وعشرين ألفاً من أجل أسياده، ماذا تُسميه؟! ألا يُسمى سَفَاحاً.؟!
الحجاج: مائةٌ وعشرون ألفاً.!! من قتل مائةً وعشرين ألفاً من أجل أسياده؟!
الباحث: أنت..

الحجاج: أنا؟؟؟! أنا قتلْتُ مائةً وعشرين ألفاً.؟! من قال هذا؟!
الباحث: كُتِبَ التاريخ.
الحجاج: كُتِبَ التاريخ؟! لا أفهمك يا رجل. لقد ضُقتُ بك ذرعاً، قل من أنت وإلا قتلْتُك؟!
الباحث: رجل من زمن غير زمانك؛ من القرن الخامس عشر الهجري؛ والزمنُ يمنعك عني.

الحجاج: شخصٌ غريب..!! وهل من الشجاعةِ والمروءة، أن تتَجَرَّأَ هكذا، والزَّمنُ يبني وبينك..؟!
الباحث: الشجاعة..! المروءة..! هههه!! هل قَدَّرتِ الشجاعةَ والمروءة؟ هل صُنَّتِ دماء ذوي الشجاعةِ والمروءة؟ أو راعيتهم في عصرِكَ هذا..؟ لقد شربتِ دمائهم.. كأن أهلك أَرْضَعوكِ الدماء في مهدك، فنشأت شرها لها.⁽¹⁾

الحجاج: (في غضبٍ وقد جرَّد سيفه) أنت متأكد أن الزمن يمنعك مني؟! يقينا أنت مجنون، ماذا تريد مني يا رجل.. قبل أن أرو سيفي من دمك؟ لقد ضُقتُ بك ذرعاً..!!

(1) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان تحقيق، إحسان عباس دار صادر بيروت 1969 ج 2 / 30

الباحث: لأظنك تقتلني، لم تقتل من ادعى الصرع كما يذكر الرواة،⁽¹⁾ أقتل من
توقن أنه مجنون كما تقول.؟! لأظنك تفعلها.

ثم إنه كما قلت لك: لا سبيل لك إلي. أنا أريد الحقيقة..

الحجاج: أي حقيقة...!!!؟

الباحث: حقيقتك يا حجاج..

الحجاج: جئت تبحث عن حقيقتي، بعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة كما تدعي.؟!
لديك كتب التاريخ.. ابحث فيها كما تريد..!

الباحث: كتب التاريخ..! وما أدراك ما كتبه عنك المؤرخون..!

الحجاج: ماذا كتب عني المؤرخون؟

الباحث: هذا أمر شرحه يطول، معظمهم يعتبرك سفاحاً، تتلذذ بسفك الدماء، ونادر
من يمدحك منهم..!

الحجاج: وأنت ماذا تعتبرني..؟

الباحث: أعتبرك سفاحاً بالطبع؛ حتي تنجلي لي الحقيقة... فأنشرها على الناس..

الحجاج: يبدو أنك غير مطمئن لحكمك علي، وإلا ما جئت إلى هنا في هذه
الظروف تبحث عن الحقيقة..

الباحث: صدقت فراستك.. فقد قرأت عنك الكثير، وتحيرت فيك حيرة الضب

الباحث عن جحره. فهل تصدقني القول..؟! لا تنس أن ذلك في

صالحك..!

الحجاج: ربما يكون في صالحني.. ماذا تريد أن تعرف؟

(1) وفيات الأعيان 2 / 39، 40

الباحث: أرجو أن تُفَسِّحَ لي صدرَكَ، وأن تنسَ موضوعَ السيفِ والسيافِ، إذا أثرتُ حفيظتكُ، أو ثارتَ شهوتكُ للدماءِ، فقد علمتَ أنَّ ذلك لا يصلحُ معي..!

الحجاج: ليكن الأمرُ كما تريد..

الباحث: أريد أن أعرف كل شيءٍ عنك وعن عصرِكَ الذي عشت فيه.. من يوم جئت إلى الدنيا سنة أربعين هجرية، حتى رمضان سنة خمس وتسعين؛ سنة وفاتك..!

الحجاج: تريد أن تبدأ بالنشأة في الطائف إذا..؟

الباحث: نعم لنبدأ بالطائف..

سنة أربعين من الهجرة الطائف مسقط رأس الحجاج

الحجاج: بدايةً، هل تعرفني جيداً؟ هل تعرف نسبي؟

الباحث: ما أعرفه، أنك الحجاج بن يوسف الثقفي.. هل هناك أكثر من ذلك؟

الحجاج: نعم... أنا أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسي بن منبه بن بكر بن هوازن الثقفي.⁽¹⁾

الباحث: وكان اسمك كُليباً! ⁽²⁾

الحجاج: نعم سُميتُ كُليباً.. ثم اشتهرتُ بالحجاج.

الباحث: وما هذا النسب؛ الثقفي؟

الحجاج: نسبة إلى جدي قسي بن منبه كان اسمه ثقيفا واشتهر به، وقد نُسبتُ إليه القبيلة.

الباحث: البعض ينسب ثقيف إلى ثمود،⁽³⁾ التي أنزل الله عليها غضبه.!

(1) وفيات الأعيان ج 2، ص 29 نشر إلكتروني.

(2) دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة، د. عمر فروج، رقم 1 الحجاج، مطبعة الكشف بيروت 1941 ص 3 نشر إلكتروني،، والبداية والنهاية 12 / 510، العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي تحقيق د. عبد المجيد الترحيني دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1404 هـ 1983 م نشر إلكتروني. مكتبة المصطفى 5 / 275

(3) ويذهب البعض إلى أن ثقيف من إياد بن نزار بن معد بن عدنان، وأن قسيًا هو قسي بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن دغمي بن إياد بن نزار، وأن النخع وثقيف من إياد. راجع الأغاني

الحجاج: كيف هذا؟! ألم تقرأ القرآن الكريم، يقول الله تعالى: (وَتُؤَدُّنَا لِمَا أَتَيْنَا بِكَ) (1) ويقول أيضا عن ثمود: ﴿فَهَلْ رَأَيْتُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ (2) فكيف تكون ثقيف من ثمود. (3) ولئن كنّا من بقايا ثمود فما نجا منهم مع نبي الله صالح غير خيارهم. فإن كان أهل الطائف وعلى رأسهم ثقيف، من نسل من نجا مع نبي الله صالح فهذا فخرٌ لنا وليس بعار. (4)

الباحث: هل تذكر ذلك الخطاب الذي أرسله إليك عبد الملك بن مروان والذي يُحَقِّقُ فيه شأن ثقيف ويقول بأن جدّهم كان عبداً لنبي الله صالح وأنه ائتمنه على الصدقات فهرب بها!

الحجاج: حتى وإن أشاعوا ذلك عند عبد الملك بن مروان؛ للنيل مني فإني رددت عليه وعليهم رداً مُفْجِماً، فثقيف كانت عدلٌ قريش في الجاهلية، حتى إنهم لما أرادوا المباهاة وقد نَفَخَ الشيطان في مناخرهم، ذكر القرآن الكريم قولهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (5) فوقع اختيارهم على الوليد بن المغيرة القرشي في مكة، وعروة

لأبي الفرج الأصفهاني، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970 ج 4 ص 302، والحجاج ابن يوسف الثقفي د محمود زيادة دار السلام الطبعة السابعة 2010 م 1431 هـ ص 19.

(1) النجم (51)

(2) الحاققة (8)

(3) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1431 هـ 2010 م. ج 2 ص 24

(4) البيان والتبيين أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، تحقيق حسن السندوبي، الطبعة الأولى المطبعة التجارية الكبرى مصر 1345 هـ 1926 م. ج 1 ص 164

وانظر الحجاج د محمود زيادة ص 18

(5) الزخرف (31)

بن مسعودٍ الثقفيّ في الطائف، فصارا في الافتخار بهما صنوين، ما أنكرَ اجتماعَهما من الأمة منكرٌ⁽¹⁾. فأنا ثقفيّ وأفتخر.

الباحث: لم تذكر شيئاً عن أمك..!

الحجاج: أمي هي الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي سيدة نساء ثقيف، هل عرفت الآن نسبي وحسبي..؟

الباحث: نعم، ويذكر المؤرخون كذلك أن أمك كانت قبل أن تتزوج أباك، زوجةً لحكيم العرب وطبيهم في ذلك الوقت، الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي ثم طلقها..⁽²⁾

الحجاج: نعم كانت أمي من نساء الطائف المعدودات شرفاً وجاهاً ومالاً بل إنهم يطلقون عليها سيدة نساء ثقيف كما قلت لك⁽³⁾، ولها من رجاحة العقل وقوة الشخصية، ما لا يستريح له بعضُ الرجال.. ويبدو أنها كانت على غير وفاق مع الحارث بن كلدة، حتى إنه طلقها لسبب تافه، وبعث إليها بطلاقها، فاستقبلت خبر الطلاق بكل هدوء وبدون أدنى ثورة، ولكنها كامراً حرة وجب عليها أن تعرف السبب.. قالت له: لم بعثت بطلاقي؟ هل لشيء رابك مني؟ قال: نعم، دخلتُ عليكِ في السحر وأنت

(1) العقد الفريد، ج 3 ص 108 والحجاج لمحمود زيادة ص 18

(2) يذكر ابن كثير في البداية والنهاية ان الفارعة أم الحجاج كانت قبل أبيه تحت المغيرة بن شعبة. ويضيف صاحب المنتظم أنها ولدت له بنتاً راجع البداية والنهاية، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر الطبعة الأولى 1998 م ج 12 / 508 نشر إلكتروني. والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1992 ج 36 / 6، والحجاج، د محمود زيادة، ص

(3) العقد الفريد ج 5 ص 275 نشر إلكتروني.

تتخللين! فَإِنْ كُنْتَ بَادِرْتَ الْغَدَاءَ فَأَنْتَ شَرِّهَهُ، وَإِنْ كُنْتَ بَتَّ وَالطَّعَامُ
بَيْنَ أَسْنَانِكَ فَأَنْتَ قَذَرَةٌ. فقالت: كل ذلك لم يكن، ولكنني باكرت ما
تُبَاكِرُهُ الْحَرَّةُ مِنَ السَّوَاكِ، فَبَقِيَتْ شَظِيَّةٌ فِي فَمِي مِنْهُ فَحَاوَلْتُهَا لِأُخْرِجَهَا،
(1) ووالله ما فَرِحْنَا إِذْ كُنَّا، وَلَا أَسِفْنَا إِذْ بَنَّا.. (2)

ثم بعد ذلك تزوّجها يوسفُ بنُ أبي عقيل الثَّقَفِي، فرزقهما الله بي. (3)

الباحث: كيف كانت طفولتك؟ وكيف كان شبابك؟

(1) البداية والنهاية 12 / 509 وفيات الأعيان ج 2 ص 30، 32، 31 نشر إلكتروني. ويقول صاحب
وفيات الأعيان إن ابن الجوزي ذكر في كتابه "تلقيح فهم أهل الأثر" أن الفارعة أم الحجاج هي
(المتمنية)، ولما تمت كانت تحت المغيرة بن شعبة، وقص قصتها، ونذكرها مختصرة، وهي أن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه طاف ليلة في المدينة فسمع امرأة تشدُّ في خدرها:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرِ فَأَشْرَبَهَا أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ
فقال عمر رضي الله عنه: لا أرى معي في المدينة رجلاً تهتف به العواتق في خُدُورهن؛ علي بنصر
بن حجاج، فَأُتِيَ بِهِ، فإذا هو أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم شعرًا، فقال عمر رضي الله عنه:
عزيمَةٌ على أمير المؤمنين لأأخذن من شعرك، فأخذ من شعره فخرج له وجنتان كأنهما شُقتا قمر،
فقال: اعتم، ففتن الناس بعينه، فقال عمر رضي الله عنه: والله لا تُساكنني ببلدة أنا فيها، قال: يا
أمير المؤمنين، ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك، وسيرُهُ إلى البصرة... وقيل: إن المتمنية هي جدَّة
الحجاج أم أبيه، وهي كنانية. ونصر المذكور هو نصر بن حجاج بن علاط السلمي، وأبوه صحابي
رضي الله عنه. راجع الوفيات 2 / 32.

(2) العقد الفريد ج 5 ص 275 نشر إلكتروني

(3) يذكر صاحب وفيات الأعيان أن الحجاج وُلد مشوّها لا دُبُرَ له، فنُقِبَ عن دُبُرِهِ، وأبى أن يَقْبَلَ
ثَدْيَ أُمِّهِ أو غَيْرَهَا، فأعياهم أمرُهُ، فيقال: إن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة، وكان
حكيم العرب، فقال: ما خبركم؟ قالوا بُنِيَ وَلَدٌ لِيُوسُفَ مِنَ الْفَارَعَةِ، وقد أبى أن يقبل ثدي أمه،
فقال: اذهبوا جدبا أسود وأولغوه دمه، فإذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك، فإذا كان اليوم
الثالث فاذهبوا له تيسا أسود وأولغوه دمه، ثم اذهبوا له سالخاً فأولغوه دمه، واطلوا به وجهه، فإنه
يقبل الثدي في اليوم الرابع. ففعلوا به ذلك؛ فكان لا يصبر عن سفك الدماء. (وفيات الأعيان ج 2
ص 30) راجع البداية والنهاية ج 12 / 510

الحجاج: مثلي مثل غيري من الأطفال أبناء الأسيخ من ثقيف في هذه المرحلة، كنا نتعلم القراءة والكتابة ونحفظ القرآن و الأحاديث عن صحابة رسول الله ﷺ، وكان شيوخ ثقيف يهتمون أن ينقلوا إلينا ما تلقوه من رسول الله ﷺ أو من صحابته رضوان الله عليهم. أضف الى ذلك الاهتمام بالأنساب والشعر والشعراء، فكنا نتعلم حفظ شعر الفحول منهم، ولما كبرنا بعض الشيء بدأنا نتعلم أصول الفصاحة والبيان إلى جانب التفقه في الدين وفهم القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ.. كان أبي معلماً، وكان يعتبر نقل هذه العلوم إليّ وإلى أمثالي من بني ثقيف واجباً شرعياً على سبيل البلاغ، يُبرأ به ذمته أمام الله، وكان اهتمام أبي بتعليمي سبباً في أن أمارس هذه المهنة، التي مارسها الأنبياء. فكانت مهنة التعليم مهنتي كما كانت مهنة أبي إلى حين.

الباحث: البعض اعتبر ممارستك التعليم للصبيّة في الطائف منقصة، بل قرض لك هجاء، منهم مالك بن الزيب الذي يقول:

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف	كما كان عبداً من عبيد إباد
زمان هو العبد المقرّ بذلة	يرأوح غلمان القرى ويغادي

وقال آخر: ⁽¹⁾

أينس كليب زمان الهزال	وتعليمه صبيّة الكوثر
رغيفاً له فلكه ما ترى	وأخر كالقمر الأزهر

الحجاج: هل تكون منقصة أن تعلم الصبيّة كلام الله وأحاديث الرسول ﷺ، فضلاً عن القراءة والكتابة؟! وهل تظن أن أبي وهو من سادات ثقيف كان ينتظر

(1) الحجاج، د. محمود زياد، دار السلام، الطبعة السابعة 2010 ص 10

رغيفاً من صبيٍّ أجراً على تعلّيمه؟ إنّما هو حَقْدُ الْحَقُودِ وحسْدُ الْحُسُودِ
لكلِّ نابهٍ في قومه.

الباحث: صبيّة الكوثر! أم سورة الكوثر؟!

الحجاج: يقصدون بالكوثر القرية بجوار الطائف التي نشأت فيها، قرية الكوثر هذه
مستقطُّ رأسي.

الباحث: عاصرت بعض الصحابة وكبار التابعين، وقال الرواة: إنك كنت تقرأ ورّداً يومياً
من القرآن قدّروه بربع القرآن، وقالوا: سمعت الحديث الشريف وأسندته!⁽¹⁾

الحجاج: نعم سمعت منهم ورويت عنهم. فقد سمعت من عبد الله بن عباس
ورويت عن أنس بن مالك، وسمرة بن جندب، وعبد الملك بن مروان،
وأبي بردة بن أبي موسى.

الباحث: وروى عنك أنس بن مالك، وثابت البناني، وحמיד الطويل، ومالك بن
دينار، وجراد بن مجالد، وقتيبة بن مسلم، وسعيد بن أبي عروبة.⁽²⁾

إلى متى استمر الحال معك معلماً؟

الحجاج: إلى أن حملت السيف محارباً..

الباحث: ومتى كان ذلك يا حجاج؟

الحجاج: أقول لك..

(1) المنتظم مرجع سابق 336 / 6

(2) البداية والنهاية مرجع سابق 12/507 والحجاج. محمود زياد ص 35 وانظر ترجمته وأخباره
في: وفيات الأعيان 2/29، ونهاية الأرب 21/331 وسير أعلام النبلاء 4/343، وتاريخ
الإسلام حوادث ووفيات 81 100 هـ ص 314 والعقد الثمين 4/54 والوافي بالوفيات 11/
307 وتهذيب التهذيب 2/210 وغيرها.

الحجاجُ في بلادِ الشام جنديٌّ يحملُ السلاح

في حوالي الخامسة والعشرين من عمري، انضمت الى الحملة التي عقدها مروان بن الحكم بعد أن استقر له الأمر بالشام، وكان مقصد مروان مصر، ليخلصها من يد عبد الرحمن بن جحدم الفهري، عامل ابن الزبير عليها، وقاد مروان الحملة بنفسه، ونَجَحَ في مهمته، ودَخَلَتْ مصرُ حَوْزَةَ ولايته سنة خمس وستين من الهجرة.⁽¹⁾

الباحث: ثم ماذا بعد؟

الحجاج: كانت عودة مروان بن الحكم إلي الشام في شهر رجب سنة خمس وستين، فإذا به في بحر شهر، يرسل جيشًا إلى المدينة بقيادة حُبَيْش بن دلجة القيني لمحاربة عبد الله بن الزبير، وكنتُ أنا ووالدي في صُفوفِ هذا الجيش وكان والدي يحمل لواءً ولما وصلنا لموضع يُقال له الرّبْذه، قابلتنا جيوشُ ابنِ الزُّبير..

الباحث: جيوشُ ابنِ الزُّبير!!! ألم يكن جيشًا واحدًا؟!

الحجاج: لا بل كانت جيوشًا.. بقيادة مجموعة من الفرسان ويبدو أنهم علموا بوجهتنا مبكرًا كلٌّ على جيشه، مسروق النصري قادمًا من مكة، وعباس

(1) الحجاج د.محمود زيادة ص 37 وانظر ابن الأثير ج3 ص 330 والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية لبنان بيروت 1413 هـ 1992 م ج1 ص 167، 116

بن سهل الساعدي قادمًا من المدينة، والحتنف بن السجف من البصرة، ومحمد بن الأشعث من الكوفة. ولكن كانت عزيمتنا قوية فقد انتصر جيشنا عليهم، لولا مكر الحتنف صاحب جيش البصرة، الذي أكمّن لنا كمينا خرج علينا وتمكّن من حُبّيش فقتله؛ وانتشر الزعرُ والهرج والمرج في أركان الجيش وفرّوا في كافة الأنحاء، وكِدْنَا نَقْتُلُ أنا وأبي في هذه المعركة، لولا أن امتطيتُ أنا وأبي هجينا أطلق سيقانه للريح هَرَبًا من وجه الأعداء، فعُدنا سالمين إلى الشام ومن نجا معنا من هذه المعركة.

الباحث: تجربة صعبة عليك يا حجّاج أصابَتْكَ بالحسرة والألم لا شك.

الحجّاج: بكل تأكيد، ولكن الحسرة لم تستمر طويلا، فقد انتظمتُ في سلك الشرطة مع روح بن زنباع وكان وزيراً لعبد الملك بن مروان، يستشيرهُ في كل أموره.

الباحث: معنى هذا أنك تركت الطائف؟

الحجّاج: نعم تركتها أنا وأبي وأخي محمد وذهبنا إلى دمشق عاصمة الخلافة، والتحقّتُ بشرطة روح بن زنباع، وما لبث حتى أدرك روحُ بن زنباعُ قُدْرَاتِي الشخصية، فذَكَرَنِي عند الخليفة، فكان أن ضَمَّنِي عبدُ الملك إلى الجيش، وكلفني بمهمة عصبية، فقد كان يشكو من عدم انضباط بعض أفرادهِ الذين لا يرحلون برحيل الأمير، فكنت عند حسن الظن. وانتظم الجميع، يرحلون برحيل الأمير، وينزلون بنزوله..

الباحث: ولكن قيل إن روح بن زنباع ما لبث أن شكّاك لعبد الملك بن مروان!

الحجّاج: نعم، وكان ذلك بسبب المهمة التي رشّحني لها هو نفسه! فقد امتطيت فرسي أفتقد انضباطَ الجنودِ، وأتأكّد من رحيلهم برحيل

الخليفة، فإذا بجنود روح بن زنباع يتلکأون بل جلسوا يتناولون الطعام وكأن شيئاً لم يكن، فسألتهم لم لم يرحلوا برحيل الخليفة فإذا بهم يتضحكون! وقال لي أحدهم: انزل يابن اللّخناء⁽¹⁾ فكلّ معنا..! ظنوا أنني لا أستطيع التجرّأ عليهم باعتبارهم جنود روح بن زنباع، صاحب الفضل عليّ، وأنهم كذلك كانوا من قبل رفاقاً لي.. قلت لهم: هيهات، ذهب ما هنالك؛ فأحرقت عليهم فسطاطهم وأمرت جنودي فقبضوا عليهم وجلدتهم جميعاً وأمرت بتطويفهم، حتى يعلم الجنود عاقبة التأخر عن طاعة الخليفة ظعناً وإقامة. لأجل هذا كانت شكاية روح عند عبد الملك!!⁽²⁾

الباحث: وماذا كان رد الخليفة؟

الحجاج: غضب لغضب روح بن زنباع واستدعاني.. وسألني: لم فعلت هذا بجنود روح وأحرقت فسطاطه؟!!! فقلت: ما فعلت شيئاً إنما أنت فعلت.

ذهل عبد الملك وقال: أنا!! قلت: نعم إنما يدي هي يدك وسوطي هو سوطك، وما ضرّك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدّل فسطاطه، وبدل الغلام غلامين، ولا تكسرني في الذي وليّني!

ففعل ذلك، وقال لمن حوله في إعجاب: إن شريطيكم لجلّد، وأقرّني على ما أنا عليه، وارتفعت في نظره من حينها.⁽³⁾

الباحث: أصبح لك تقديرٌ في نظر عبد الملك بن مروان، كما كان لأبيك من قبل!.

(1) اللّخناء: المرأة قُبَحَ كلامُها، راجع العقد الفريد 5/276

(2) البداية والنهاية 509/12 وفيات الأعيان 31، 30/2

(3) الحجاج، محمود زياده، ص 39

الحجاج: نعم كان أبي من أعيان ثقيف كما ذكرت لك، وكان من كبار الملاك بمكة،⁽¹⁾ وكان حاملَ لواءِ يوم الرَبْذَةِ في جيش مروان بن الحكم الذي بعثه لقتال ابن الزبير، ومن قبل ذلك في حملة مروان لتخليص مصر من يد عبد الرحمن بن جحدم الفهري عامل ابن الزبير،⁽²⁾ وكان يدخل على الخليفة بين الحين والحين.

الباحث: هل امتنعت الجندية؟

الحجاج: الانضمام الى الجيش لم يكن مهنة بقدر ما كان جهاداً في سبيل الله ضد مَنْ خرج على إجماع الأمة، كما كان حماية للثغور، وجهاداً للكفار، وفتحاً للأمصار. فإذا نادى منادي الجهاد، خرج الجميع إلى أعطياتهم مهما كانت، وانخرطوا في صفوف الجيش واستعدوا للقتال.

الباحث: هناك موقف ذكره كُتَّابُ التاريخ حدث لك، أنت ووالدك يوسف الثقفي بمصر بمسجد عمرو بن العاص، كنتما في المسجد، عقب الصلاة أو كنتما تحضران درسا، وأثناء ذلك مرَّ بكما سليم بن عمرو التجيبي قاضي مصر، فنهض إليه أبوك وسلم عليه وقال له إني أريد أن آتي أمير المؤمنين، فإن كان لك حاجة فأعلمني؟.

هل تذكر هذا الموقف؟

الحجاج: نعم أذكره، قال له التجيبي القاضي: حاجتي أن يعزلني عن القضاء. فقال والدي: والله لوددت أن قضاة المسلمين كلهم مثلك فكيف أسأله هذا؟!

(1) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار طبعة مكة 1325 هـ الأزرقى أبو الوليد محمد بن عبد الله ج2 ص241 نشر إلكتروني

(2) الحجاج، محمود زياده، ص 12 وانظر تاريخ الإسلام. شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة 748هـ، دار الغد العربي الطبعة الأولى 1996م. ج4 ص811

والله لا أعلم قاضيا اليوم خيرا منك، ثم انصرف. فتعجبتُ من تصرف أبي، بل أنكرته قائلا: كيف يا أبي تقوم لرجل من تَجِبٍ وأنت ثَقْفِي؟! وكان رده عليّ في غاية الغرابة! قال: يا بني ما أرى الناس يُرحمون إلا بهذا وأمثاله، قلت: والله ما يُفسد على أمير المؤمنين الأمر ولا أضّر عليه إلا هذا وأشباهه.

الباحث: كيف ذلك يا حجاج والرجل يريد أن يعتزل القضاء زهدا وورعا، ورأى أباك فيه ما ترى؟!؟

الحجاج: مازلتُ عند رأيي، إن هذا الرجل وأشباهه من أهل الزهد والورع والتقوي، يقعدون ويقعد إليهم أحداث الناس، فيذكرون لهم سيرة أبي بكر وعمر، فيحقرُّ الناس سيرة أمير المؤمنين، ولا يرونها شيئا عند سيرتهما فيخلعونهم ويخرجون عليه ويُبغضونه ولا يرون طاعته.⁽¹⁾ وأقسمت حينها، أنه لو صفا لي الأمر أو خلص إليّ، لأضربن عنق هذا الرجل وأمثاله، استهجن أبي ذلك وقال: والله إني لأظن أن الله عز وجل خلقك شقيّا.

الباحث: هل بررت بقسمك عندما خلص الأمر إليك؟!؟⁽²⁾

الحجاج: قبل أن أجيبك على هذا يلزم أن تعرف جيدا حال الأمصار في دولة الخلافة الإسلامية في هذه المرحلة، كان الانقسام والتشرذم سمة العصر، وكان كثير من الفقهاء والعلماء في معظمها لهم تأثيرهم الكاسح على العامة، ولهم أيضا من المريدين والأتباع العدد الكبير، وكان العامة والدّهماء

(1) البداية والنهاية 12 / 510، 511

(2) لعل قتله سعيد بن جبير سنة 94 هـ (وأنا أرجح 95 هـ كما سيأتي) ومن قبله المئات من الفقهاء والحفاظ خير دليل على أنه برّ بقسمة هذا وقد كان سعيد بن جبير من كبار التابعين ومن أفقه أهل زمانه وسوف يأتي تفصيل ذلك فيما بعد بإذن الله.

يرون الحق عند هؤلاء لا غيرهم. فكان تأثيرهم مروع. لقد استطاع بعض الطامحين إلى السلطة أن يُشكل جيوشا تقدر بالآلاف يشقون بها عصا الطاعة على أمير المؤمنين يدعمهم بعض هؤلاء الفقهاء. راجع الحروب التي خاضتها جيوشي في العراق وقبل العراق قبل أن تستقر أمور الخلافة لعبد الملك بن مروان، صراعات أججها الفكر، أشعلها التعصب بهدف السلطة وكرسي الخلافة، وكرها لبني أمية؛ وإن بدا بعضها ثأرا لدماء الحسين أودماء ذويهم في البداية.

أما عن القَسَم، فلم يكن على إطلاقه فقد كان لكل حادثٍ حديث.

الباحث: هل كان لحُسن تقدير عبد الملك بن مروان لك دلائل أخرى؟

الحجاج: نعم بعد موقفي من شرطة ابن زنباع، ضممني عبد الملك الى وفد أرسله إلى زفر بن الحارث بعد أن طال القتال بينهما، وكان خارجا يشق عصا الطاعة على أمير المؤمنين، بهدف إجراء مفاوضات معه، لوضع نهاية لتلك الحرب بينه وبين الخليفة، وكان الوفد برئاسة رجاء بن حيوة، فلما حضرت الصلاة قام رجاء فصلى مع زفر! أما أنا فلم يُعجبني الوضع، وصليتُ وحدي، فسألني رجاء لماذا صليت وحدك؟ قلت له: أنا لأصلي مع منافقٍ خارج على أمير المؤمنين وعلى طاعته. بلغ هذا الموقف عبد الملك، فزاد إعجابه بي، وولاني تباله، فلما سألت عنها وجدتُها بلداً صغيراً لا شأن له خلف أكمة تسترها عن العين. فقلت: أفٌ لبلدة تسترها أكمة⁽¹⁾، رأيَتها أهون من أن أشغل نفسي بولايتها فاعتذرت للخليفة، وطلبت منه عملاً في الجيش، فولاني شرطة فلسطين لأخيه أبان بن مروان.⁽²⁾

(1) صارت مثلاً فقال الناس (أهون من تباله على الحجاج)

(2) الحجاج د. محمود زياده ص 40

الباحث: قالوا كانت فيك شهامةٌ عظيمة، وفي سيفك رهقٌ⁽¹⁾، كما كان غضبُك غضبَ الملوك. ما هذه الخصال...؟! هل بالغ المؤرخون في ذلك الوصف؟

الحجاج: كنت كذلك؛ أتمثل زياد بن أبيه أخا معاوية بن أبي سفيان من أبيه، كنت صبيا حين مات زياد سنة ثلاثة وخمسين، لم أبلغ الرابعة عشرة، وكانت أخباره تبلغنا فتؤثر فينا أيما تأثير، وكانت تجتمع فيه هذه الصفات، وكان زيادُ يَتمثل عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه.⁽²⁾

الباحث: وذكروا أيضا أنك نشأتَ ليبيًّا فصيحًا بليغا حافظا للقرآن الكريم، حتى إن أبا عمرو بن العلاء شهد بأنك نَدُّ للحسن البصري في الفصاحة.⁽³⁾

الحجاج: الحق إن أبا لعلاء لم يبالغ في ذلك فأنا الحجاج بن يوسف الثقفي، فقد كانت الفصاحة والبلاغة تأثرني وُتمتعتني وكان للشعراء عندي مكانة خاصة. ولعلك تلحظ بلاغتي وفصاحتي في ندواتي وخطبي ورسائلي. ألم تقرأها؟!

الباحث: بلا. وهذا عتبة بن عمرو يقول: ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضُها من بعض، إلا الحجاج وإياس بن معاوية، فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس.⁽⁴⁾ وهذه شهادة بالذكاء والعبقرية، ومع ذلك ذكر بعضهم⁽⁵⁾ أيضا أن سعيد بن المسيب زَجَرَكَ زَجْرًا شديدًا لسوء صلاتك حيث كنت تتعجل فيها...!

(1) الرهق بالتحريك: الهلاك والظلم مادة (ره ق) اللسان.

(2) البداية والنهاية 510 / 12

(3) البداية والنهاية 511 / 12 وانظر تاريخ دمشق 117 / 12

(4) البداية والنهاية 512 / 12 وانظر تاريخ دمشق المرجع السابق.

(5) البداية والنهاية، المرجع السابق 513 / 12

الحجاج: نعم لا أنسى هذا الموقف أبدا، كنت أصلي إلى جواره ولم أكن وقتها ذا شأن، وبعدها انتهت الصلاة هممتُ بالقيام، فإذا به يُمسك بثوبي وكان مازال يختم صلاته، حاولت أن أُخلِّص ثوبي من يده فتمسك به أكثر، فعلمت أنه يريدني في شيء، فاستسلمت له حتى ختم صلاته فإذا به يقول لي: يا سارق يا خائن تصلي هذه الصلاة. ترفع قبل الإمام وتقع قبل الإمام في السجود! وقد همَّ أن يضربني، تقبَّلتُ منه ما قال ولم أردَّ عليه لكبر سنِّه ومقامه، ولم تزل كلماته في أذني عند كل صلاة فأتَمَّها قياما وركوعا وسجودا. كان ذلك في مقتبل العمر.

الطريف في هذا الأمر أنه بعد مرور سنوات على هذا الموقف، وبعد مقتل ابن الزبير، توليت المدينة نائبا عليها لعبد الملك بن مروان..! فلما دخلت المسجد إذ بمجلس سعيد بن المسيب وحوله جمعٌ غفير، فقصدت إليه أتخطي الناس، فخشي الناس على سعيد بن المسيب مني، فجئت حتى جلست بين يديه، فقلت له: أنت صاحب الكلمات؟! - أقصد شتمه لي أنفا - وقد قلت في نفسي أخبره ربما يتراجع أو يعتذر أو يتلطف، باعتباري أصبحت أمير المدينة، بل أمير الحجاز كله، فإذا به يضربني في صدري بيده ويقول: نعم! قلت له: جزاك الله من معلمٍ ومؤدبٍ خيرا، ما صليتُ بعدك صلاةً إلَّا وأنا أذكرُ قولك. ثم قمت فمضيت لحالي، وقلت في نفسي قوته من قوة علمه، وثقته بالله لا حد لها، رغم ضعف بدنه وكبر سنة. فكان درسا ثان، وما نسيت هذا الموقف أيضا أبدا.

الباحث: لم تنتقم منه رغم كونك أمير المدينة حينئذٍ؟

الحجاج: لو فعلتُ لكان الحُمقُ بعينه. أولا لأن الموقف مضى عليه سنوات طويلة، ثانيا أن مجلس سعيد في المسجد النبوي وحوله المئات ممن يتلقون على

يديه الفقه والتفسير وعلوم الدين. وهذا الجمع الغفير يحبه ويقدره ولا
يحتمل أن يقع عليه أي أذى. فكان تخلُّصي من الموقف كما ذكرت لك.
الباحث: بعدما أصبحت من رجال بني أمية لم تعد تستقر في مكان، أصبحت طوفا
بالبلاد، من الشام الى مصر الى مكة الى المدينة. وبعد ذلك العراق؟!!

الحجاج: ليس على هذه الصورة، إنما الأمر يتوقف على حسب المهمة فالانضمام الى
الجيوش أو قيادتها في مهام استتباب أمن واستقرار الخلافة، يختلف عن ولاية
الأمصار، ومع ذلك كان لي في دار الخلافة دمشق، أدورٌ وليس دارًا واحدة،
وإن كانت أفضلها دار الزاوية، تلك الدار بقرب قصر ابن أبي الحديد⁽¹⁾

الباحث: أصبحت أقربَ إلى عبد الملك بن مروان، فهل أرضى ذلك غرورك؟
الحجاج: بل أرضى طموحي، وإن كان لديّ من الملكات والذكاء والفطنة ما
يسمح لي بالغرور.. ولكني لم أكن كذلك بل كنت أضع كل أمر في قدره
الحقيقي بلا مبالغة أو تهوين.. وربما كان ذلك سببا من أسباب نجاحي.
وأذكر لك موقف حدث، ربما تقدر منه بعضا من ذلك!.

الباحث: ماهو؟

الحجاج: بعدما استقر الشام لعبد الملك بن مروان وأراد الخروج الى العراق
لتخليصها من مصعب بن الزبير، واليها من قبل أخيه عبد الله بن الزبير.
جعل عبدُ الملكِ يستنفرُ أهل الشام فيطؤون عليه، فدعانا نحن كبار
معاونيه، وعرض علينا الأزمة التي يواجهها، وبعد أن استعرض معظم
الآراء، انتظر رأيي، قلت له: يا أمير المؤمنين سَلِّطْني عليهم فوالله
لأُخرجهم معك. فأذن لي.

فمررتُ بقوةٍ صغيرةٍ معي على دور أهل الشام، فما تركت داراً مررت بها لرجل لم يخرج مع عبد الملك، إلا أمرت أعواني بتحريقها، فلما رأى الناس ذلك، سارعوا جميعاً للخروج مع أمير المؤمنين! فاجتمع له جيش كبير أربع مصعب بن الزبير وقواته وكان سبباً في النصر عليه ومقتله سنة اثنتين وسبعين هجرية⁽¹⁾

الباحث: تحريق الدور على الناس ألا يُعتبر مبالغة؟ والدور فيها النساء والأطفال والعجائز؟!

الحجاج: وفيها أيضاً الرجال، ثم ألم تتحقق النتيجة المرجوة؟
الباحث: تحققت ولكن..!

الحجاج: لا مكان للكن، هذا ما قصدته بالضبط، تحقيق النتيجة بالقدر الذي أريده، لا كما يراه غيري، ويحتسبه مبالغة.⁽²⁾

الباحث: ولكن ما سر هذه الانقسامات والصراعات؟ ما أصلها؟؟

الحجاج: يا إلهي هذا أمرٌ كما تقول شرحه يطول، ويعود بنا إلى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

الباحث: هل يمكن أن تلخص الأمر؟

الحجاج: سأحاول..

(1) الحجاج، د. محمود زياده ص 41، 40

(2) هذه سمة من أبرز سمات فلسفة الحجاج.

أصل الصراع أو الفتنة الكبرى

الحجاج: تعلم أنني لم أعاصر هذه الأحداث، ولكن أقص عليك ما بلغنا منها، ولتعلم أنه مع تعدد الرواة، تتغير بعض التفاصيل.

كانت سنة خمس وثلاثين هجرية قبل مولدي بخمس سنوات، سنة فاصلة في تاريخ المسلمين، وفيها قُتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. تبدأ إرهابات هذه الفتنة في مصر، عندما بدأ المصريون يتزمرّون من قسوة عمرو بن العاص عليهم، وشكّوه أكثر من مرة إلى عثمان، فلم يزل هذا دأبهم في الشكوى منه، حتى عزله عثمان عن الحرب وتركه على الصلاة، وولّى على الحرب والخراج عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ثم سعى بعض أهل السوء بينهما بالنميمة، حتى كان بينهما كلامٌ قبيح.

الباحث: تقصد بين عمرو وابن أبي سرح؟

الحجاج: نعم، فأرسل عثمان فجمع لابن أبي سرح عمالة مصر؛ خراجها وحربها وصلاتها، وبعث إلي عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك، فاقدم إليّ، فانتقل عمرو إلى المدينة وقالوا اعتزل بفلسطين وفي نفسه من عثمان أمرٌ عظيم، ويقول الرواة إنهما تقاولا في ذلك فقال له عثمان: دع هذا فإنه من أمر الجاهلية، وقد كان بمصر جماعة يُغضون عثمان رضي الله عنه، ويتكلمون فيه بكلام قبيح ويؤلبون الناس عليه، وينقمون عليه في عزله جماعة من عليّة الصحابة مثل عمرو بن العاص، وتوليته من دونهم، أو من لا يصلح عندهم للولاية، يقصدون بن أبي سرح.

وذكر البعض ⁽¹⁾ أن سبب تألب الناس على عثمان أن رجلاً يُقال له: عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام، وصار إلى مصر، فأوحي إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه، خلاصته أن سيدنا محمد ﷺ كما أنه خاتم الأنبياء فقد أوصى لعليٍّ، فإن عليّاً هو خاتم الأوصياء؛ فهو أحق بالإمرة من عثمان، وعثمانٌ معتدٌ في ولايته ما ليس له، وقال: أنكروا عليه - يقصد عثمان رضي الله عنه - وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ودخل هذا في قلوب كثير من الناس، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر وكتبوا إلى جماعاتٍ من عوام أهل الكوفة والبصرة، فتمالتوا على ذلك، وتكاتبوا فيه، وتواعدوا أن يجتمعوا في الإنكار على عثمان، وأرسلوا إليه من يناظره، ويذكر له ما ينقمون عليه من توليته أقرباءه وذوي رحمه، وعزله كبار الصحابة، وأغلظوا له القول.

وذكر البعض ⁽²⁾ أنه في تلك السنة سنة أربع وثلاثين، كثر الناس على عثمان، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحدٍ، فكلم الناس عليّاً أن يدخل على عثمان، فدخل عليه فقال له: إن الناس ورائي وقد كلموني فيك، ووالله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمرٍ لا تعرفه، إنك لتعلم ما نعلم، وما سبقناك إلى شيءٍ فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيءٍ فنبلغكهُ، وما خُصصنا بأمورٍ عنك، وقد رأيتَ وسمعتَ وصحبتَ رسولَ الله ﷺ ونلتَ صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيءٍ من الخير منك، وإنك أقربُ إلى رسول الله ﷺ رحماً، ولقد نلتَ من صهر رسول الله ﷺ ما لم ينالا، ولا سبقاك إلى

(1) انظر تاريخ الطبري 340، 341 / 4 وراجع البداية والنهاية 263 / 10

(2) تاريخ الطبري 336 / 3 - 339 4 - وانظر البداية والنهاية 264 / 10 - 267.

شيء، فالله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر عن عمي، ولا تعلم من جهل، وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة، تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هدي وهدي، فأقام سنة معلومة، وأما بدعة معلومة، فوالله إن كلاً لبين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام، وإن شر الناس عند الله إمام جائر، ضلّ وضلّ به، فأما سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر حميم، فيلقى في جهنم فيدور فيها كما تدور الرحا ثم يرتطم في غمرة جهنم »⁽¹⁾. وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقمته، فإن عذابه شديد أليم، واحذر أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يقال: يقتل في هذه الأمة إمام، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبس أمورها عليها، ويتركون شيعاً لا يبصرون الحق من الباطل، يمجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً. فقال عثمان: قد والله علمت لتقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكانك ما عنفتك، ولا أسلمتكم ولا عبت عليكم، ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً، وسددت خلّة، وأويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي، أنشدك الله يا علي هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم. قال: فتعلم أن عمر ولأه؟ قال: نعم. قال: فلم تلومني أن ولّيت بن عامر في رحمه وقرابته؟ فقال علي: سأخبرك، إن عمر كان كل من ولّى فإنما يطأ على صماخيه، إن بلغه عنه حرف جاء به، ثم بلغ به أقصى الغاية في العقوبة، وإنك لا تفعل، ضعفت ورفقت على أقربائك، فقال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً. فقال علي: لعمرى إن

رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم. قال عثمان: هل تعلم أن عمرَ ولَّى معاوية خلافتَه كُلَّهَا؟ فقد وَلَّيْتُهُ. فقال عليٌّ: أنشدك الله، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمرَ من (يرفأ) غلامِ عمرَ منه؟ قال: نعم. قال عليٌّ فإن معاويةَ يقطعُ الأمورَ دونك وأنت تعلمها، ويقول للناس: هذا أمرُ عثمان. فيبلغك ولا تُغيِّرَ على معاويةَ.

ثم خرج عليٌّ من عنده، وخرج عثمان على إثره فصعد المنبر، فخطب الناس فوعظ، وحذَّرَ وأنذَر، ونَهَّدَ وتوعَّد، وأبرقَ وأرعد، فكان فيما قال: ألا فقد والله عِثْمُ عليٍّ بما أقررتم به لابن الخطَّاب، ولكنه وَطِئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فِدَنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، وَلِنتُ لكم وأوطأتُ لكم كتفي، وكففتُ يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ، أما والله لَأَنَا أَعَزُّ نَفَرًا، وأقربُ ناصِرًا، وأكثرُ عدَدًا، وأقمنُ إن قلتُ: هَلُمَّ. أتي إليّ، ولقد أعددتُ لكم أقرانكم، وأفضلتُ عليكم فضولا، وكشرتُ لكم عن نابي، فأخرجتم مني خُلُقًا لم أكن أُحْسِنُه، ومنطقًا لم أنطق به، فكفُّوا ألسنتكم وطعنكم وعيكم على ولايتكم، فإني قد كففتُ عنكم من لو كان هو الذي يليكم لرَضِيتُم منه بدون منطقي هذا، ألا فما تفقدون من حَقِّكم؟ فوالله ما قصَّرتُ في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي.

ثم اعتذر عمَّا كان يُعْطِي أقاربه بأنه من فضلِ مالِه، فقام مروان بن الحكم فقال: إن شئتم والله حَكَمْنَا بيننا وبينكم السيف، نحن والله وأنتم كما قال الشاعرُ:

فَرَشْنَا لَكُمْ أَعْرَاضَنَا فَنَبَتْ بِكُمْ مَعَارِسُكُمْ تَبْنُونُ فِي دِمَنِ الثَّرَى

فقال عثمان: اسكُتْ لا سَكَّتْ، دعني وأصحابي، ما منطقتُ في هذا! ألم أتقدَّم إليك أن لا تنطق! فسكت مروان ونزل عثمان رضي الله عنه.

ولقد شقَّ ذلك على عثمان جدًّا وبعث إلى أمراء الأجناد فأحضرهم عنده ليستشيرهم، فاجتمع إليه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام، وعمرو بن العاص أمير مصر، وعبد الله بن أبي سرح أمير المغرب، وسعيد بن العاص أمير الكوفة، وعبد الله بن عامر أمير البصرة. فاستشارهم فيما حدث من الأمر وافتراق الكلمة، فأشار عبد الله بن عامر أن يشغلهم بالغزو عمَّا هم فيه من الشرِّ، فلا يكونُ همُّ أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دبرة دابته، وقمل فروته، فإن غوغاء الناس إذا تفرَّغوا وبطلوا، اشتغلوا بما لا يُغني وتكلَّموا فيما لا يُرضي، وإذا تفرقوا نفعوا أنفسهم وغيرهم. وأشار سعيد بن العاص بأن يستأصل شأفة المفسدين، ويقطع دابرهم. وأشار معاوية بأن يرَدَّ عماله إلى أقاليمهم، وأن لا يلتفت إلى هؤلاء وما تألبوا عليه من الشرِّ، فإنهم أقلُّ وأضعفُ جُندًا، وأشار عبد الله بن أبي سرح بأن يتألَّفهم بالمال فيعطيه منهُ ما يكفُّ به شرَّهم، ويأمن غائلتهم، ويعطف به قلوبهم إليه. وأمَّا عمرو بن العاص فقد قام فقال: أما بعدُ يا عثمان فإنك قد ركبت الناس ما يكرهون، فإمَّا أن تعزِّلَ عنهم ما يكرهون، وإمَّا أن تقدِّمَ فتُنزِلَ عمَّالك عمَّا هم عليه. فعند ذلك قرَّر عثمان عماله على ما كانوا عليه، وتألَّف قلوب أولئك بالمال، وأمر بأن يُبعثوا في الغزو إلى الثغور، فجمع بين المصالح كلها.

ولمَّا رجعت العُمال إلى أقاليمها، امتنع أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سعيد بن العاص، ولبسوا السلاح وحلفوا أن لا يمكِّنوه من الدخول عليهم حتى يعزله عثمان، وأحجم سعيد عن قتالهم، وكرَّ راجعًا إلى المدينة، فأعجب أهل الكوفة ذلك وكتبوا إلى عثمان أن يولِّي عليهم أبا موسى الأشعري، فأجابهم عثمان إلى ما سألوا، إزاحةً لعذرهم وقطعًا لعللهم.⁽¹⁾

الباحث: وأين معاوية من هذه الأحداث؟!

الحجاج: كان في المدينة حينئذٍ، بدعوة من عثمان، كما ذكرت لك ولكن كان مضطراً للرجوع إلى الشام حيث شئون إمارته. وكان يراهم أقل شأناً وأضعف جُنْدًا كما ذكر لعثمان. ورغم ذلك فإن معاوية لمَّا ودَّع عثمان حين عزم على الخروج إلى الشام، عرض عليه أن يرحل معه إلى الشام، وقال له: إن أهل الشام قومٌ كثيرةٌ طاعتهم للأمراء. فقال عثمان: لا أختارُ بجوار رسول الله ﷺ سواه، فقال: أُجهِّزُ لك جيشاً من الشام يكونون عندك ينصرونك؟ فقال: إني أخشى أن أضيقَّ بهم بلد رسول الله ﷺ على أصحابه من المهاجرين والأنصار. فقال معاوية: فوالله يا أمير المؤمنين لتُغتالَنَّ. فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم خرج معاوية من عنده وهو متقلدُ السيف، وقوسه في يده، فمرَّ على ملاً من المهاجرين؛ فيهم عليُّ بن أبي طالب، وطلحة، والزبير، فوقف عليهم واتكأ على قوسه وتكلم بكلام بليغ يشتمل على الوصاة بعثمان بن عفان، رضي الله عنه، والتحذير من إسلامه إلا أعدائه، ثم انصرف ذاهباً.

يقول الزبير: ما رأيته أهيَّب في عيني من يومه هذا. ⁽¹⁾

وكره أهلُ مصر عبدَ الله بن سعد بن أبي سرح بعد عمرو بن العاص، وقد اشتغل عنهم عبد الله بقتال أهل المغرب، وفتحِه بلاد البربر والأندلس وإفريقية.

(1) تاريخ الطبري 4/345، والكامل 3/157 والبداية والنهاية 10/267، 268

وقد زكَّى البعض من أصحاب الأهواء فضلاً عن ابن سبأ⁽¹⁾ بمصر هذه الكراهية لابن أبي سرح، حتى استنفروا أكثر من ستمائة راكب إلى المدينة في صِفَةِ مُعْتَمِرِينَ، في شهر رجب من هذه السنة، لِيُنْكِرُوا على عثمان.

وكتب عبدُ الله بن سعد بن أبي سرح إلى عثمان يُعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة منكرين عليه في صِفَةِ مُعْتَمِرِينَ، فلما اقتربوا من المدينة طلب عثمان من بعض الصحابة ومنهم عليُّ بن أبي طالب، أن يخرجوا إليهم ليردوهم إلى بلادهم قبل أن يدخلوا المدينة، وكانت هناك خلافات في ذلك الحين، بين بعض الصحابة وبعض، وبين بعضهم وبين عثمان، لا مجال لشرحها، جعلت منهم من لا يلبي الدعوة للخروج لدفع هؤلاء القادمين على عثمان⁽²⁾، ولكن علي بن أبي طالب رضي الله عنه انطلق إلى هؤلاء المصريين، فأَتَبَهُم ورددَهم، فرجعوا على أنفسهم بالملامة.

وقال بعض الرواة: إن علياً ناظرهم فيما نَقَمُوهُ على عثمان، حيث ذكروا أشياء منها أنه حَمَى الحِمَى، وأنه حَرَّقَ المصاحف وأنه أتمَّ الصلاة بمكة، وأنه ولى الأحداث الولايات، وترك الصحابة الأكابر، وأعطى بني أمية أكثر من الناس، فأجاب عليٌّ عن ذلك فقال: أما الحِمَى فإنما حَمَاهُ لِإِبل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لِإِبله ولا لغنمه، وقد حَمَاهُ عُمُرٌ من قبله، وأما المصاحف فإنما حَرَّقَ ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما

(1) يقال إن بعض أبناء الصحابة بمصر زكَّى هذه الكراهية لابن أبي سرح، وهم محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، حتى استنفروا أكثر من ستمائة راكب إلى المدينة في صِفَةِ مُعْتَمِرِينَ، في شهر رجب من هذه السنة، لِيُنْكِرُوا على عثمان، ومعهم محمد بن أبي بكر، أما محمد بن أبي حذيفة فقد أقام بمصر يُؤَلِّبُ الناس. راجع البداية والنهاية 10 / 272

(2) البداية والنهاية 10 / 272

ثبت في العَرَضَةِ الأخيرة، وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتَمَّها، وأما تولية الأحداث، فلم يُؤَلَّ إلا رجلاً سَوِيًّا عدلاً، وقد وَلَّى رسولُ الله ﷺ عَتَّابَ بنَ أُسَيْدٍ على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولى أسامةَ بنَ زيد بن حارثة الجيش ولم يكن بلغ العشرين، وطعن الناس في إمارته فقال « إِنَّهُ لَخَلِيقٌ لِلإِمَارَةِ »، وأما إثارُه قومَه بني أمية فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشا على الناس، ووالله لو أن مفتاح الجنة معي لأدخلت بني أمية إليها.

وجاء عليٌّ إلى عثمان بعد انصراف بعض الناقمين عليه، فقال له: تكلم كلاماً يَسْمَعُهُ الناس منك ويشهدون عليك، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فإن البلاد قد تمخضت عليك ولا آمن ركباً آخرين يَقدِّمون من قِبل الكوفة، فتقول يا عليّ اركب إليهم. ويقدم آخرون من البصرة فتقول: يا عليّ اركب إليهم. فإن لم أفعل قطعُ رحمك واستخففتُ بحقك. فخرَجَ عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها، وأعلم الناس من نفسه التوبة.

وقالوا إن عثمان خطب الناس بما عتب به الخارجون عليه وبغيره بمحضر من الصحابة، وجعل يستشهد بهم فيشهدون له، وشهد هذه الخطبة طائفة من هؤلاء الخارجين، فانزاحت العلل ولم يبق لهم شبهة.

وأشار بعض الصحابة على عثمان أن يُؤدَّب هؤلاء، فلم يفعل بل صفح عنهم وتركهم، وردَّهم إلى قومهم.

الباحث: وهل عاد الناس إلى بلادهم؟

الحجاج: نعم لبعض الطريق. ويبدو أن الناس رجعوا إلى المدينة من جديد في عُدَّةٍ وعتادٍ أكثر

لم يكن مروان بن الحكم ممن رضي هذا الموقف من عثمان، وقال له فيما قال: بأبي أنت وأمي، لوددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنعٌ منيع، فكنتُ أولَ من رضي بها وأعان عليها. ثم قال: والله لإقامة على خطيئة يُستغفر منها، خير من توبة تُخَوِّفُ عليها، وإنك لو شئتَ لعزمتَ التوبةَ ولم تُقر لنا بالخطيئة، وقد اجتمع إليك على الباب مثلُ الجبال من الناس. ثم خرج مروان للناس كطلب عثمان لِيُكَلِّمَهُمْ، والناسُ يركبُ بعضهم بعضاً، فزجرهم مروانُ، وشتهم وأنذرهم. وقد أغضبَ هذا الموقفُ عليًّا فعاتب فيه عثمان.⁽¹⁾

بلغ أهل الأمصار ما كان من مروان بن الحكم، وغضب عليٌّ الذي كان يحاول تهدئة الأمور، لينصرف الجمع الى بلادهم.

ووجدوا أن الأمر على ما كان عليه لم يتغير، وتكاتب أهل مصر وأهل الكوفة، وأهل البصرة، وتراسلوا وزُورت كتبٌ على لسان الصحابة الذين بالمدينة؛ على لسان عليٍّ وطلحة والزبير، بل وعائشة أم المؤمنين أيضاً، بدعوة الناس إلى قتالِ عثمان، ونصر الدين، وأنه أكبرُ الجهاد اليوم.⁽²⁾

الباحث: ولكن الموسم موسم حج، فهل حج من الناس أحد في هذا العام، وهذه الظروف؟

الحجاج: نعم، عندما جاء موسم الحج خرج كثير من الناس ومن الصحابة للحج، وخرجت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في هذه السنة للحج، ف قيل لها: إنك لو أقمت كان أصلح، لعلَّ هؤلاء القوم يهابونك. فقالت: إني

(1) البداية والنهاية 10 / 276

(2) البداية والنهاية 10 / 276، 277

أخشى أن أشير عليهم برأي، فينالني منهم من الأذية ما نال أم حبيبة. فعزمت الخروج.⁽¹⁾

واستخلف عثمان رضي الله عنه في هذه السنة على الحج عبد الله بن عباس، فقال له عبد الله بن عباس: إن مقامي على بابك أجاحفُ عنك أفضل من الحج. فعزم عليه، فخرج بالناس إلى الحج.

وكما توقع عليٌّ، توافد الناس من الأمصار بحجة آداء فريضة الحج جاؤا من مصر ومن الكوفة والبصرة في أعداد كبيرة، وتمكنوا من دخول المدينة، وكان أهل مصر مُصْرُّونَ على تولية عليٍّ وأهل الكوفة عازمون على تأمير الزبير، وأهل البصرة مصممون على تولية طلحة، كان ذلك في شهر شوال من هذه السنة، ولما جاء كل فريق إلى صاحبهم الذي يريدون تأميره زجرهم وأغلظ لهم القول وطردهم، هذا ما فعله عليٌّ وما فعله الزبيرُ وفعله طلحة، فانصرفوا وأظهروا أنهم راجعون إلى بلادهم وساروا أياما راجعين، ثم كُروا عائدين إلى المدينة، فما كان غير قليل حتى سَمِعَ أهل المدينة التكبير، وإذا القوم قد زحفوا على المدينة وأحاط معظمهم بدار عثمان بن عفان، وقالوا للناس من كفَّ يده فهو آمن. فكف الناس أيديهم ولزموا بيوتهم، واستمرَّ هذا الوضع أياما ولا يدري الناس ما القوم صانعوه، ولا على أي شيء هم عازمون، كل ذلك وأمير المؤمنين عثمان بن عفان يخرج من داره فيصلي بالناس، فيصلي وراءه أهل المدينة وأولئك الآخرون.

(1) حاولت أم حبيبة أم المؤمنين أن تكسر الحصار على عثمان كما فعل عليٌّ من قبل بعد جهد جهيد ولكنها فشلت في ذلك وأصابها أذى كبير وقطعوا حزام بغلتها وسقطت عنها أو كادت حتى كادت تقتل لولا تلاحق الناس بها فانقذوها منهم. راجع البداية والنهاية 10 / 312

وذهب الصحابة إلى القوم يؤنبونهم ويعذلونهم على رجوعهم إلى المدينة. فقالوا لعلّي وجدنا مع بريد كتابا بقتلنا بقلم عثمان، والبريد أحد غلماننا، وعلى جمل عثمان، وفي الكتاب أمر منه بقتل طائفة وبصلب آخرين، وبقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم، وكذلك قال البصريون لطلحة والكوفيون للزبير، وقالوا إنما جئنا لنصرة أصحابنا.

كان أهل مصر من قبل قد سألوا عثمان أن يعزل ابن أبي سرح عنهم ويولي محمد بن أبي بكر، فأجابهم إلى ذلك، فلما رجعوا وجدوا ذلك البريد ومعه الكتاب بقتل محمد بن أبي بكر وآخرين معه.

وكانوا عند رجوعهم إلى المدينة قد طافوا بهذه الكتب على الناس، وبعد نقاش وأخذ ورد قالوا لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا ونحن نعتزله، وكلم الناس عثمان فيما ادعاه القوم، فقال: بينة عليّ بذلك، وإلا فوالله لا كتبت ولا أملت، ولا دريت بشيء من ذلك، والخاتم قد يزور على الخاتم. فصدّقه الصادقون وكذّبه الكاذبون.

وكان القوم قد خيروه أن يعزل نفسه أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، حيث اعتبروه وراء هذه المكيدة وهذا البريد المزور على عثمان بقتلهم. فلم يجبههم إلي شيء من ذلك وحمل مروان بن الحكم في داره، خشية أن يقتلوه، وردّا على طلبهم أن يعزل نفسه قال: ما كنت لأخلع قميصاً ألبسنيه الله.

وكان عثمان لما اشتدّ الحصار على الدار، قد أرسل اللي الأمصار ليعثوا جيوشا لتطرد هؤلاء الخوارج من المدينة، فكانت الجيوش بالفعل في طريقها إليه...

واستمر الحصار بالدار، حتى مضت أيام التشريق ورجع البشير من الحج، فأخبر بسلامة الناس، وأخبر بأن أهل الموسم عازمون على الرجوع إلى

المدينة ليكفُّوا هؤلاء عن أمير المؤمنين. وأخبر أيضا أن معاوية قد بعث جيشا مع حبيب بن مسلمة، وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد أنفذ آخر من مصر مع معاوية بن حُديج، وأن أهل الكوفة قد بعثوا القعقاع بن عمرو في جيش، وأن أهل البصرة بعثوا مجاشعا في جيش، فعند ذلك صمم هؤلاء الخوارج على أمرهم وبالغوا فيه، وانتهزوا الفرصة بقلّة الناس وغيبتهم في الحج وتعجلوا الأمر قبل أن يعود الناس من مكة أو تدخل جيوش الأمصار المدينة.

وتجراً القوم على أمير المؤمنين عثمان بن عفان في حصارهم لداره وحصبوه وهو على المنبر في إحدى الجمع، وأنزلوه وشجوه ووقع مغشيا عليه وكسروا عصى رسول الله ﷺ، التي كان يتكأ عليها وهو يخطب مثلما كان يصنع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وحمى الصحابة وأبناءهم الذين حضروا الموقف عثمان وحملوه إلى داره.

واستقتل أبو هريرة وابن عمر وزيد بن ثابت وجماعة من الصحابة، في المحاربة عن عثمان، فبعث إليهم يُقسم عليهم لَمَّا كَفُّوا أيديهم وسَكَنُوا حتى يقضيَ الله ما شاء، ولما اشتدَّ الحصارُ على دار عثمان سار أبناءُ بعض الصحابة منهم الحسنُ والحسينُ وعبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن عمر، صاروا يجاحفون عنه ويناضلون دونه أن يصل إليه أحدٌ من هؤلاء الخوارج.

كان الحصار مستمرا من أواخر ذي القعدة إلى يوم الثامن عشر من ذي الحجة فلما كان قبل ذلك بيوم قال عثمان للذين عنده في الدار من أبناء الصحابة المهاجرين والأنصار وكانوا قريبا من سبعمائة؛ فيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، والحسن والحسين، ومروان، وأبو هريرة، وخلق من مواليه، ولو تركهم لمنعوه فقال لهم: أُقَسِّم على من لي عليه حقٌ أن يكفَّ يدهُ، وأن ينطلق إلى منزله.

فكان آخر من خرج من الدار الحسن بن علي وقد جرح، وكان أمير الحرب على الدار عبد الله بن الزبير، ولكن ظلَّ القتالَ حامياً خارج الدار.

ولما اشتد الحصارُ كان تهديدُ الخارجين عليه، أن يقتلوه إن لم يستجب، وظن الصحابة أن هذا مجردُ تهديد، وحتما لا يقع أو يصل الأمر إلى القتل. وكان عثمان رضي الله عنه قد أشرف على أصحابه من داره وهو محصورٌ فقال: علامَ تقتلونني؟ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يحل دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث، رجل زنى بعد إحصائه فعلية الرجم، أو قُتل عمداً فعلية القود، أو ارتدَّ بعد إسلامه فعلية القتل» فوالله مازنيت في جاهلية أو إسلام، ولا قُلت أحداً فأقيد نفسي منه، ولا ارتددت منذ أسلمت؛ إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله.⁽¹⁾

وأحاط الخوارج بالدار وجَدُّوا في الحصار وأحرقوا الباب وتسوَّروا من الدور المتاخمة لدار عثمان كدار عمرو بن حزم وغيرها، وجاحف الناس عن عثمان أشدَّ المجاحفة واقتتلوا على الباب قتالا شديداً.

واستمر الحصر ثنتين وعشرين ليلة وقيل أكثر من ذلك⁽²⁾ قُتل في آخرها عثمان بن عفان أمير المؤمنين شهيداً.

الباحث: هل كان عددهم كبيراً إلى هذه الدرجة التي يتحكمون بها في سير الأحداث بالمدينة؟

الحجاج: نعم كانوا قريباً من ألفي مقاتل من الأبطال، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدة من المقاتلة؛ لأن الناس كانوا على الثغور وفي الأقاليم في كل جهه وفي الحج.⁽³⁾

(1) رواه النسائي

(2) البداية والنهاية 10 / 322

(3) البداية والنهاية 10 / 344، 345

كانت خلافة عثمان ثنتي عشرة سنةً إلا اثني عشر يوماً لأنه بُويع بالخلافة في مستهل المحرم سنة أربع وعشرين. وكان يوم قتل قد تجاوز الثمانين.

الباحث: قالوا إن الحجيج بعد عودتهم من مكة وجدوا عثمان قد قُتل، وباع الناس علياً بن أبي طالب. الغريب في الأمر، اتهام بعض الصحابة بالتحريض على قتل عثمان، وأن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله. كيف ترى ذلك؟

الحجاج: هذا لا يصح عن أحد الصحابة أنه رضي بقتل عثمان، رضي الله عنه، بل كلهم كرهه، ومقتته، وسب من فعله، ولكن بعضهم يود لو أن عثمان خلع نفسه من الأمر؛ كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن الحمق وغيرهم.⁽¹⁾

الباحث: يقال إن علياً فرّ من الناس إلى حائط يمتنع به حتى لا يُبَاع بالخلافة؟

الحجاج: حدث ذلك بالفعل، فرّ من الناس إلى حائط بني عمرو بن مبدول، وأغلق بابَه وامتنع عن قبول الإمارة حتى تكرر قولهم، فجاء الناس فطوقوا الباب، وولجوا عليه، وجاءوا معهم بطلحة والزبير، فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاءه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب.⁽²⁾

وقد ذكر ابن عباس أن علياً قال: إن شاء الناسُ حلفتُ لهم عند مقام إبراهيم بالله، ما قتلْتُ عثمان، ولا أمرت بقتله، ولقد نهيتهم فعصوني. وقال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قُتل عثمان، وأنكرتُ نفسي، وجاؤني للبيعة فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوما قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله ﷺ: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة».⁽³⁾ وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتلٌ

(1) البداية والنهاية 10 / 345

(2) البداية والنهاية 10 / 420

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک 3 / 103 راجع البداية والنهاية 10 / 334

على الأرض لم يُدفن بعد. فانصرفوا، فلما دُفن رجع الناس يسألوني البيعة فقلت: إني لمشفق لما أُقَدِّم عليه، ثم جاءت عزيمة فبايعتُ، فلما قالوا: أمير المؤمنين، فكأنما صُدمت قلبي وانسكبتُ بعبرة.⁽¹⁾

الباحث: يقال: إن هذه الاتهامات طالت أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها؟

الحجاج: بالفعل فقد ذكروا أن عائشة أم المؤمنين قالت حين قُتل عثمان: تركتموه كالثوب النقي من الدنس ثم قتلتموه. قربتموه ثم ذبحتموه كما يُذبح الكبش، فقال لها مسروق: هذا عملك، أنتِ كتبتِ إلى الناس تأمرينهم أن يخرجوا إليه. فقالت: لا والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون، ما كتبت إليهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا.⁽²⁾

وهذا يؤكد أنه كُتب على لسانها. وغيرها من الصحابة، لذلك كانوا يدفعون هذه التهم عنهم ويُقسمون ما فعلوا.

الباحث: لقد روى أبو موسى الأشعري قال: كنت مع رسول الله ﷺ في حائط، فأمرني بحفظ الباب، فجاء رجلٌ يستأذن، فقلت: من؟ قال: أبو بكر. فقال رسول الله ﷺ: «اُذن له وبشره بالجنة». ثم جاء عمر فقال: «اُذن له وبشره بالجنة». ثم جاء عثمان فقال: «اُذن لله وبشره بالجنة على بلوى تُصيبه». فدخل وهو يقول: اللهم صبراً. أو قال الله المستعان.⁽³⁾

الحجاج: عليه رحمة الله أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وما أشدها من بلوى.

الباحث: نحن في العالم الآن لا يمكن أن ننسي منقبة من أهم مناقب سيدنا عثمان عليه رضوان الله، وهو أنه جمع الناس على مصحف واحد؛ مصحف عثمان!.

(1) البداية والنهاية 10 / 334

(2) البداية والنهاية 10 / 340 وانظر ابن عساكر، تاريخ دمشق (ترجمة عثمان) ص 496

(3) البخاري (3695، 7262) ومسلم (3403) وبرواية قتادة أخرجه الإمام أحمد في المسند

الحجاج: نعم كتب المصحف على العرضة الأخيرة، التي درّسها جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، في آخر سني حياته.

الباحث: هل بلغك لم فعل ذلك؟

الحجاج: أقول لك: كان سبب ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في بعض الغزوات، وقد اجتمع فيها خلقٌ من أهل الشام ممن يقرأ على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء، وجماعة من أهل العراق ممن يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود وأبي موسى، وجعل من لا يعلم بسوَعَانِ القراءة على سبعة أحرف، يُفَضِّلُ قراءته على قراءة غيره، وربما خطأ الآخر أو كفره، فأدي ذلك إلى اختلافٍ شديدٍ وانتشار في الكلام السيئ بين الناس، فركب حذيفة إلى عثمان، فقال يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها كاختلاف اليهود والنصارى في كتبهم. وذكر له ما شاهد من اختلاف الناس في القراءة، فعند ذلك جمع عثمان الصحابة وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجتمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به دون ما سواه؛ لما رأى في ذلك من مصلحة كف المنازعة، ودفع الاختلاف.

الباحث: كيف فعل عثمان رحمه الله هذا؟

الحجاج: استدعى بالصحف التي كان الصديق أمر زيد بن ثابت بجمعها، وكانت عند الصديق أيام حياته، ثم كانت عند عمر، فلما توفي صارت إلى حفصة أم المؤمنين، فاستدعى بها عثمان وأمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب، وأن يُملي عليه سعيد بن العاص الأموي، بحضرة عبد الله بن الزبير الأسدي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وأمرهم إذا

اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش، فكتب لأهل الشام مصحفًا ولأهل مصر آخر، وبعث إلى البصرة مصحفًا وإلى الكوفة بآخر، وأرسل إلى مكة مصحفًا وإلى اليمن مثله، وأقر بالمدينة مصحفًا. ويُقال لهذه المصاحف: الأئمة، وهي بخط زيد بن ثابت، وإنما يقال لها المصاحف العثمانية؛ نسبة إلى أمره وزمانه وإمارته.⁽¹⁾ ثم عمد عثمان إلى بقية المصاحف التي بأيدي الناس مما يخالف ما كتبه فحرّقه؛ لئلا يقع بسببه اختلاف.

وقد قال عليّ: أيها الناس، إياكم والغلو في عثمان، يقولون: حرّق المصاحف والله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب محمد ﷺ، ولو وُلّيت مثل ما ولي، لفعلت مثل الذي فعل.

أما عبد الله بن مسعود فإنه تعبّ لما أخذ منه مصحفه فحرّق، وتكلم في تقدّم إسلامه على زيد بن ثابت الذي كتب المصاحف، وأمر أصحابه أن يغلّوا مصاحفهم، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾⁽²⁾ فكتب إليه عثمان، رضي الله عنه، يدعوّه إلى أتباع الصحابة فيما أجمعوا عليه من المصلحة في ذلك، وجمع الكلمة، وعدم الاختلاف، فأجاب وأجاب إلى المتابعة وترك المخالفة.

الباحث: قالو إنك فزعت يوما عندما لاحظت شيوع التصحيف عند بعض من يقرأ القرآن. الحجاج: حقًا لقد أفرغني ذلك، وقد كان ما لاحظته هذا في العراق عندما وفدت عليها أميرًا، وكان ذلك أيام عبد الملك بن مروان، فلم يكن البعض يفرّق بين بعض الحروف مثل التاء والباء و الثاء أو الحاء والجيم أو الراء والزاي. رغم أنهم يقرءون من مصحف عثمان وهم على ذلك من أكثر من أربعين عامًا، لاحظت انتشار هذا التصحيف بالعراق، فجمعت

(1) البداية والنهاية ج 10 / 392، 393

(2) آل عمران: 161

الْكُتَّابُ وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فقام نصر بن عاصم بذلك فوضع النقط أفرادًا وأزواجًا وخالف بين أماكنها، فغبر الناس زمانًا لا يكتبون إلا منقوطًا.⁽¹⁾

الباحث: قل لي يا حجاج، إذا كانت الأسباب التي أهاجت الأمصار هي ما ذكرت، ومنها أنه حرَّق المصاحف، وكان رد عليٍّ عليها ردًّا بليغًا جعل الذين خرجوا على عثمان يراجعون أنفسهم، خاصة بعد خطبة عثمان، فبم تُفسَّر اشتعال الفتنة من جديد؟

الحجاج: الحقُّ إن الأسباب لكثيرة والمقدمات منذرة ولكن البعض يرى أن عثمان أوقع نفسه في إدارته بصفة عامة في مشكلتين عظيمتين ترتب عليهما تجرُّاً الرعية على ولاية الأمصار، ثم تجرُّهم عليه شخصياً، حتى بعد وفاته⁽²⁾

الباحث: كيف؟

الحجاج: أقول لك: الأولى، كان مما يعتمد عليه عثمان بن عفان أنه كان يُلْزِمُ عُمَّالَهُ بحضور المواسم كلَّ عام، ويكتب إلى الرعايا: من كانت له عند أحدٍ منهم مَظْلَمَةٌ، فليواف إلى الموسم، فإني آخذ له حقه من عامله. وكان أولى أن يختار قضاةً أقوياء يهابهم الأمراء وتهابهم الرعية.

الباحث: ولكن عمر رضي الله عنه سبقه في ذلك، وقصةُ القبطي مع ابن عمرو بن العاص قصة مشهورة!

(1) وفيات الأعيان ج 2 / 32 ويذكر أبو أحمد العسكري في كتاب (التصحيح) أنه مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيح، فأحدثوا الإعجام، فكانوا يتبعون النقط والإعجام، فإذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم توفَّ حقوقها اعتري التصحيح، فالتمسوا حيلة، فلم يقدروا فيها إلا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين.

(2) ذكر صاحب البداية والنهاية، أن عمير بن ضابئ نزا على سريه (سرير عثمان) وهو موضوع للصلاة عليه، فكسر ضلعين من أضلاعه وقال: أحبست ضابئاً حتى مات في السجن؟! ولهذا السبب قتل الحجاج فيما بعد عمير بن ضابئ هذا. (راجع البداية والنهاية 10 / 326)

الحجاج: أولاً لم يطلب عمر رضي الله عنه من رعاياه مثلما طلب عثمان رضي الله عنه وما فعله القبطي كان من تلقاء نفسه. ثم إن هيبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قلوب الناس والولاة على السواء، تختلف عن هيبة عثمان، رضوان الله عليه، وهذا ما واجه به عليُّ عثمان صراحةً، فقد كان عثمانُ سمحاً ليناً، فضلاً عن تغير الأحوال واتساع الأمصار، وحادثة عهد الناس في البلاد المفتوحة بالاسلام وتعاليمه وقيمه.⁽¹⁾

الباحث: وما هي المشكلة الثانية؟

الحجاج: أما الثانية، أن عثمان كان قد سمح لكثير من كبار الصحابة في المسير حيث شاءوا من البلاد وكان عمر يحجُرُ عليهم في ذلك حتى وإن كان غزواً، وذلك ليستعين بهم في إدارة أمور البلاد وفي المشورة والفقهِ والقضاء، فلما خرجوا في زمان عثمان إلى الأمصار، اجتمع عليهم الناس، وصار لكل واحدٍ منهم أصحابٌ، وطمع كل قوم في تولية صاحبهم الإمارة بعد عثمان، وقد تقدم في السنن، فاستعجلوا موته، واستطالوا حياته، حتى وقع ما وقع من بعض أهل الأمصار.⁽²⁾ وما فعله عُمير بن ضابئ في عثمان رضي الله عنه وهو مُسجى قبل أن يُصلَّى عليه خير دليل على تَجَرُّثهم عليه حتى بعد وفاته. وكان الأولى أن يحتفظ في جواره بكبار الصحابة لإدارة شئون البلاد والمشورة، خاصة مع اتساع الأمصار وامتدادها شرقاً وغرباً.⁽³⁾

(1) هذا رأى الباحث أجراه على لسان الحجاج الافتراضي وليس رأي الحجاج على التحقيق. وهكذا في كل نظير.

(2) البداية والنهاية ج 10 / 397، 398

(3) وهذه أيضاً وجهة نظر الباحث.

الْبَيْعَةُ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الباحث: لم تكن مهمة عليّ رضي الله عنه هيئَةً. على ما أعتقد؟

الحجاج: ولم تكن بيعته سهلةً أو سلسلةً، بل كان فيها أقوالٌ وأقوال.

أول ما قيل: إن أول من بايعه هو طلحةٌ بيده اليمنى وكانت شلاء من يوم أحد لما وقى بها رسول الله ﷺ فتشاءم بعض الناس وقالوا: والله إن هذا الأمر لا يتم.

وخرج عليٌّ إلى المسجد وصعد المنبر، فبايعه عامة الناس، وذلك يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين. ويقال إن طلحة والزبير بايعاه بعد أن طلبهما وسألاه أن يؤمّرها على البصرة والكوفة، فقال لهما بل تكونان عندي أستأنس بكما، ولعله أراد ألا يقع فيما وقع فيه عثمان رضي الله عنه.

ومن الناس من يزعم أنه لم يُبايعه طائفةٌ من الأنصار، منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مُخَلَّد، وأبو سعيد، ومحمد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عُجْرة.

وهرب قومٌ من المدينة إلى الشام، ولم يبايعوا عليًّا، ولم يبايعه قُدامة بن مضعون وعبدُ الله بن سلام، والمغيرة بن شعبة. وهرب مروان بن الحكم، والوليد بن عقبة، وآخرون إلى الشام.

وقال آخر: بايع الناس عليا بالمدينة، وتربص سبعة نفر لم يبايعوا؛ منهم ابن عمر وسعد بن أبي وقاص، وصهيب، وزيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وسلمة بن سلامة بن وقش، وأسامة بن زيد، ولم يتخلف أحد من الأنصار إلا بايع فيما نعلم.⁽¹⁾

الباحث: من الغريب أن يختلف الناس على علي رضي الله عنه، على هذه الصورة، وفي هذه الظروف! لعل السبب فيما أظن أن عددًا كبيرًا من الصحابة اعتزل الفتنة ولزم داره، ولم يشارك بأقل قدر فيها. وترك الأمر وقتئذٍ لهؤلاء الخارجين، يُوجّهون الدفة كيفما شاءوا؟

الحجاج: استنتاجك صحيح. ومما ضاعف من صعوبة الموقف، أنه لما قُتل عثمان بن عفان، خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخًا بدمه، ومعه أصابع نائلة زوجة عثمان، التي أصيبت حين جاحفت عنه بيدها، فقطعت مع بعض الكف، فورد بها على معاوية بالشام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلّق الأصابع في كُمّ القميص، وندب الناس إلى الأخذ بثأر هذا الدم وصاحبه، فتباكى الناس حول المنبر، وجعل القميص يُرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله سنة، ويحث بعضهم بعضًا على الأخذ بثأره، وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه، يُحرّضون الناس على المطالبة بدم عثمان ممن قتله من أولئك الخوارج.⁽²⁾

الباحث: الذي اتعجب منه موقف الناس وخاصة بعض الصحابة، من بيعة علي رضي الله عنه، كيف يتركون الخارجين على عثمان رضي الله عنه، يديرون الموقف كما يريدون في المدينة! فهذه بيعة طالحة وبيعة الزبير! فكل واحد منهما صرّح بعد ذلك بما يعني أنه بايع مُرغمًا، وقال: بايعت

(1) البداية والنهاية 10 / 421

(2) البداية والنهاية 10 / 425

والسيفُ فوق رأسي^(١). وبالتأكيد لم يأتي هذا الإرغام من عليٍّ رضي الله عنه، بل من هؤلاء الخوارج، وخروجُ الكثير من الصحابة من المدينة، إما بإذنه وإما هروبا إلى الشام أو مكة حتى لا يُبايعوا عليًّا على هذا الشكل؛ وسطوة الخارجين على عثمان وقتلته مازالت تحكم المدينة ومن فيها.

الحجاج: هذا صحيح، بالفعل فرَّ معظمهم إلى مكة وأفلتوا من سطوة الخارجين، وذكر الرواة أيضا قبل ذلك أنه لما استقر أمرُ بيعة عليٍّ دَخَلَ عليه طلحةٌ والزبير ورءوسُ الصحابة، رضي الله عنهم، وطلبوا منه إقامة الحدود، والأخذ بدم عثمان.

فاعتذر إليهم بأن هؤلاء لهم مددٌ وأعوان، وأنه لا يمكنه ذلك يومَ هذا، وهذا إن دلَّ فإنما يدل على أن هؤلاء الخارجين بالفعل كانت لهم سطوة ولم يكن في المدينة جيش يُستعان به في دفعهم عنها. فطلب منه الزبير أن يوليه إمرة الكوفة ليأتيه بالجنود، وطلب منه طلحة أن يوليه إمرة البصرة ليأتيه منها بالجنود، ليتقوى بهم على شوكة هؤلاء الخوارج، وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم في قتل عثمان، رضي الله عنه، فقال لهما: حتى أنظر في هذا. فاستأذنوا عليًّا في الاعتماد فأذن لهم، فذهبوا إلى مكة وتبعهم كثير من الناس^(٢). وكان الذين رفضوا البيعة لعليٍّ رضي الله عنه، إنما رفضوا البيعة لهؤلاء الخارجين على التحقيق وليس عليٍّ؛ لأنهم أصحاب الأمر والنهي بالفعل في المدينة، في هذه المرحلة تحديداً.

الباحث: لو كنتَ مكان علي رضي الله عنه ماذا كنتَ تفعل؟

(١) البداية والنهاية ١٠ / ٤٣٤، ٤٣٥

(٢) البداية والنهاية ١٠ / ٤٣٢

الحجاج: كنتُ أخذتُ بنصيحة عبد الله بن عباس، كان عبدُ الله بن عباس قد أشار على عليٍّ باستمراره بنوابه في البلاد إلى حين يتمكن الأمر، وأن يُقرَّ معاويةَ خصوصًا، على الشام وقال له: إني أخشى إن عزلته عنها أن يُطالبك بدم عثمان، ولا آمنُ طلحةَ والزبير أن يكرَّا عليك بسبب ذلك. فقال عليٌّ: إني لا أرى هذا، ولكن اذهب أنت إلى الشام فقد وليتها. فقال ابن عباس: إني أخشى من معاوية أن يقتلني بعثمان، أو يحبسني لقرايتي منك، ولكن اكتب إلى معاوية فمَنِّه وعِدْه. فقال عليٌّ: والله إن هذا ما لا يكون أبدا. فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إن الحرب خُدعة كما قال رسول الله ﷺ، فلم يستجب!.

ونهى ابن عباس أيضا عليًّا أن يَقْبَلَ من هؤلاء الذين يُحسِّنون له الدخول إلى العراق، ومفارقة المدينة، فأبى عليه ذلك كله، وطاوع أمر أولئك الأمراء من الخوارج من أهل الأمصار.⁽¹⁾

بالفعل كانوا يملكون دفعة الأمور في هذا التوقيت، والشواهد واضحة.

(1) المرجع السابق 10 / 427

ثم كانت وقعة الجمل

الباحث: يبدو أن عليا رضي الله عنه كان في موقف لا يُحسد عليه؟

الحجاج: بكل تأكيد، كان أزواج النبي ﷺ ورضي عنهم، قد خرجن إلى الحج في هذا العام فراراً من الفتنة، فلما بلغ الناس أن عثمان قد قُتل، أقمن بمكة، بعد ما خرجن منها رجعن إليها، وجعلن ينتظرن ما يصنع الناس.

فلما بُوع لعلِّي، استحوذ عليه رءوس أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، وحجبوا عنه عليّة الصحابة، وفرّ جماعة من بني أمية وغيرهم إلى مكة وتبعهم خلق كثير.

ففي مستهل سنة ست وثلاثين ولّى عليّ على الأمصار نواباً، فولّى عبيد الله بن عباس على اليمن، وولّى عثمان بن حنيف على البصرة، وعُمارة بن شهاب على الكوفة، وقيس بن سعد بن عباد على مصر، وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية، فسار حتى بلغ تبوك فتلقته خيل معاوية، فقالوا: أنت؟؟ قال: أمير قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام. فقالوا: إن كان عثمان بعثك فحيّلا بك، وإن كان غيره بعثك فارجع. فقال: أو ما سمعتم الذي كان؟ قالوا بلى. فرجع إلى عليّ. وأما قيس بن سعد فاختلف عليه أهل مصر فبايع له الجمهور، وقالت طائفة لا نبايع حتى نقتل قتلة عثمان. وكذلك أهل البصرة، أما عُمارة بن شهاب فقد صدّه عن الكوفة طلحة بن خويلد غضباً لعثمان فرجع إلى عليّ وانتشرت الفتنة، وتفاقم الأمر.

كان عليٌّ لما عَزَمَ على قتال أهل الشام، الذين رُدُّوا نائِبُهُ عليهم سهلاً بن حنيف ⁽¹⁾ بعد عزل معاوية، طلب من عبد الله بن عمر بن الخطاب وحرَّضه على الخروج معه، فقال إنما أنا رجل من أهل المدينة، فإن خرجوا خرجت وعليَّ السَّمْعُ والطاعة. ثم إن ابن عمر خرج بعد ذلك إلى مكة، وقَدِمَ إلى مكة أيضاً في هذا العام عام ستة وثلاثين يعلى بن أمية من اليمن وكان عاملاً عليها لعثمان ومعه ستمائة بغير وستمائة ألف درهم، وقدم إليها عبدُ الله بن عامر من البصرة، وكان نائِبُها لعثمان. فاجتمع بمكة خلقٌ من سادات الصحابة، وأمّهات المؤمنين، فقامت عائشة رضي الله عنها، في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم عثمان، فاستجاب لها الناس وطوعوها على ماتراه من الأمر، وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك. فقال قائل: نذهب إلى الشام. فقال بعضهم: إن معاوية قد كفاكم أمرها. فقال آخرون: نذهب إلى المدينة فنطلب من عليٍّ أن يُسَلِّمَ إلينا قتلةَ عثمان فيقتلوا. وقال آخرون بل نذهب إلى البصرة فنتقوي بالخيال والرجال، ونبدأ بمن هناك من قتلته. فاتفق الرأي على ذلك. وكان أمّهات المؤمنين قد توافقن على الذهاب إلى المدينة فلما تغيرت الوجهة إلى البصرة قلن لن نسير إلى غير المدينة.

وسار الناس صحبة عائشة رضي الله عنها في ألف فارس من أهل المدينة ومكة وتلاحق بهم آخرون فصاروا ثلاثة آلاف، وأم المؤمنين في هودجها قاصدين البصرة.

ولما اقتربت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ومن معها من البصرة وعلم أهل البصرة مقصدها، تناسب قتلة عثمان مع غيرهم واختلفوا اختلافاً عظيماً.

وجاء جاريةُ بنُ قدامة السعديُّ فقال لأم المؤمنين، والله لقتلُ عثمانَ أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل عرضةً للسلاح، إن كنتِ أتيتنا طائعةً فارجعي من حيث أتيت إلى منزلِك، وإن كنتِ أتيتنا مُكرهةً فاستعيني بالناس في الرجوع.⁽¹⁾

وذهبَ البعضُ في صفوفِ قواتِ طلحة والزبير ومعهم أم المؤمنين والبعض الآخر في صفوف قتلةِ عثمان وأنصارهم، ودارت رحى الحرب وقتل خلق كثير، فلما عضتْهم الحرب تداعوا إلى الصلح، على أن يُرسلوا رسولاً إلى أهل المدينة ليستعلموا إن كان طلحة والزبير أُكْرِها على البيعة، أم لا. فإن كان أُكْرِها، خرج لهما عثمانُ بن حنيف عن البصرة وأخلاها لهما، وإن لم يكونا أُكْرِها على البيعة لعلِّي، خرج طلحة والزبير عنها وأخلوها له، وجاء الرد من المدينة على لسان عليٍّ رضي الله عنه، إلى عثمان بن حنيف يقول: إنهما لم يُكْرِها على فرقة، ولقد أُكْرِها على جماعةٍ وفضل. فإن كانا يُريدان الخلع فلا عُذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نَظَرًا ونَظَرْنَا، فقال عثمان: هذا أمرٌ آخر غير ما كنا فيه.

وبعد مناوشات وصراع أُكْرِه عثمانُ بن حنيف على الخروج، وأمرت أم المؤمنين بإطلاق سراحه، وولوا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر، وقسم طلحة والزبير أموال بيت المال في الناس، وفضلوا أهل الطاعة، واستبدوا بالأمر في البصرة. فحمى لذلك جماعةٌ من قوم قتلة عثمان وأنصارهم، فركبوا في جيش قريب من ثلاثمائة، فقاتلوا جيش طلحة والزبير، ولكنهم هُزموا شر هزيمة، وقتل من قتلة عثمان وأنصارهم نحو سبعين، وضعف جأش من خالف طلحة والزبير من أهل البصرة.⁽²⁾

(1) البداية والنهاية 10 / 436

(2) المرجع السابق 10 / 439

الباحث: إذ فقد رضح أهل البصرة لطلحة والزبير؟

الحجاج: نعم، ولكن عندما ندب الزبير ألف فارس يأخذها معه ويلتقي عليا قبل أن يجيء، لم يجبه أحدٌ، ووصل هذا الخبرُ عليًّا.

وقد كتبت عائشة رضي الله عنها، إلى زيد بن صحوان، تدعوه إلى نُصرتها والقيام معها، فإن لم يجيء، فليُكف يده وليلزم منزله، فقال لها: أنا في نصرتك ما دمت في منزلك، وأبى أن يُطيعها في ذلك، وقال: رحم الله أمَّ المؤمنين، أُمِرت أن تلتزم بيتها، وأمرنا أن نُقاتل، فخرجت من منزلها وأمرتنا بلزوم بيوتنا، التي كانت هي أحق بذلك منّا.

وكتبت أمَّ المؤمنين إلى أهل اليمامة والكوفة بمثل ذلك.⁽¹⁾

الباحث: وأين عليٌّ من هذه الأحداث؟

الحجاج: كان عليٌّ رضي الله عنه قد جهّز جيشا قاصدا الشام، فلما بلغه قصد طلحة والزبير البصرة، خطب الناس وحثهم على المسير إلى البصرة ليمنع أولئك من دخولها. فتناقل عنه أكثر الناس واستجاب له بعضهم، وقال الرواة: ما استجاب له غيرُ ستّة نفرٍ من البدرين، ليس لهم سابع. وسار عليٌّ من المدينة نحو البصرة على تعبته المتقدمة إلى الشام، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ستٍ وثلاثين في نحو تسماية مقاتل⁽²⁾

الباحث: لماذا حوّل عليٌّ وجهته من الشام إلى البصرة وفي الشام أقوى مُعارضٍ لبيعته؟

الحجاج: لا تنس أن على رأس الجيش المتجه إلى البصرة عائشة وطلحة والزبير، وقد كشف كلٌّ من طلحة والزبير عن سريرتهما أنهما أُكرها على البيعة

(1) البداية والنهاية 10 / 439

(2) مرجع سابق 10 / 440

لعليّ. ولو انتصرا في مهمتهما من حشد العراق ضده وهذا أقرب إلى التحقق، لأصبح عليّ بين حجري الرّحى؛ طلحة والزبير من جهة العراق ومعاوية من جهة الشام. فآثر أن يُفشل مُهمَّتهما بأسرع وقتٍ.

ولا يُستبعد أن يكون هذا هو رأي أمراء الخوارج الذين كانت لهم اليد العليا في سير الأحداث في هذه الفترة، فضلا عن أنهم هم عصب الجيش الذي جهزه عليّ بعدما غيّر وجهته من الشام إلى البصرة، حيث قعد به كبار أهل المدينة كما ذكرتُ لك من قبل، وقد نصّحه عبدُ الله بن عباس أن لا يخرج من المدينة إلى العراق، ولكنه تحرك بجيشه بالفعل ووصل إلى ظاهر الكوفة.

الباحث: إذا فالناس حينئذٍ على أربع فرق؛ عليّ بمن معه في ظاهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة بالحجاز لا تقاتل.

الحجاج: نعم، ورأى الناس أن فرقة الحجاز خيرُ الفرق، باعتبار أن ما يَمُرُّ بالناس فتنةٌ، وهي وإن كان الظاهرُ سلبيتها وانعزالها، وأنه لا غناء بها في هذه الأحداث، إلّا أنه كان لها تأثيرٌ كبيرٌ في مجريات الأحداث بشكل غير مباشر، فقد استمالت معظمَ الصحابةِ والتابعين وأغلبَ عامةِ الناس، فلم يُشاركوا في الأحداث؛ فاختلفت موازينُ الصراع!

الباحث: ولكن المشهد كان له وجه آخر في العراق، فقد استجاب الناس من أهل الكوفة إلى استنفار الحسن بن علي، رضي الله عنهما بعدما عزل عليّ أبا موسى الأشعري عن الكوفة، وأخرجه من قصر الإمارة تلك الليلة، وكان يُبْطِ الناس عن الخروج مع أمير المؤمنين، أو القتال.

الحجاج: عندك حق فقد خرج مع الحسن أكثر من تسعة آلاف في البر وفي دجلة، فقدموا على عليّ بذي قار. وكانت عبدُ قيسٍ، بين عليّ وبين البصرة

ينتظرونه، وهم أُلوفٌ. وبعثَ عليُّ القعقاعَ رسولا إلى طلحة والزبير بالبصرة يدعوهما إلى الألفة والجماعة، ويعظّم عليهما الفرقة والاختلاف، فبدأ القعقاعُ بعائشة رضي الله عنها فقال: أي أمّه، ما أقدمك هذه البلدة؟ فقالت أي بني، الإصلاحُ بين الناس، فسألها أن تبعثَ إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها، فحضرا، فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها؟ فقالت الإصلاحُ بين الناس. فقالا: ونحن كذلك. فقال: فأخبروني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحن، ولئن أنكرناه لا نصطلحن. قالوا: قتلةُ عثمان، فإن هذا إن تُرك كان تركا للقرآن.

فقال: قتلتما قتلةَ عثمانَ من أهلِ البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقربُ منكم الى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجلٍ فغضبَ لهم ستةُ آلافٍ فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتُم حُرْقُوصَ بن زُهَيْر، فمنعه ستةُ آلافٍ، فإن تركتموهم وقعتمُ فيما تقولون، وإن قاتلتُموهم فأديلوا عليكم، فالذي حذرتُم وفرقتُم من هذا الأمر، أعظمُ مما أراكم تدفعون وتجمعون منه، يعني أن الذي تريدون من قتل قتلة عثمان مصلحةٌ، ولكنه يترتب عليه مفسدة هي أربى منها، وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حُرْقُوصَ بن زُهَيْر، لقيام ستة آلاف في منعه ممن يُريدُ قتله، فعليُّ أعذر في تركه الآن قتلَ قتلةِ عثمان، وإنما أَّخَرَ قَتْلَ قتلةِ عثمان إلى أن يتمكّن منهم بعد هذا، فإن الكلمةَ في جميع الأمصار مختلفةٌ عليه. وأخبرهم أن خَلَقًا من ربيعةٍ ومُضرٍ قد اجتمعوا ل حربهم بسبب هذا الأمر الذي وقع.

فقالت أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟ قال: أقول: إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا، فعلامةٌ خير،

وتبشير رحمة ودَرْكُ بئار، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرةً هذا الأمر واتنافه، كانت علامةً شرٍ وذهابَ هذا المُلْك، فأثروا العافية تُرزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أول.

فقالوا أصبت وأحسنْتَ فارجع، فإن قدم عليٌّ وهو على مثل رأيك، صلح هذا الأمر. فرجع إلى عليٍّ فأخبره فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح. وفرح هؤلاء وهؤلاء وقام عليٌّ في الناس خطيباً وذكر الجاهلية وشقاءها والاسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة وأفاض في ذلك. ثم قال إني مرتحل غدا فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحدٌ أعان على عثمان بشئ من أمور الناس. فلما قال هذا اجتمع من رؤسهم جماعة؛ كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وسالم بن ثعلبة وعلباء بن الهيثم وغيرهم في ألفين وخمسمائة، وليس بينهم صحابي.

قال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا: وأما رأي عليٍّ فلم نعرفه إلا اليوم، فإن كان قد اصطَلَحَ معهم فإنما اصطَلَحُوا على دماننا، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليًّا بعثمان، فقال ابن السوداء: بئس ما رأيت، لو قتلناه قُتِلنا، فإننا يا معشر قتلة عثمان في ألفين وخمسمائة، وطلحة والزبير في خمسة آلاف، ولا طاقة لكم بهم.. وبعد جدلٍ وأخذٍ ورد نزل رأيهم على رأي ابن السوداء حيث قال: يا قوم إنَّ عَزَّكُمْ في خُلطة الناس، فإذا التقى الناسُ فأنشَبُوا القتال ولا تُفرِّغُوهم للنظر، وينشغلُ طلحةُ والزبيرُ ومن معهما عمَّا تكرهون،⁽¹⁾ واتفقوا على ذلك.

أما عليٌّ فقد ارتحل يريد البصرة، وأما طلحة والزبير فقد سارا ومن معهما للقاءه فاجتمعوا عند قصر عبيد الله بن زياد ونزل الناس كلُّ في ناحية،

(1) البداية والنهاية 10 / 450 وما بعدها

ومكثوا ثلاثة أيام والرسل بينهم وكان هذا للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وقد أشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز الفرصة من قتلة عثمان، فقالوا: إن علينا قد أشار بتسكين هذا الأمر، وقد بعثنا إليه بالمصالحة في ذلك.

وبات الناس بخير ليلة، وبات قتلة عثمان بشر ليلة، وباتوا يتشاورون وأجمعوا أن يثيروا الحرب من الغلس، فنهضوا من قبل طلوع الفجر، وهم قريب من ألفي رجل، فانصرف كل فريق إلى قرابتهم، فهجموا عليهم بالسيوف، فثار كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح، فقالوا طَرَقْنَا أَهْلَ الكوفة، وتساءل عليٌّ ما للناس فقالوا بَيَّتْنَا أَهْلَ البصرة، بيتونا وغدروا بنا وثار كل فريق إلى سلاحهم، وقامت المعركة. وأصحابُ ابن السوداء لا يفترون عن القتل، ومنادي عليٍّ ينادي ألا كُفُّوا! فلا يسمعُ أحد.

وجاء كعب بن سُورٍ قاضي البصرة، فقال: يا أم المؤمنين أدركي الناس، لعل الله يُصلح بك بين الناس. فجلست في هودجها فوق بعيرها وقد ستروا الهودج بالدروع، وجاءت فوقفت بحيث تنظر إلى الناس في معركتهم، وكان في جملة من تبارز الزبير بن العوام وعمار بن ياسر، فجعل عمار يحوزه بالرمح، والزبير كافٌّ عنه. وإنما تركه الزبير لقول رسول الله ﷺ لعمار: (تقتلك الفئة الباغية). ولقد قُتل في هذه المعركة خلقٌ كثير.

الباحث: وقالوا: إن الزبير رجع عن القتال لما رأى عمارًا مع عليٍّ. فخشي أن يُقتل عمارٌ في هذا اليوم.

الحجاج: نعم، رجع الزبير عن القتال يوم الجمل وسار حتى نزل واديا يقال له: وادي السباع. فتبعه عمرو بن جرموز، فجاءه وهو نائم فقتله غيلة، وأما

طلحة فجاءه سهم غَرَبٌ، يقال رماه به مروان بن الحكم. فانتظم رجله مع فرسه فجمحت به الفرس، فادركه غلامه بعد أن نzf كثيرا وضعف فلما وصل إلى بيت في البصرة مات فيه، رضي الله عنه.

وتقدم كعب بن سور قاضي البصرة ورفع المصحف يدعو الناس إليه كما طلبت أم المؤمنين حتى يكف الناس عن القتال وقد حمي الوطيس، استقبله عبد الله بن سبأ ابن السوداء وكان على مقدمة جيش الكوفيين وأتباعه، فلما رأوا كعباً رافعاً المصحف يدعو الناس إليه رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه، ووصلت النبال الى هودج أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وقتل عندها خلق كثير يدافعون عنها من بني ناجية وبني ضبة وتقدم بنو عدي بن عبد مناف فقاتلوا قتالا شديدا، ورفعوا رأس الجمل. وسقط لأجل ذلك الكثير، قالت عائشة: مازال جملي منتصباً حتى فقدت أصوات بني ضبة. وجاء رجل فضرب الجمل على قوائمه، فعقره وسقط على الأرض. ويقال إن الذي أشار بعقر الجمل عليّ وقيل القعقاع بن عمرو، لثلاث تصاب أم المؤمنين، فإنها صارت غرضاً للرماة.

ولما سقط الجمل على الأرض انهزم من حوله وحمل هودج عائشة، وإنه كالقنفذ من كثرة النشّاب، ونادى منادي عليّ في الناس: إنه لا يُتبع مدبرٌ ولا يُذفف على جريح، ولا يدخلوا الدور، وأمر عليّ أن يحملوا الهودج من بين القتلى. وأقام عليّ بظاهر البصرة ثلاثاً، وصلى على القتلى من الفريقين، وقد وصل عددهم من كل فريق خمسة آلاف، وسأل بعض أصحاب عليّ عليّاً أن يُقسّم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير، فأبى عليهم، فطعن فيه السبئية وقالوا كيف تحل لنا دماؤهم ولا تحل

لنا أموالهم؟ فبلغ ذلك عليًّا فقال: أيكم يُحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه؟ فسكت القوم،⁽¹⁾ ولما دخل البصرة فرّق في أصحابه أموال بيت المال، فنال كل رجل منهم خمسُمائة، وقال لهم لكم مثلها من الشام من أعطياتكم. وباع أهل البصرة عليًّا.

ولما أرادت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الخروج من البصرة، بعث إليها عليُّ رضي الله عنه، بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذن لمن نجا من جيشها أن يرجع معها، إلا أن يحب المقام واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات. وسير معها أخوها محمد بن أبي بكر. وكان ذلك ليوم السبت مستهل رجب سنة ست وثلاثين، وقصدت في مسيرها هذا مكة فأقامت بها إلى أن حجّت عامها هذا ثم رجعت إلى المدينة. رضي الله عنها.⁽²⁾

الباحث: وما أخبار مروان بن الحكم؟

الحجاج: أما مروان بن الحكم فإنه لما فرّ استجار بمالك بن مِسْمَعٍ فأجاره ووفي له، ولهذا كان بنوا مروان يُكرمونه، فلما خرجت عائشة خرج معها، فلما سارت هي إلى مكة سار هو إلى المدينة.

(1) البداية والنهاية 10 / 470

(2) البداية والنهاية 10 / 472

صراع عليٍّ ومعاوية وقعة صفين

الباحث: ماذا فعل عليٌّ رضي الله عنه بعد ذلك؟

الحجاج: لما فرغ من وقعة الجمل ودخل البصرة وشيع أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى مكة كما أرادت، سار من البصرة إلى الكوفة، فدخلها ليوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، ونزل في الرحبة وصلى بالجامع الأعظم ركعتين ثم خطب الناس فحثهم على الخير ونهاهم عن الشر ومدح أهل الكوفة، ثم بعث لولاة عثمان على همدان جرير بن عبد الله، والأشعث بن قيس على أذربيجان، فأمرهما أن يأخذا البيعة له هنالك ثم يُقبلا إليه ففعلا، ثم بعث رسولا إلى معاوية رضي الله عنه، يُعلمه بإجماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس. فطلب معاوية عمرو بن العاص ورءوس أهل الشام فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يَقْتُل قَتْلَةَ عثمان، أو أن يُسَلَّم إليهم قَتْلَةُ عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم.

فخرج أمير المؤمنين عليٌّ من الكوفة عازما الدخول إلى الشام، وبلغ معاوية أن عليا قد خرج إليه بنفسه فاستشار عمرو بن العاص، فقال اخرج إليه أنت أيضا بنفسك، وقام عمرو في الناس خطيبا فقال: إن صناديد أهل الكوفة والبصرة قد تفانوا يوم الجمل، ولم يبق مع عليٍّ إلا شُرذمة قليلة ممن قتل الخليفة أمير المؤمنين عثمان، فאלله الله في حقكم أن تضيّعوه،

وفي دم عثمان خليفة الله فلا تَطْلُوهُ، وكتب إلى أجناد الشام فحضروا وعُقدت الألوية والراياتُ للأمرء، وتهياً أهل الشام وخرجوا إلى الفُرات ناحية صفين، حيث يكون مَقْدُمُ عليّ.

ثم التقى الجيشان، جيشُ عليّ رضي الله عنه وجيشُ معاوية رضي الله عنه، وذلك في أوائل ذي الحجة سنة ست وثلاثين هجرية. في مكان يقال له (صَفين) شرقي بلاد الشام، بالقرب من نهر الفرات.

توافقوا طويلاً، تصارعوا بدءاً على الماء ثم توافقوا على وروده معاً، ثم مَكَثَا يومين لا يتراسلان، ثم أرسل عليٌّ وفداً إلى معاوية يدعوه للزوم الجماعة، ولكن هذا الوفد فشل في مهمته. فقامت الحرب بينهما، فتصارعوا طويلاً وسقط الآلاف من الجانبين على مدي الأيام، وربما اقتتل الناس في اليوم الواحد مرتين، على مدى شهر ذي الحجة بكاملة، فلما انسَلَخ ذو الحجة ودخل شهرُ الله المحرم، تداعي الناس للمشاركة، لعل الله أن يُصلح بينهم على أمرٍ يكون فيه حَقْنُ دمائهم.

في هذه الفترة أرسل عليٌّ وفداً آخر إلى معاوية يدعوه إلى لزوم الجماعة، الباحث: هل تذكرُ ما دار في هذا اللقاء، لعل فيما دار بينهما من حوار، ما يُظهِرُ فكرَ وعقيدة كُلٍّ منهما فيما يَدْفَعُهُ إلى الصراع؟.

الحجاج: اسمع ماذا قال الوفدُ لمعاوية وبما رد عليهم:

قال عدي بن حاتم وكان أحد أعضاء وفد عليٍّ إلى معاوية: أما بعد يا معاوية فإننا قد جئناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا، وتُحَقَّن به دماؤنا، ويأمن به السبيلُ، ويصلح به ذات البين؛ إن ابن عمك سيدُ المسلمين أفضلها سابقةً وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس

وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فانت يا معاوية ولا يصيبك الله وأصحابك مثل ما أصاب الناس يوم الجمل. فقال معاوية: كأنك إنما جئت متهددا ولم تأت مصلحا، هيهات يا عديّ، كلا والله إني لابن حرب، لا يُقعقع لي بالشنان، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان، وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به. وتكلم شبت بن ربيعي أحد أعضاء وفد عليّ وكذلك زياد بن خصفة، فذكرا فضل عليّ، وقالوا اتق الله يا معاوية ولا تخالفه، فإنا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهّد في الدنيا، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه.

فتكلم معاوية، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم دعوتوني إلى الجماعة والطاعة، فأما الجماعة فنعمة هي، وأما الطاعة فكيف أطيع رجلا أعان على قتل عثمان وهو يزعم أنه لم يقتله؟ ونحن لا نرد ذلك عليه ولا نتهمه به، ولكنه أوى قتلته؛ فيدفعهم إلينا حتى نقتلهم، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة.⁽¹⁾ وعاد الوفد إلى عليّ خالي الوفاض.

وما لبث معاوية حتى بعث هو أيضا وفداً إلى عليّ للتفاوض، فدخلوا عليه، فتكلم أحدهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن عثمان بن عفان كان خليفةً مهدياً، عمل بكتاب الله وثبت لأمر الله، فاستثقلت حياته، واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم، فيولي الناس أمرهم من أجمعوا عليه رأيهم. فقال عليّ: وما أنت، لا أم لك وهذا الأمر وهذا العزل، فاسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك.⁽²⁾ ففشلت المفاوضات وخرجوا من عند عليّ بلا جدوى.

(1) البداية والنهاية 10 / 504، 505

(2) المرجع السابق 10 / 505

ثم إن قراء أهل العراق وقراء أهل الشام تنحوا جانبا وكانوا قريبا من ثلاثين ألفا وسعوا بين الفريقين في محاولات مُلحّة لتقريب وجهات النظر، واستمر ذلك شهورا، استغرقت ربيع الآخر وجمادى الأولى والثانية، وكلُّ فريق يفرع في الآخر الفرعة بعد الفرعة والقراء يحولون بينهم، وخشي معاوية أن ينحاز القراء جميعهم إلى جانب عليٍّ، فأوقع فتنة حركت جيش العراق عن مكانه وحل هو بجيشه مكانهم. وأقام الناس على ذلك إلى شهر ذي الحجة فاستأنفوا القتال من جديد.⁽¹⁾ وزحف الناس بعضهم إلى بعض، فتقاتلوا قتالا شديدا سقط فيه الآلاف من الجانبين، وكان لا يفرُّ أحدٌ من أحدٍ ولا يغلبُ أحدٌ أحدا، يتحاجزون بعض الوقت ثم يستأنفون القتال على نفس المنوال.

الباحث: ذكر الرواة من مشاهد المعركة أن كُريب بن الصَّبَّاح قتل أربعة من أهل العراق مبارزة، ثم وضعهم تحت قدميه ونادى: هل من مبارز؟ فبرز إليه عليٌّ فتجاولا ساعة ثم ضربه عليٌّ فقتله، ثم قال عليٌّ: هل من مبارز؟ فبرز إليه الحارث بن وداعة الحميري فقتله، ثم برز إليه رود بن الحارث الكلاعي فقتله، ثم برز إليه المطاع بن المطلب القيني فقتله. ثم تلا قول الله تعالى: (وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ) ⁽²⁾. ثم نادى: ويحك يا معاوية! ابرز إلي ولا تفن العرب بيني وبينك. فقال له عمرو يا معاوية اغتنمه فإنه قد أُتخن بقتل هؤلاء الأربعة. فقال له معاوية: والله لقد علمت أن عليا لم يُقهَر قط، وإنما أردت قتلي لتصيبَ الخلافة من بعدي، اذهب إليك عني! فليس مثلي يُخدع.⁽³⁾

(1) المرجع السابق 10 / 509

(2) البقرة 194

(3) البداية والنهاية 10 / 518 وذكروا أن عليا حمل على عمرو بن العاص يوما فضربه بالرمح، فألقاه الأرض، فبدت سوءته فرجع عليٌّ عنه، فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين رجعت عنه؟ فقال:

الحججاج: نعم معاوية من أذكى العرب. وتبارز الشجعان من الفريقين، فُقُتِلَ خُلُقٌ كثير من الأعيان، وقُتِلَ عمارُ بن ياسر رضي الله عنه، وذكر الناس ما أخبر به النبي ﷺ عن عمار أنه قال له: (تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ) فعلم الناس من الباغي في هذه الحرب، ولكن معاوية تدارك الأمر وأوّل الحديث، قائلاً إن من قتله هو من جاء به إلى هذه الحرب، لِيُلْقِيَ بذلك الاتهامَ على فريق عليّ رضي الله عنه. فكان رد عليّ قال: ومن قتل حمزةَ بن عبد المطلب؟! وتلاحم الناس تلاحماً مهلكاً، وكان الشجعان الأبطال الذين يعرفون الحرب لا يهابون القتل وكان منهم الأشتر النخعي والذي حمل بمن معه عند نهايات المعركة على أهل الشام وتبعه عليّ فانفضت غالب صفوف أهل الشام، ولم يبق إلا الهزيمة والكسرة والفرار.

أتدرون من هو؟ قالوا: لا. قال: عمرو بن العاص، وإنه قد تلقاني بسوءته فذكرني بالرحم فرجعت عنه. فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له: احمد الله، واحمد إستك.

التحكيم

عند ذلك رفع أهل الشام المصاحفَ فوق الرماح، وقالوا هذا بيننا وبينكم،
قد فني الناس فمن للشعور؟ ومن لجهاد المشركين والكفار؟.

الباحث: ويقال إن الذي أشار بذلك عمرو بن العاص، وذلك لما رأى أهل العراق
قد ظهروا وانتصروا، أحب أن ينفصل الحال وأن يتأخر الأمر، فإن كُلاً من
الفريقين صابرٌ للآخر، والناس يتفانون.⁽¹⁾

الحجاج: نعم، قال لمعاوية: إني قد رأيت أمراً لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيد أهلَ
العراق إلا تفرُّقاً واختلافاً، أرى أن نرفع المصاحفَ وندعوهم إليها، فإن
أجابوا كلهم إلى ذلك، برد القتال هذه الساعة، وإن اختلفوا فيما بينهم
بأن يقول بعضهم: نجيبهم وبعضهم: لا نجيبهم. فشلوا وذهبت ريحهم.
فلما رُفعت المصاحف قال أهل العراق: نُجيب إلى كتاب الله وننيب
إليه. قال علي: عباد الله امضوا إلى حقكم وصدقكم وقاتلِ عدوكم؛
فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن
أبي سرح والضحاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف
بهم منكم، وقد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شرَّ أطفال
وشرَّ رجال، ويحكم! والله إنهم ما رفعوها رفع من يقرؤها ويعمل بما
فيها وإنما رفعوها خديعة، ودهاءً ومكيدهً ومكرًا وتخذيلاً لكم، وكسراً
لحدتكم وقتالكم، ولم يبق إلا هزيمتهم وفراؤهم ونصرُكم عليهم.
فقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله ونجيب إليه.

(1) المرجع السابق 10 / 544، 543

وقال القراء الذين صاروا من بعد ذلك خوارج: يا علي أجب، أجب إلى كتاب الله إذا دُعيت إليه، وإلا دفعناك برؤمتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، إنه لما ترك العمل بكتاب الله قتلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك. قال: فاحفظوا عني نهبي إياكم واحفظوا مقالتيكم لي، أما أنا فإن تطيعوني فقاتلوا وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم. ⁽¹⁾ وقالوا: نحن قاتلنا هؤلاء في الله وتركنا قتالهم لله. فقال لهم الأشر: خُذْ عَمَّ وَاللَّهِ فَاخْذِ عَمَّ، وَدُعِيتُمْ إِلَى وَضْعِ الْحَرْبِ فَأُجِبْتُمْ يَا أَصْحَابَ السُّوءِ. وَرَغِبَ أَكْثَرُ النَّاسِ مِنَ الْعِرَاقِيِّينَ وَالشَّامِيِّينَ بِكَمَالِهِمْ إِلَى الْمَصَالِحَةِ وَالْمَسَالِمَةِ مَدَّةَ لَعَلِّهِمْ يَتَفَقُّونَ عَلَى أَمْرٍ يَكُونُ فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِحَقْنِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَفَانُوا فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ، فَقَدْ قُتِلَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ سَبْعُونَ أَلْفًا؛ خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَخَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، فِي مَدَّةِ الْمَقَامِ بِصَفِينٍ، مِنْ مُسْتَهْلِ ذِي الْحِجَّةِ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ صَفَرٍ، وَذَلِكَ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ يَوْمًا. ⁽²⁾

الباحث: قيل: تراوض الفريقان بعد مكاتبات ومراجعات يطول ذكرها على التحكيم، وهو أن يُحْكَمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَمِيرِينَ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ رَجُلًا مِنْ جِهَتِهِ، ثُمَّ يَتَّفَقَ الْحَكَمَانِ وَفَقَ كِتَابَ اللَّهِ عَلَى مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لِلْمُسْلِمِينَ.

الحجاج: نعم، وَكُلَّ مَعَاوِيَةَ عَمْرَوَ بْنِ الْعَاصِ، وَأَرَادَ عَلِيٌّ أَنْ يُوَكِّلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، وَلَكِنْ مَنَعَهُ الْقُرَاءُ الْخَوَارِجُ، وَقَالُوا: لَا نَرْضَى إِلَّا بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. وَوَصَفُوهُ أَنَّهُ كَانَ يَنْهَى النَّاسَ عَنِ الْفِتْنَةِ وَالْقِتَالِ، وَكَانَ أَبُو مُوسَى قَدْ اعْتَزَلَ فِي بَعْضِ أَرْضِ الْحِجَازِ، بَعْدَمَا عَزَلَهُ عَلِيٌّ عَنِ الْكُوفَةِ،

(1) البداية والنهاية 10 / 545، 546

(2) المرجع السابق 10 / 550

وقال عليٌّ: فإني أجعل الأشر حكما. فقالوا: وهل سَعَر الأرض إلا الأشر؟ فأبوا إلا أبا موسى الأشعري.

وكتبوا بينهم كتابا وحددوا فيه التزامات كل فريق تجاه الآخر والتزامات كل فريق تجاه الحكمين، وهما أبو موسى الأشعري عن عليٍّ وفريقه، وعمرو بن العاص عن معاوية وفريقه، وأجلا القضاء إلى رمضان، كان ذلك ليوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين، على أن يوافي عليٌّ ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في رمضان، ثم خرج الأشعث بن قيس بالكتاب على الناس يقرؤه ويعرضه عليهم من الطائفتين. ثم شرع الناس بعد ذلك في دفن قتلاهم. وأطلق كل فريق أسراه من الفريق الآخر.⁽¹⁾

الباحث: سبعة أشهر من صفر حتى رمضان؛ ميعاد التحكيم، لاشك كافية لكي تهدأ النفوس لتفكر في الصالح العام صالح الجماعة!

الحجاج: هذا هو المفترض في مثل هذه الأحوال..

الباحث: هل حدث شيء غير هذا؟

الحجاج: أما في معسكر معاوية فلا شيء يذكر، أما في معسكر عليٍّ فحدث ولا حرج.

الباحث: ماذا حدث؟

الحجاج: لما رحل عليٌّ من الشام بعد الاتفاق على التحكيم قاصداً الكوفة، اعتزله على مشارفها طائفة من جيشه يقال: اثنا عشر ألف والبعض قال: يزيد

(1) البداية والنهاية 10 / 558، 559 وقد كان معاوية يريد قتل الأسرى لولا أن عليا أطلق ما تحت يديه من أسرى، وكان من بين الأسرى عند معاوية، عمرو بن أوس وكان معاوية يريد قتله، فقال لمعاوية امنن عليَّ فإنك خالي. فقال له ويحك! من أين أنا خالك؟ فقال: إن أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ، وهي أم المؤمنين، وأنا ابنها، وانت أخوها، فأنت خالي. فأعجب ذلك معاوية وأطلقه.

والبعض قال: يقل عن ذلك، الشاهد هنا أنهم باينوه وخرجوا عليه، وأنكروا عليه أشياء، فبعث إليهم عبد الله بن عباس، فناظرهم فيها، ورد عليهم ما توهمونه، وقال البعض: إن الذي ناظرهم هو عليّ نفسه، فيما نقموا عليه حتى استرجعهم ودخلوا معه الكوفة، ثم إن معظمهم نكثوا ما عاهدوه عليه، وتعاهدوا فيما بينهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم تحيزوا ناحية النهروان.⁽¹⁾ وقال البعض، إن عليا بينما هو يخطب يوما إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال: يا عليّ أشركت في دين الله الرجال ولا حكم إلا حكم الله. فتنادوا من كل جانب: لا حكم إلا لله، لا حكم إلا لله. فجعل عليّ يقول: هذه كلمة حق أريد بها باطل. ثم قال: إن لكم علينا لا نمنعكم مساجد الله، وأن لا نبداكم بالقتال حتى تبدءونا به. ثم إنهم خرجوا بالكلية عن الكوفة وتحيزوا إلى النهروان.⁽²⁾

ولما كان مجيء رمضان، بعث عليّ رضي الله عنه أربعمئة فارس مع شريح بن هانئ، ومعهم أبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس، وبعث معاوية رضي الله عنه عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو بن العاص في أربعمئة فارس، فتوافوا بدومة الجندل بأذرح وهي نصف بين الشام والكوفة، وشهد ذلك جماعة من رءوس الناس، كعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وعبد الرحمن بن يغوث الزهري، وأبي جهم بن حذيفة، وغيرهم.

فلما اجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين، بعلم ونظر في تقدير أمور، ثم اتفقا على أن يعزلا عليّا ومعاوية، ثم يجعلا الأمر شورى

(1) البداية والنهاية 10 / 564

(2) المرجع السابق 10 / 569، 570

بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما، ثم جاء إلى المجمع الذي فيه الناس وكان عمرو لا يتقدم بين يدي أبي موسى بل يُقدِّمه في كل الأمور أدبًا وإجلالًا فقال له: يا أبا موسى قم فأعلم الناس بما اتفقنا عليه.

فخطب أبو موسى الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على رسول الله ﷺ، ثم قال: أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أمرًا أصلح لها، ولا أَلَمَّ لشعثها من رأيٍ قد اتفقت أنا وعمرو عليه، وهو أنا نخلع عليًا ومعاوية، ونترك الأمر شورى، وتستقبل الأمة هذا الأمر فيؤلوا عليهم من أحبوه واختاروه، وإنني قد خلعت عليًا ومعاوية. ثم تنحى وجاء عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن هذا قال ما سمعتم، وإنه قد خلع صاحبه، وإنني قد خلعتُه أيضًا كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه وليُّ عثمان بن عفان، والطالبُ بدمه، وهو أحقُّ الناس بمقامه. ⁽¹⁾

الباحث: كيف يخالف عمرو بن العاص ما تم الاتفاق عليه؟، ولماذا؟

الحجاج: عمرو بن العاص رأى أن ترك الناس بلا إمام والحالة هذه يؤدي إلى مفسدة طويلة عريضة، أعظم مما فيه الناس من الاختلاف، فأقر معاوية لما رأى ذلك من المصلحة. فاجتهد، والمجتهدُ يخطئ ويصيب. ويقال: إن أبا موسى الأشعري تكلم مع عمرو بكلام فيه غلظة، ورد عليه عمرو بن العاص مثله.

الباحث: وماذا كان موقف الحضور؟

الحجاج: ذكر الرواة أن شريح بن هانئ مُقدِّم جيش عليٍّ وثب على عمرو بن العاص فضربه بالسوط، فقام إليه ابنُ لعمرُو فضربه بالسوط، وتفرق

الناس في كل وجه إلى بلادهم، فأما عمرو وأصحابه فدخلوا على معاوية فسلموا عليه بتحية الخلافة، وأما أبو موسى فاستحى من عليٍّ فذهب إلى مكة، ورجع بن عباسٍ وشريح بن هانئ إلى عليٍّ فأخبراه بما فعل أبو موسى وعمرو.⁽¹⁾

الباحث: وماذا كان رد فعل عليٍّ؟

الحجاج: الحق إن عليا كان في أزمة كبرى حتى قبل أن يأتي خبر التحكيم.

الباحث: كيف؟

حروب الخوارج

الحجاج: أقول لك: لما بعث عليٌّ أبا موسى ومن معه من الجيش إلى دومة الجندل، اشتد أمر الخوارج وبالغوا في النكير على عليٍّ وكفّروه؛ جاء إليه رجلا من منهم، وهما زرعة بن البرج الطائي، وحر قوص بن زهير السعدي، فقالا: لا حكم إلا لله. فقال عليٌّ: نعم، لا حكم إلا لله. فقال له حر قوص: تب إلى الله من خطيئتك، وارجع عن قضيتك، واذهب بنا إلى عدونا حتى نقاتلهم حتى نلقى ربنا. فقال عليٌّ: قد أردتكم على ذلك فأبئتم، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا وعهودا، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾⁽¹⁾ فقال له حر قوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه. فقال عليٌّ ما هو بذنب ولكنه عجز في الرأي، وقد تقدمت إليكم فيما كان منه، ونهيتكم عنه. فقال له زرعة بن البرج: أما والله يا عليٌّ لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله لأقاتلنك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه. فقال له: تبا لك ما أشقاك! كأني بك قتيلا تسفي عليك الريح. فقال: وددت أن قد كان ذلك. فقال له عليٌّ: إنك لو كنت محقا كان في الموت تعزية عن الدنيا، ولكن الشيطان قد استهواكم.

فخر جاً من عنده يُحكمان أمرهما، وفشى فيهم ذلك، وجاهروا به الناس، وولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي وتعرضوا لعليٍّ في خطبه وأسمعوه السب والشتم والتعريض بآيات من القرآن، ثم كانت خطبة زيد بن حصين الطائي، فحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستشهد بآيات من كتاب

(1) النحل 91

الله ثم قال: فأشهدُ على أهل دعوتنا من أهل قبلتنا أنهم قد اتبعوا الهوى، ونبدوا حكم الكتاب، وجاروا في القول والأعمال، وأن جهادهم حقٌّ على المؤمنين، ثم حرَّض أولئك على الخروج على الناس، وقال في كلامه: اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتُم وأطيع الله كما أردتم، آتاكم الله ثواب المطيعين له العاملين بأمره، وإن قُتِلتم فأَيُّ شيء أفضل من الصبر والمصير إلى الله ورضوانه وجنته؟

الباحث: صدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٥﴾ (١)

الحجاج: كان الخوارج ممن تنطبق عليهم هذه الآية بالفعل.

الباحث: ماذا فعلوا بعد ذلك؟

الحجاج: ذكر الرواة أنهم تواطئوا على المسير إلى المدائن؛ ليملكوها ويتحصنوا بها ثم يبعثوا لأمثالهم من أهل البصرة وغيرها، ثم عدلوا عن وجهتهم، واجتمع الجمع عند النهر وان، وصارت لهم شوكة ومنعة، وهم جند مستقلون وفيهم شجاعة وثبات وصبر، وعندهم أنهم متقربون بذلك إلى الله عز وجل.

أما عليٌّ فقد قام في الناس خطيباً، وقال فيما قال: وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة بأمرى، ونحلتكم رأيي، فأبيتم إلا ما أردتم، فكنت أنا وأنتم كما قال أخوهوازن (٢) فأجاد:

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشداً إلا ضحى الغدِ

(١) الكهف 103 105

(٢) دريد بن الصَّمَّة، وقيل البيت في حماسة أبي تمام 1 / 397 راجع البداية والنهاية 10 / 582

ثم تكلم فيما فعله الحكمان فرد عليهما فيما حكما به وأنبهما، ثم ندب الناس إلى الخروج إلى أهل الشام والجهاد فيهم، وكتب لابن عباس والي البصرة يستنفر له الناس إلى الخروج إلى أهل الشام، وكتب إلى الخوارج يعلمهم أن الذي حكم به الحكمان مردود عليهما، وأنه قد عزم الذهاب إلى أهل الشام، فهلما حتى نجتمع على قتالهم. فكتبوا إليه. أما بعد، فإنك لم تغضب لربك، وإنما غضبت لنفسك، وإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء ⁽¹⁾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِنِينَ﴾ ⁽²⁾

فلما قرأ عليّ كتابهم يؤس منهم وعزم على الذهاب إلى أهل الشام ليناجزهم، وخرج من الكوفة إلى النخيلة في عسكر كثيف بلغ خمسة وستين ألفاً ثم توافد عليه الجنود من البصرة فزاد جيشه عن ثمانية وستين ألفاً، وأثناء ذلك بلغه أن الخوارج قد عاثوا في الأرض فساداً، وسفكوا الدماء وقطعوا السبيل واستحلوا المحارم، وكان من جملة من قتلوه عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ، ذبحوه وذبحوا زوجته وكانت حاملاً وشقوا بطنها عن ولدها.

فلما بلغ الناس ذلك، أشاروا على عليّ بأن يبدأ بهم حتى يأمن الناس من شرورهم إذا اتجه الجيش بعد ذلك إلى الشام، واجتمع الرأي على ذلك.

(1) البداية والنهاية 10 / 583

(2) الأنفال 58

فارسِل إليهم عليُّ الحارث بن مرة العبدي، فلما قدم عليهم قتلوه ولم ينظروه، فلما بلغ عليُّ ذلك سار إليهم وترك أهل الشام.⁽¹⁾ فلما اقترب من جيش الخوارج بعث إليهم أن ادفخوا إلينا قتلة إخواننا منكم لنقتلهم بهم، ثم إنا تاركوكم وذاهبون عنكم إلى الشام. فبعثوا إليه يقولون: كلنا قتل إخوانكم، ونحن مستحلون دماءهم ودماءكم.. فتقدم إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم، فلم ينفع ذلك فيهم، وكذلك فعل أبو أيوب الأنصاري، فأنبهم ووبخهم، فلم ينجع فيهم، وتقدم أمير المؤمنين عليُّ إليهم فوعظهم وخوفهم وحذرهم وأنذرهم وتهدهم وتوعدهم، فلم يكن لهم جواب إلا ان تنادوا بينهم لا تكلموهم واصطفوا للقاء الرب عز وجل، الرواح الرواح إلى الجنة، وتأهبوا للقتال، فتأهب جيش عليُّ كذلك وأمر جنوده لا تبدءوا بالقتال حتي يبدءوكم، وأمر عليُّ أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج، ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حاجة لنا في دماءكم إلا من قتل إخواننا.

فانصرف منهم طوائف كثيرة، وكانوا أربعة آلاف، فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبد الله بن وهب الراسبي، فزحفوا إلى عليٍّ وبدءوه بالقتال ودارت رحى المعركة فصار الخوارج صرعى تحت سنانك الخيول، وقتل أمراؤهم؛ عبد الله بن وهب، وحر قوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن شجرة السلمي.

ولم يُقتل من أصحاب عليٍّ إلا سبعة نفر.⁽²⁾

(1) البداية والنهاية 10 / 585

(2) المرجع السابق 10 / 588

وقال الرواة: إن علياً لم يُخَمَّسَ ما أصاب من الخوارج يوم النهروان، ولكن رَدَّه إلى أهلهم كلَّه.

الباحث: المثير للجدل أن هؤلاء نفر من الخوارج كانوا موحدين ذاكرين لله كثيراً حافظين لكتاب الله أغلبهم يروون في حربهم هذه جهادا في سبيل الله. كيف برَّرَ عليٌّ رضي الله عنه قتلهم رغم هذا، ولم يَسْتَحِلْ غنائم الحرب منهم؟
الحجاج: هذه القضية أثارت جدلا شديدا ولكن تكييفها الشرعي كان عند عليٍّ رضي الله عنه؛ سُئِلَ عن أهل النهروان، أمشركون هم؟ فقال من الشرك قد فُرِّوا. قيل أنما فاقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا. فقيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم ببغيتهم علينا.⁽¹⁾

الباحث: في الصحيحين عن عليٍّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، قال عبد الرحمن: لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجر لمن قتلهم عند الله، عز وجل يوم القيامة».⁽²⁾

الحجاج: نعم وهناك رواية أخرى عن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قوما يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، طوبى لمن قتلهم وقتلوه، علامتهم رجلٌ مُخَدَّجُ اليد»⁽³⁾

(1) المرجع السابق 10 / 591

(2) البخاري (3611، 5057، 6930) ومسلم (154 / 1066)

(3) المسند 1 / 151 (إسناده صحيح) وكان المخدج يُسمى نافعاً ذا الثدية وكان في يده مثل ثدي المرأة، على رأسه حلمة مثل حلمة الثدي، عليه شعرات مثل سبالة السنور. وانظر البداية والنهاية

وقد بحث عليٌّ في القتلى حتى وجده فخر لله ساجدا.⁽¹⁾

فلما انصرف عليٌّ من النهروان، قام في الناس خطيباً وقال فيما قال: إن الله قد أعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا الى عدوكم من أهل الشام. فقاموا إليه فقالوا: يا أمير المؤمنين: قد نفذ نبلنا، وكلت سيوفنا ونصلت أستتنا، فانصرف بنا إلى مصرنا حتى نستعد بأحسن عُدتنا، فبايعهم عليٌّ رضي الله عنه على ذلك، ونزل الناس النخيلة، وأمرهم أن يلزموا معسكرهم، ويوطنوا أنفسهم على جهاد عدوهم، ويُقِلُّوا زيارة نسائهم وأبنائهم، فأقاموا أياماً على ذلك، ثم تسللوا حتى لم يبق منهم معه أحد إلا رءوس أصحابه. فقام رضي الله عنه فيهم خطيباً فكانت خطبة جامعة لكل خصال الخير ونفرة من كل خصال الشر، زهدهم فيها من الدنيا وحثهم في ختامها على طلب الآخرة. ثم إن علياً حث أصحابه على الجهاد في سبيل الله، والمسير إلى عدوهم، فخالقوه ولم يوافقوه واستمروا في بلادهم، وانصرفوا عنه. وقيل: إن ذلك بسبب قتله الخوارج، لأنهم كانوا قراباتهم وإخوانهم، ويرونهم أفضلهم وخيرهم؛ لعبادتهم وقراءتهم، فتثاقلوا عنه وهجروه.⁽²⁾

وخرج عليٌّ بعد قتله أهل النهروان رجل يُقال له: الحارث بن راشد الناجي. قدم مع أهل البصرة، فقال لعليٍّ: إنك قد قاتلت أهل النهروان في كونهم أنكروا عليك قضية التحكيم، وتزعم أنك أعطيت أهل الشام عهودك وموائيقك، وأنت لست بناقضها، وهذان الحكماء قد اتفقا على خلعتك، ثم اختلفا في ولاية معاوية؛ فولاه عمرو وامتنع أبو موسى من ولايته، فأنت مخلوع باتفاقهما، وأنا قد خلعتك وخلعت معاوية معك.

(1) البداية والنهاية 10 / 590

(2) البداية والنهاية 10 / 643

واتبع الحارث على مقالته هذه بَشْرٌ كثير من قومه بني ناجية وغيرهم وتحيزوا ناحيةً، فبعث إليهم عليٌّ معقل بن قيس الرياحي، في جيش كثيف فقتلهم قتلا ذريعا، وسبى من بني ناجية خمسمائة أهل بيت، فاشتراهم مصقلة بن هبيرة أبو المغلس منه وكان عاملا لعلي بخمسمائة ألف وأعتقهم. ولم يدفع إلا مائة وفر هاربا⁽¹⁾

الباحث: متى كان هذا؟

الحجاج: مع نهايات عام سبعة وثلاثين حيث حدثت مناوشات كثيرة مع الخوارج وفلولهم كان الغلبة فيها للجيش علي⁽²⁾.

(1) البداية والنهاية 10 / 644

(2) البداية والنهاية 10 / 668

عليّ ومعاوية من جديد!

أما في عام ثمانية وثلاثين فقد بعث معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص إلى ديار مصر ليأخذها من محمد بن أبي بكر نائبها من جهة عليّ. فلما ظهر ضعف إدارة محمد بن أبي بكر لمصر ولم يقتنع أهل مصر به لصغر سنة فلم يكن تجاوز السادسة والعشرين، أرسل إليها عليّ الأشتر النخعي، فعلم بذلك معاوية وعلم أن الأشتر سيمنعها منه، لجرأته وشجاعته، فلما سار الأشتر إليها وبلغ القلزم، استقبله الجاسيار، وهو مُقَدَّم عليّ على الخراج، فقدم إليه طعاما وشرابا من عسل قال الرواة إنه كان مسموما، وذلك بإيعاذ من معاوية ⁽¹⁾ فمات منه، فلما بلغ ذلك معاوية وعمرو بن العاص وأهل الشام، قالوا إن لله جنودا من عسل. ⁽²⁾

الباحث: كيف يستتبع معاوية هذا المسلك، إن كان ما قاله الرواة صدق؟

الحجاج: هل نسيت أن الأشتر هذا أحد قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ربما يكون هذا التبرير في ذهن معاوية حين استباح قتله، على فرض صحة الرواية؟! ⁽³⁾

الباحث: وماذا كان رد فعل عليّ رضي الله عنه؟

الحجاج: لما بلغ ذلك عليّا تأسف على شجاعته وغنائه، وكتب إلى محمد بن أبي بكر باستقراره واستمراره بديار مصر. ولكن ما حدث وما بلغ محمد بن

(1) في صحة هذا الخبر نظر، وعلى فرض صحته فمعنى هذا أن معاوية أجاز قتل الأشتر باعتباره أحد

قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه. راجع البداية والنهاية 10 / 655

(2) المرجع السابق 10 / 655

(3) استنتاج الباحث وليس من كلام الحجاج على الواقع.

أبي بكر من رغبة عليّ بعزله واستبداله بالأشتر، فتّ في هِمّة محمد، وزاد الحال بالنسبة له في مصر سوءاً وصعوبة أيضاً.

وقد كان أهل الشام لما انقضت الحكومة بدومة الجندل، سلّموا على معاوية بالخلافة، وقوي أمرهم. عند ذلك جمع معاوية أمراءه، فاستشارهم في المسير إلى مصر فاستجابوا له، وقالوا سر بنا حيث شئت فنحن معك.⁽¹⁾ وعيّن معاوية نيايتها لعمر بن العاص إذا فتحها، ففرح بذلك عمرو. وكتب معاوية إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري، ومعاوية بن حُديج السكوني وهما رئيسا العثمانية بمصر وكانا ممن لم يبايع عليا، ولم يأترا بأمر نوابه بمصر في نحو من عشرة آلاف يخبرهم بقدوم الجيش إليهم سريعا، فكان الرد بالاستبشار والمعاونة والمناصرة له، ولمن يبعثه من الجيش.

عند ذلك جهز معاوية عمرو بن العاص في ستة آلاف، وخرج معه مودعا وأوصاه بتقوى الله والرفق والمهل والتؤدة، وأن يقتل من قاتل ويعفو عمن أدبر، وأن يدعو الناس إلى الصلح والجماعة، وقال له: فإن أنت ظهرت فليكن أنصارك أثر الناس عندك.

وذكر الرواة أن عمرو بن العاص سار إلى مصر، واجتمعت عليه العثمانية فقادهم، وكتب إلى محمد بن أبي بكر: أما بعد فتنحّ عني بدمك، فإنني لا أحب أن يُصيبك مني ظفر؛ فإن الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك، فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان، فاخرج منها فإنني لك لمن الناصحين، والسلام.

وبعث إليه عمرو كذلك بكتاب معاوية وفيه: أمّا بعد فإن غِبّ البغي والظلم عظيم الوبال، وإن سفك الدم الحرام لا يسلم فاعله من النعمة في

(1) البداية والنهاية 10 / 656

الدنيا والتبعة الموبقة في الآخرة، وإنا لا نعلم أحداً كان أشد خلافاً على عثمان منك، حين تطعن بمشاقصك بين حشاشته وأوداجه، ثم أنت تظن أنني عنك نائم أو لفعلك ناسٍ، حتي تأتي فتتأمر على بلاد أنت بها جاري، وجُلُّ أهلها أنصاري، وقد بعثتُ إليك بجيوش يتقربون إلى الله بجهادك ولن يسلمك الله من القصاص أينما كنت، والسلام.⁽¹⁾

أرسل محمد بن أبي بكر إلى عليّ بالكتابين يعلمه أن جيش معاوية بقيادة عمرو بن العاص يزحف إلى مصر، وقال له: فإن كان لك بأرض مصر حاجة فابعث إليّ بأموالٍ ورجال، والسلام. فكتب إليه يأمره بالصبر والمجاهدة وأنه سيبعث إليه بالأموال والرجال والجيوش.

وتقدم عمرو بن العاص إلى مصر في جيوشه ومن لحق بهم من العثمانية فبلغ جيش عمرو ستة عشر ألفاً، وركب محمد بن أبي بكر في قريش من ألفي فارس يقودهم كنانة بن بشر بن غياث التجيبي، وهم من خرج معه من أهل مصر، والتقى الجيشان بالمسنّة فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قُتل كنانة بن بشر، قائد الجيش، فهرب محمد بن أبي بكر فاخْتَبأ عند رجل يقال له: جبلة بن مسروق. فدل عليه، فجاء معاوية بن حديج وأصحابه فأحاطوا به فخرج إليهم محمد بن أبي بكر فقاتل حتى قتل.

لما قُتل محمد بن أبي بكر، كتب عمرو بن العاص إلى معاوية يخبره بما كان من الأمر، وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر، ورجعوا إلى السمع والطاعة.

الباحث: متى كان هذا؟

الحجاج: كان ذلك في صفر من سنة ثمانية وثلاثين من هجرة النبي ﷺ. (1)

الباحث: وماذا كان موقف علي رضي الله عنه؟

الحجاج: لما بلغ علي بن أبي طالب رضي الله عنه مقتل محمد بن أبي بكر، وتملك عمرو بن العاص مصر، بدى عليه الحزن، ثم اجتمع بالناس وقام فيهم خطيبا فحثهم على الجهاد والصبر والمسير إلى أعدائهم، وواعدعم (الجَرَعة) بين الكوفة والحيرة، فلما كان الغد لم يخرج إليه منهم أحد، فلما كان العشي بعث إلى أشrafهم، فدخلوا عليه وهو حزين كئيب، فقام فيهم خطيبا فقال: الحمد لله على ما قضى وأمر، وقدّر من فعل، وابتلاني بكم، وبمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت، أوليس عجبا أن معاوية يدعو الجفأة الطغام فيتبعونه بغير عطاء ولا معونة، ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء، وأنا أدعوكم وانتم أولو النهى وبقية الناس على المعونة والعطاء، فتتفرقون وتنفرون عني وتعصوني وتختلفون علي. (2)

فقام رءوس القوم فندبوا الناس إلى امتثال أمر علي، والسمع والطاعة له، فانتدب ألفان فأمر عليهم مالك بن كعب، وكان مالك بن كعب قائد نجدة علي إلى محمد بن أبي بكر فلما علم علي بما حدث له ردّ مالك من الطريق فقد خشي عليه من أهل الشام قبل وصوله إلى مصر.

واستمرت معانات علي في تجهيز الجيوش لرد معاوية، حتى إنه قال: إني والله بمواضع الحرب لجدير خبير، وإنني لأعرف وجه الحزم، وأقوم فيكم بالرأي المصيب فأستصرحكم معلنا، وأناديكم نداء المستغيث،

(1) البداية والنهاية 10 / 661

(2) البداية والنهاية 10 / 662

ولا أرى فيكم مغيثاً، ولا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً حتى
تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة، فأنتم والله القوم لا يدرك بكم ثأر،
دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ خمسين ليلة، فتجر جرتكم جر جرة الجمل
الأشدق، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليست له نية في جهاد العدو، ولا
اكتساب الأجر، ثم خرج منكم مرايب كأنما يساقون إلى الموت وهم
ينظرون، فأف لكم.⁽¹⁾

الباحث: هل علم معاوية بالورطة التي يمر بها عليّ؟

الحجاج: أغلب الظن؛ فقد فرّق معاوية جيوشاً كثيرة في أطراف معاملات عليّ،
فقد كان معاوية يرى أن ولايته صحيحة بعد أن ولاه عمرو بن العاص
وبعد اتفاق عمرو وأبو موسى على خلع عليّ، وعلى هذا فهو الولي الذي
تجب طاعته فيما يعتقده، ولأن أهل العراق قد خالفوا علياً وعصوه، فهو
الأولى بالإمارة من عليّ.

ودارت مناوشات ومساجلات بين قوات معاوية وقوات عليّ على أطراف
ولاية عليّ يقصد من ورائها معاوية بسط نفوذه على هذه البلاد. واستمر
ذلك بقية سنة ثمانية وثلاثين وسنة تسعة وثلاثين، دون أن يُحرز معاوية
نصراً يُذكر على عليّ، فيما عدا سيطرته على مصر.

مقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه

الباحث: في سنة أربعين من الهجرة كان مقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه..؟!

الحجاج: نعم كانت سنةً فاصلةً في الصراع بين عليّ ومعاوية! في هذه السنة أرسل معاوية بُسر بن أرطاة، في جيش إلى المدينة وعامل عليّ عليها أبو أيوب الأنصاريّ، ففر منهم فأتى عليّاً بالكوفة، ودخل بُسر المدينة ولم يقاتله أحد. فصعد منبرها وقال فيما قال: يا أهل المدينة، والله لولا ما عهد إلى معاوية فيكم ما تركت بها محتلماً إلا قتلتهم. وطلب منهم البيعة، فباع أهل المدينة لمعاوية. وهدم بُسر دوراً بالمدينة، ثم مضى حتى أتى مكة، فخافه أبو موسى الأشعري أن يقتله، فقال له بُسر: ما كنت لأفعل بصاحب رسول الله ﷺ ذلك. فخلّى عنه، وكان أبو موسى قد كتب قبل ذلك إلى أهل اليمن أن خيلاً مبعوثاً من عند معاوية تقتل من أبي أن يُقر بالحكومة، ثم مضى بُسر إلى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس ففرّ إلى الكوفة حتى لحق بعليّ واستخلف على اليمن عبد الله بن عبد المدان الحارثي. فلما دخل بُسر اليمن قتله، وقتل ابنه. ⁽¹⁾

لما بلغ عليّاً خبر بُسر، وجّه جارية بن قدامة في ألفين، ووهب بن مسعود في ألفين، فلما بلغ نجران قتل ناساً من شيعة عثمان، وهرب بُسر وأصحابه،

(1) البداية والنهاية 10 / 683

فاتبعوهم حتى بلغ مكة. فقال جارية لأهل مكة بايعوا فقالوا لمن نبايع وقد هلك أمير المؤمنين! فلمن نبايع؟ ويبدو أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد قتل في هذه الفترة ووصلهم خبر مقتله فقال: بايعوا لمن بايع له أصحاب علي فبايعوا. ثم سار إلى المدينة وقال لأهلها بايعوا الحسن بن علي فبايعوا. وعاد بعدها إلى الكوفة.

في هذه السنة أيضا وقبل مقتل علي بقليل، جرت بين علي ومعاوية المهادنة بعد مكاتبات يطول ذكرها، على وضع الحرب بينهما، وأن يكون ملك العراق لعلي وملك الشام لمعاوية، ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزوة.⁽¹⁾ فقد كتب معاوية إلى علي: أما بعد، فإن الأمة قد قتل بعضهم بعضا بيني وبينك، فلك العراق ولي الشام. فأقره علي على ذلك. وأمسك كل واحد منهما عن قتال الآخر، وبعث الجيوش إلى بلاده. واستقر الأمر على ذلك.⁽²⁾

وذكر أحد الرواة أن عليا خطب الناس فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتخضبنَّ هذه من هذه. يقصد لحينه من رأسه فقال الناس: فأعلمنا من هو، والله لنبيدنه أو لنبيدن عترته. قال: أنشدكم بالله أن يقتل غير قاتلي. قالوا: إن كنت قد علمت ذلك فاستخلف إذا. قال: لا، ولكن أكلكم إلى ما وكلكم إليه رسول الله ﷺ.⁽³⁾

الباحث: كيف قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟

(1) البداية والنهاية 10 / 684

(2) البداية والنهاية 10 / 685

(3) المسند 1 / 156 (إسناده صحيح) راجع البداية والنهاية 11 / 8

الحجاج: بلغنا أن ثلاثة من الخوارج؛ وهم عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن أبي مُلجَم الحميري الكندي المصري، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا فتذكروا قَتَلَ عليٍّ إخوانهم من أهل النهروان، فترحموا عليهم وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟! كانوا من خير الناس وأكثرهم صلاةً، وكانوا دعاة الناس إلى ربِّهم، لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد وأخذنا منهم ثأر إخواننا. فقال ابن أبي مُلجَم: أنا أكفيكم عليَّ بن أبي طالب. وقال البرك بن عبد الله: أنا أكفيكم معاويةَ بن أبي سفيان. وقال عمرو بن أبي بكر التميمي: أنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجلٌ منهم عن صاحبه حتى يقتله، أو يموت دونه، فأخذوا أسياфهم فسَمُّوها، واتعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يُبَيَّتَ كُلُّ واحدٍ منهم صاحبه في بلده الذي هو فيه. فأما ابن أبي مُلجَم فسار إلى الكوفة فدخلها، وكنم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها، وأعجب بامرأة يقال لها قطام بنت الشَّجْنة، قُتِلَ أبوها وأخوها يوم النهروان، وكانت رائعة الجمال، واشترطت عليه فيما اشترطت من مهر أن يُقَتَلَ عليًّا، فأسر لها أنه جاء الكوفة إلا ليقْتَلَ عليًّا، فانتدبت له رجلاً من قومها من تيم الرِّباب يقال له: وردان ليكون معه رداءً، واستمال ابن أبي مُلجَم رجلاً آخر يقال له شبيب بن بجرة الأشجعي الحروري. ودخل شهر رمضان، فواعدهم ابن أبي ملجَم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت، وقال هذه الليلة التي واعدتُ فيها أصحابي يقتل كُلُّ واحدٍ منا صاحبه الذي ذهب إليه، فجاء هؤلاء الثلاثة؛ وهم ابن أبي مُلجَم ووردان وشبيب، وهم

مشتملون على سيوفهم، وجلسوا مقابل السُّدَّةِ التي يخرج منها عليٌّ، فلما خرج جعل يُنهض الناسَ من النوم للصلاة ويقول الصلاة الصلاة.

فتار إليه شبيب بالسيف فضربه فوق في الطاق، فضربه ابن أبي مُلجم بالسيف على قرنه، فسال الدم على لحيته، رضي الله عنه، ولما ضربه ابن أبي مُلجم قال: لا حكم إلا لله، ليس لك يا عليٌّ ولا لأصحابك. وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾⁽¹⁾ وهرب وردان فأدركه رجل من حضرموت فقتله، وذهب شبيب فنجأ بنفسه، ومُسك ابن أبي مُلجم، وحُمِلَ عليٌّ إلى منزله بعدما قَدَّمَ غيره ليصلي بالناس، وحُمِلَ ابن أبي ملجم، فوقف بين يديه وهو مكتوف، قبحه الله، فقال له: أي يا عدو الله ألم أحسن إليك قال: بلا قال فما حملك على هذا؟ قال شحذته أربعين يوما وسألت الله أن أقتل به شر خلقه. قال له عليٌّ: لا أراك إلا مقتولا به، ولا أراك إلا من شر خلقه. ثم قال إن مت فاقتلوه، وإن عِشت فأنا أعلم كيف أصنع به.⁽²⁾

الباحث: قالوا إن سيف ابن أبي مُلجم كان مسموما؟

الحجاج: هذا صحيح وقد اعترف ابن أبي ملجم بذلك وقال اشتريته بالف وسممته بالف،⁽³⁾ وكأنه يفتخر بذلك ويرى أنه أدرك بذلك ثأره.

الباحث: عليٌّ رضي الله عنه لم يمت من فوره وامتنع أن يُوصى بمن يخلفه فكيف سارت الأمور؟

(1) البقرة 207

(2) البداية والنهاية 11 / 15

(3) البداية والنهاية 11 / 15

الحجاج: بلغنا أن جُنْدُب بن عبد الله قال له: يا أمير المؤمنين، إن مت نبايع الحسن؟ فقال: لا آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر. ولما احتضر عليٌّ جعل يكثر من قول لا إله إلا الله، لا ينطق غيرها وقيل إن آخر ما تكلم به: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١) وقد أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى الله والصلاة والزكاة وغفر الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم والحلم عن الجاهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن، وحسن الجوار، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب الفواحش، ووصاهما بأخيهما محمد ابن الحنفية، ووصاه بما وصاهما به وأن يعظهما ولا يقطع أمرًا دونهما. فكانت هذه وصيته. (٢)

الباحث: لم نعرف ماذا فعل صاحباً معاوية وعمر بن العاص؟
الحجاج: أقول لك: أما صاحبُ معاوية وهو البرُّك فإنه حمل عليه وهو خارج إلى صلاة الفجر في هذا اليوم، فضربه بالسيف، وقيل بخنجر مسموم. فجاءت الضربة في وركه فجرحت إليته، ومُسك الخارجي فقتل، وجاء الطبيب إلى معاوية فقال له: إن جرحك مسموم؛ فإما أن أكويك، وإما أن أسقيك شربة فيذهب السم، ولكن ينقطع نسلك. فقال معاوية: أما النار فلا طاقة لي بها، وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تقر به عيني. فسقاه شربة، فبرأ من ألمه وجراحه وانقطع النسل وسلم من ذلك. رضي الله عنه. ومن حينئذٍ عملت المقصورة في المسجد الجامع، وجعل الحرس حولها في حال السجود، فكان أول من اتخذها معاوية؛ لهذه الحادثة. (٣)

(١) الزلزلة ٧، ٨

(٢) البداية والنهاية ١١ / ١٦

(٣) البداية والنهاية ١١ / ١٩

الباحث: وماذا فعل عمرو بن بكر صاحب عمرو بن العاص؟

الحجاج: كَمَنْ لَهُ لِيُخْرِجَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَاتَّفَقَ أَنْ عَرَضَ لِعَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ مَغْصُ شَدِيدٍ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَّا نَائِبَهُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَهُوَ خَارِجُهُ بْنُ أَبِي حَبِيبَةَ، مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ عَلَى شَرْطَةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَحَمَلُ عَلَيْهِ الْخَارِجِيُّ فَقَتَلَهُ، وَهُوَ يَعْتَقِدُهُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ، فَلَمَّا أَخَذَ الْخَارِجِيُّ قَالَ: أَرَدْتُ عَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ خَارِجَةً فَصَارَتْ مَثَلًا، وَقِيلَ إِنَّ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ هُوَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ عِنْدَمَا رَدَّ عَلَيْهِ الْخَارِجِيُّ قَائِلًا: مَا أَرَدْتُ إِلَّا إِيَّاكَ. فَقَالَ عَمْرٍو: أَرَدْتَنِي وَأَرَادَ اللَّهُ خَارِجَةً، ثُمَّ أَمَرَ فُضْرِبَتْ عُنُقُهُ. ⁽¹⁾ قَبَّحَهُ اللَّهُ.

الباحث: اختلف الناس على مكان قبر الأمام علي رضي الله عنه؟

الحجاج: الَّذِي بَلَّغْنَا أَنْ عَلِيًّا لَمَّا مَاتَ، صَلَّى عَلَيْهِ ابْنُهُ الْأَكْبَرُ الْحَسَنُ، وَدَفَنَ بَدَارَ الْإِمَارَةِ بِالْكُوفَةِ؛ خَوْفًا عَلَيْهِ مِنَ الْخَوَارِجِ أَنْ يَنْبَشُوا عَنْ جَسَدِهِ، أَمَّا مَنْ قَالَ إِنَّ قَبْرَهُ بِمَشْهَدِ النِّجَفِ، فَلَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا أَصْلَ لَهُ، وَيُقَالُ إِنَّمَا ذَاكَ قَبْرُ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَكَانَ سَنُ عَلِيٍّ يَوْمَ قَتَلَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ سَنَةً. ⁽²⁾ وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرْبَعَ سِنِينَ وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ. ⁽³⁾

الباحث: كم من الوقت ظل علي رضي الله عنه على قد الحياة بعدما ضربه ابن ملجم؟

الحجاج: قَالَ الرَّوَاةُ: ضُرِبَ عَلِيٌّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَمَكَثَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةَ السَّبْتِ، وَتَوَفَّى لَيْلَةَ الْأَحَدِ، لِأَحَدَى عَشْرَةِ لَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ أَرْبَعِينَ ⁽⁴⁾ مِنْ

هجرة النبي ﷺ.

(1) البداية والنهاية 11 / 20

(2) البداية والنهاية 11 / 20، 21

(3) البداية والنهاية 11 / 23

(4) البداية والنهاية 11 / 24

الباحث: ماذا فعل الناس بعد مقتل علي رضي الله عنه خاصة وأنه رضي الله عنه لم يوصي بمن يخلفه، وترك الأمر شورى؟

الحجاج: كان أول من تقدم إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، قيس بن سعد بن عبادة، فقال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه. فسكت الحسن، فبايعه ثم بايعه الناس بعده، وكان ذلك يوم مات علي⁽¹⁾. وكان قيس بن سعد على إمرة أذربيجان، تحت يده أربعون ألف مقاتل قد بايعوا عليا على الموت. فلما مات علي ألح قيس بن سعد على الحسن في النفير لقتال أهل الشام، فعزل قيسا عن إمرة أذربيجان، وولى عبيد الله بن عباس عليها، ولم يكن في نية الحسن أن يقاتل أحدا، ولكن غلبوه على رأيه. فأمر الحسن بن علي قيس بن سعد بن عبادة على المقدمة في اثني عشر ألفا بين يديه، وسار هو بالجيوش في إثره قاصدا بلاد الشام ليقاتل معاوية وأهل الشام فلما اجتاز المدائن نزلها وقدم المقدمة بين يديه، فبينما الحال كذلك إذ صرخ في الناس صارخ: ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قتل. فثار الناس وهاجوا وماجوا فانتهب بعضهم بعضا، حتى انتهبوا سرادق الحسن، حتى نازعوه بساطا كان جالسا عليه، وطعنه بعضهم حين ركب طعنة أشوته⁽²⁾، فكرههم الحسن كراهية شديدة، ثم ركب فدخل القصر الأبيض بالمدائن وهو جريح. وكان عامله على المدائن سعد بن مسعود الثقفي.

وذكر الرواة أن المختار بن أبي عبيد الثقفي، قال لعمه سعد بن مسعود الثقفي: هل لك في الشرف والغنى؟ قال: وما ذا؟ قال: تأخذ الحسن بن

(1) البداية والنهاية 11 / 131

(2) أشوته: لم تُصب مقتله

عليّ فتقيده وتبعث به إلى معاوية. فقال له عمه: قَبَّحَكَ اللَّهُ وَقَبَّحَ مَا جِئْتَ به! أأعذر بابت بنت رسول الله ﷺ؟! (1)

ولما رأى الحسنُ بن عليّ تفرّق جيشه عليه مَقَتَّهْم، وكتب عند ذلك إلى معاوية وكان قد ركب في أهل الشام، فنزل (مسكن) يراوضه على الصلح بينهما، فبعث إليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة، فقدموا عليه الكوفة فبدلاً له ما أراد من أموال، فاشتراط أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم، وأن يكون خراج داراً بجرّد له، وأن لا يُسَبَّ عليّ وهو يسمع، فإذا فعل ذلك نزل عن الإمارة لمعاوية، ويحقن الدماء بين المسلمين، فاصطلحوا على ذلك واجتمعت الكلمة على معاوية. وقد لام الحسين أخاه الحسن على هذا الرأي، فلم يقبل منه. (2)

ثم بعث الحسنُ بن عليّ إلى أمير المقدمة قيس بن سعد أن يسمع ويطيع لمعاوية، فأبى قيسٌ من قبول ذلك، وخرج من طاعتهما جميعاً، ثم راجع نفسه وما لبس أن بايع معاوية بعد أيام قريبة.

الباحث: لهذا الحدث سُمِّي عامٌ أربعين الذي وُلِدَتْ فيه يا حجاج، عام الجماعة؟
الحجاج: نعم لاجتماع الأمة والكلمة على معاوية، وإن قال بعض الرواة إن هذا حدث في أوائل عام واحد وأربعين. وأنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين أي بعد وفاة رسول الله ﷺ بثلاثين سنة كاملة حيث توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من

(1) البداية والنهاية 11 / 132

(2) البداية والنهاية 11 / 133

الهجرة، وقد قال ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلكاً». وإنما كملت الثلاثون سنة بخلافة الحسن بن عليٍّ⁽¹⁾. وصدق فيه قول رسول الله ﷺ: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».⁽²⁾

كان تسليم الحسن الأمر لمعاوية في الخامس من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين. وحينئذٍ دخل معاوية إلى الكوفة، فخطب الناس بها بعد البيعة. وذكروا أن عمرو بن العاص أشار على معاوية أن يأمر الحسن بن علي أن يخطب الناس ويُعلمهم بنزوله عن الأمر لمعاوية، فأمر معاوية الحسن فقام في الناس خطيباً، فقال في خطبته بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ: أما بعد، أيها الناس، فإن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بأخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دول، وإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿وَلَنْ أَدْرِي لَعَلَّهِ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّعْتُ إِلَىٰ حِينٍ﴾⁽³⁾ فلما قالها غضب معاوية وأمره بالجلوس، وعتب على عمرو بن العاص في إشارته بذلك ولم يزل في نفسه منه لذلك.⁽⁴⁾

ولما حصل على بيعة معاوية عامئذٍ الإجماع والاتفاق، ترحل الحسن بن عليٍّ، ومعه أخوه الحسين وبقية إخوتهم وابن عمهم عبد الله بن جعفر من أرض العراق إلى أرض المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.⁽⁵⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 134

(2) رواه البخاري.

(3) الأنبياء 111

(4) البداية والنهاية 11 / 139

(5) البداية والنهاية 11 / 141

الباحث: إذا فقد استقرت الأحوال لمعاوية وارتاح باله وبأيعه الجميع فلم يعد هناك ما ينغص عليه حياته بعد ذلك..؟

الحجاج: ليس تمامًا.

الباحث: لا أفهم! هل حدث ما يعكر الصفو؟

الحجاج: نعم، لما دخل معاوية الكوفة، وخرج الحسن وأهله منها قاصدين الحجاز، قالت فرقة من الخوارج وكانوا نحو الخمسمائة: جاء ما لا يُشَكُّ فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه. فساروا حتى قُربوا من الكوفة، وعليهم فَرَوَةٌ بَنُ نُوْفَلٍ، فبعث إليهم معاويةُ خيلاً من أهل الشام، فطردوا الشاميين، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم عندي حتى تكفوا بوائقكم. فخرجوا إلى الخوارج، فقالت لهم الخوارج: ويلكم، ماتبعون؟ أليس معاوية عدوكم؟ فدعونا حتى نقاتله، فإن أصبناه كنا قد كفيناكموه، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا. فقالوا لا والله حتى نقاتلكم. فقالت الخوارج يرحم الله إخواننا من أهل النهروان، كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة. فاقتتلوا فهزمهم أهل الكوفة وطردهم، ثم إن معاوية أراد أن يستخلف على الكوفة عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له المغيرة بن شعبة: أتولى الكوفة وأبوه بمصر وتبقى أنت بين لحيي الأسد؟! فثناه عن ذلك، فولَّى عليها المغيرة بن شعبة، فاجتمع عمرو بن العاص بمعاوية، فقال أتجعل المغيرة بن شعبة على الخراج، هلا وليت الخراج رجلاً آخر. فعزله عن الخراج وولاه على الصلاة، فقال المغيرة لعمرو في ذلك، فقال له: ألسن المشير على أمير المؤمنين في عبد الله بن عمرو؟ قال: بلى قال: فهذه بتلك.⁽¹⁾

ولم تمض هذه السنة حتى وثب حُمران بن أبان على البصرة فأخذها وتغلب عليها، فبعث معاوية إليه جيشاً ليقتلوه ومن معه، فجاء أبو بكره الثقفي إلى معاوية، فسأله الصفح عنهم والعفو، فعفا عنهم وأطلقهم، وولى على البصرة بُسر بن أبي أرطاة.⁽¹⁾

ومرت سنة اثنتين وأربعين بسلام فلم يخرج على معاوية أحد. وقد أرسل معاوية جيشاً لغزو الروم في هذه السنة، فاتصروا وغنموا وعادوا سالمين⁽²⁾، أما الخوارج الذين عفا عنهم عليُّ يوم النهروان، وقد عوفيت جراحهم وثابت إليهم قواهم، فقد فرحوا لمقتل عليٍّ رضي الله عنه، ثم عزموا على الخروج على الناس، وتوافقوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب زعمهم.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين هجرية غزا بُسر بن أرطاة بلاد الروم، فوغل فيها حتى بلغ مدينة قسطنطينية.⁽³⁾

وفي هذه السنة توفي عمرو بن العاص⁽⁴⁾ بمصر، فولَّى معاوية على ديار مصر بعده ولده عبد الله بن عمرو بن العاص.

(1) البداية والنهاية 11 / 149

(2) البداية والنهاية 11 / 154

(3) البداية والنهاية 11 / 156

(4) ذكر الترمذي في صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ (أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص). كان عمرو بن العاص أحد رؤساء قريش في الجاهلية، وكان معدوداً من دهاة العرب، وهو الذي أرسلوه إلى النجاشي ليرد عليهم من هاجر من المسلمين إلى بلاده، فلم يجبههم إلى ذلك لعدله، ووعظ عمرو بن العاص في ذلك، فيقال: إنه أسلم على يديه. والصحيح أنه أسلم قبل الفتح بستة أشهر هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبدري. وكان أحد أمراء الإسلام، وهو أمير غزوة ذات السلاسل، وأمدّه رسول الله ﷺ بمدد، عليهم أبو عبيدة ومعه الصديق وعمر الفاروق، واستعمله رسول الله ﷺ على عُمان، فلم يزل عليها مدة حياة الرسول ﷺ، وأقره عليها

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين الخوارج وجند الكوفة، فاجتمعوا في قريب من ثلاثمائة، عليهم المستورد بن عُلْفَةَ، فجهز إليهم والى الكوفة المغيرة بن شعبة جندا بقيادة معقل بن قيس في ثلاثة آلاف، وقدم بين يديه أبا الرواغ في طليعة، عدتها ثلاثمائة على عدد الخوارج فالتقوا في مكان يقال له المذار، ودارت الحرب بين الفريقين، انتصر الخوارج في أولها ولكنهم مع مثابرة جند الكوفة وبطولتهم وبعد انضمام الجيش إلى المقدمة، لم يجدوا أمامهم إلا الفرار وعبور نهر دجلة ووقعوا في أرض بُهْرَسِيرَ، فطاردوهم حتى بلغوا المدينة العتيقة⁽¹⁾. فركب إليهم سِمَاكُ بْنُ عُبَيْدٍ نَائِبُ الْمَدَائِنِ، ولحقهم أَبُو الرَوَاغِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ مَقْدَمَةِ جَيْشِ الْمَغِيرَةِ، فاندحروا وتفرقوا فيما يبدو.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين هجرية، وفيها غزا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم، ومعه المسلمون وشتوا هنالك. وفيها غزا بُسْرُ بْنُ أَرْطَاةٍ فِي الْبَحْرِ⁽²⁾.

الباحث: ألاحظ أن غزو الروم يتكرر!

الحجاج: لا تنس أن هذا العصر أزهى عصور الفتوحات الإسلامية.

الباحث: هل نجح معاوية في إدارة أمور الخلافة على اتساعها؟

الصديق، كما بعثه عمر إلى مصر فافتتحها واستنابه عمر عليها، وأقره عليها عثمان بن عفان أربع سنين ثم عزله، وذكروا أنه لما عزله عثمان بن عفان عن مصر اعتزل بفلسطين، وبقي في نفسه شيء من عثمان رضي الله عنهما، فلما قُتِلَ عثمان سار إلى معاوية، فشهد موافقه كلها وكان أحد الحكيمين ثم لما استرجع معاوية مصر من محمد بن أبي بكر ولَّى عليها عمرو بن العاص، فلم يزل نائبها إلى أن مات عام ثلاثة وأربعين. راجع البداية والنهاية 11 / 159

(1) البداية والنهاية 11 / 157

(2) البداية والنهاية 11 / 164

الحجاج: لا شك أن معاوية كان من دهاة العرب في الجاهلية والإسلام، وقد اكتسب خبرة عريضة في سياسة الأمصار، فقد ولي عُمان أيام رسول الله ﷺ وأيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفتح مصر وتولى أمورها على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعثمان رضي الله عنه، وأستفاد خبرة كبيرة مما حدث لعثمان وأدى إلى مقتله رضي الله عنه، لذلك فقد كان مؤهلاً بجدارة لإدارة دفة الحكم في هذه الفترة العصيبة من التاريخ الإسلامي.⁽¹⁾

الباحث: كيف كان يعامل ولاته على الأمصار؟

الحجاج: ليسوا سواء، فكل على حسب كفاءته في الإدارة، وأذكر لك خبر من الأخبار التي بلغتنا عن معاوية، أنه عزل عبد الله بن عامر عن إمرة البصرة؛ وذلك أنه ظهر فيها الفساد بسبب لينه؛ لأنه كان لين العريكة، سهلاً كريماً، وكان لا يأخذ على أيدي السفهاء، ولا يقطع لصاً، ويريد أن يتألف الناس، ففسدت البصرة بسبب ذلك. حتى إن عبد الله بن عامر شكاً إلى زياد ذلك فقال له: جرّد فيهم السيف. فقال ابن عامر: إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي. فشكاه بن أبي أوفى المعروف بالكواء إلى معاوية فعزله وبعث إليها الحارث بن عبد الله الأزدي. وقالوا: إن معاوية استدعاه إليه ليزوره، فقدم بن عامر إلى معاوية في دمشق، فأكرمه وردّه على عمله، فلما قام يودعه قال له معاوية: ثلاثُ أسألُكهن فقل: هن لك. قال هن لك وأنا ابن أم حكيم. قال معاوية: ترد عليّ عملي ولا تغضب. قال بن عامر فعلت.

قال وتهب لي مالك بعرفة. قال: قد فعلت. قال: وتهب لي دورك بمكة. قال قد فعلت. فقال له معاوية: وصلتكَ رحم. فقال ابن عامر: يا أمير

(1) هذا رأي الباحث وليس كلام الحجاج على التحقيق.

المؤمنين، وإني أسألك ثلاثا فقل: هن لك. قال: هن لك وأنا ابن هند. قال: ترد عليّ مالي بعرفة. قال: قد فعلت. قال: ولا تحاسب لي عاملا ولا تتبع له أثرا. قال قد فعلت. قال وتنكحني ابنتك هند. قال قد فعلت. ويقال إن معاوية خيره بين هذه الثلاث وبين الولاية على البصرة فاختر الثلاث، وانعزل عن البصرة.⁽¹⁾ وكان ذلك سنة ثلاث وأربعين.⁽²⁾ وهذا نموذج من سياسته مع الولاة على الأمصار.

وفي هذه السنة حج معاوية بالناس. وعمل المقصورة بالشام، وعمل مروان مثلها بالمدينة. وفي هذه السنة أيضا توفيت أخته أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها

أما في سنة خمس وأربعين من الهجرة فقد حج بالناس مروان بن الحكم وكان نائب معاوية على المدينة. وتوفيت فيها أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.⁽³⁾

أما في سنة ست وأربعين، فقد شتى المسلمون ببلاد الروم مع أميرهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وحج بالناس عتبة بن أبي سفيان أخو معاوية.⁽⁴⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 164

(2) ذكر الرواة أيضا أن في هذه السنة استلحق معاوية زياد بن أبيه فألحقه بأبي سفيان. وذلك أن رجلا شهد على إقرار أبي سفيان أنه عاهر بسمية أم زياد في الجاهلية، وأنها حملت بزياد هذا من أبي سفيان، فلما استلحقه معاوية قيل له: زياد بن أبي سفيان. وقد كان الحسن البصري يُنكر هذا الاستلحاق، ويقول: قال رسول الله ﷺ: "الولد للفراش وللعاهر الحجر". راجع البداية والنهاية

11 / 165

(3) البداية والنهاية 11 / 171

(4) البداية والنهاية 11 / 173

وفي سنة سبع وأربعين شتى المسلمون ببلاد الروم أيضا، وفيها عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها معاوية بن حُذَيج وحج بالناس عتبة بن أبي سفيان.⁽¹⁾

ثم دخلت سنة ثمانٍ وأربعين هجرية، وفيها شتى أبو عبد الرحمن القيني بالمسلمين ببلاد انطاكية. وفيها غزا عقبة بن عامر بأهل مصر البحر.⁽²⁾

ثم دخلت سنة تسع وأربعين من الهجرة، وفيها غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم حتى بلغ قسطنطينية، ومعه جماعة من السادات الصحابة منهم؛ ابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري.

الباحث: هل هذا هو أول جيش من المسلمين يصل الى مدينة قسطنطينية؟ لقد قال رسول الله ﷺ: «أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»؟!⁽³⁾

الحجاج: هو هذا الجيش كما ذكرت لك، وما وصلوا إليها حتى بلغوا الجهد.⁽⁴⁾

وفي هذه السنة شتى مالك بن هبيرة الفزاري بأرض الروم وغزا فضالة بن عبيد وشتى هنالك ففتح البلد وغنم شيئا كثيرا، وفيها كانت صائفة عبد الله بن كرز البجليّ.

وفي هذه السنة وقع الطاعون بالكوفة، فخرج منها المغيرة بن شعبة فارا، فلما ارتفع الطاعون رجع إليها، فأصابه الطاعون فمات، وقالوا مات سنة خمسين هجرية. فجمع معاوية لزياد الكوفة والبصرة.

(1) البداية والنهاية 11 / 176

(2) البداية والنهاية 11 / 179

(3) صحيح البخاري (2924)

(4) البداية والنهاية 11 / 180

وفي هذه السنة سنة تسع وأربعين من الهجرة، توفي الحسن بن علي رضي الله عنه.

الباحث: عليه رحمة الله ورضوانه، يقال أن تسعين ألفا بايعوه، ورغم هذا زهد في الخلافة وصالح معاوية، ولم يُسْفَك في أيامه محجمةً من دم.⁽¹⁾

الحجاج: نعم بعدما قُتِلَ علي رضي الله عنه، بايعه أهل الكوفة، وأطاعوه وأحبوه أشدَّ من حبهم لأبيه. وقالوا إن الحسن بايع معاوية على أن يجعل العهد للحسن من بعده. فكان أصحاب الحسن يقولون: يا عَارَ المؤمنين. قال: العارُ خيرٌ من النار.⁽²⁾ فكانت ولاية الحسن حتى بيعته لمعاوية سبعة أشهر وأحد عشر يوماً.

الباحث: قالوا إن من بين شروط الصلح بينهما أن يكون خراج دارابجرد للحسن كل عام، فامتنع أهل هذه الناحية من أداء الخراج إليه؟

الحجاج: ذكروا هذا فعلاً وقالوا إن معاوية عَوَّضَهُ عن ذلك ستة آلاف ألف كل عام، مع ماله المقرر له كل عام، إلى أن تُوفي رحمه الله.⁽³⁾ وبلغنا أن الحسن بن علي رضي الله عنهما، رأي في منامه أنه مكتوب بين عينيه: «قل هو الله أحد» ففرح بذلك، فلما بلغ ذلك سعيد بن المسيب، فقال: إن كان رأى هذه الرؤيا فقلَّ ما بقي من أجله. فلم يلبث الحسن بعد ذلك إلا أياماً حتى مات، وهو ابن سبع وأربعين سنة⁽⁴⁾، عليه رحمة الله.

الباحث: هل مات الحسن مسموماً حقاً؟

(1) البداية والنهاية 11 / 203

(2) البداية والنهاية 11 / 204

(3) البداية والنهاية 11 / 205

(4) البداية والنهاية 11 / 212

الحجاج: الله أعلم به، وإن كان الرواة قد ذكروا أن بعض الناس زاروه فقام إلى المخرج⁽¹⁾، ثم خرج فقال: لقد لفظت طائفة من كبدي أقلبها بهذا العود، ولقد سُقيت السُّم مراراً، وما سُقيت مرةً هي أشدُّ من هذه. فما لبس في الغد أن أخذ في السَّوق⁽²⁾، فجاء حسينٌ حتى قعد عند رأسه، فقال: أي أخي، من صاحبك؟ قال تريد قتله؟ قال نعم. قال: لئن كان صاحبي الذي أظن: لله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً، وإن لم يكنه ما أحب أن تقتل بي بريئاً.⁽³⁾

- (1) المخرج: المخروءة والمخروءة المكان الذي يُتَخَلَّى فيه، وفي رواية أن الحسن دخل كنيفاً له. لسان العرب (خ ر أ)
- (2) في السَّوق: في النزاع الأخير، كأن روحه تُساق لتخرج من بدنه.
- (3) البداية والنهاية 11 / 207 وانظر ابن سعد؛ الطبقات (تحقيق د. محمد السلمي) 1/335؛ المسعودي: مروج الذهب 3/5؛ أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين 73؛ ابن عبد البر: الاستيعاب 1/389؛ ابن الجوزي: المنتظم 5/226؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق (مخطوط) 545/4؛ المزي: تهذيب الكمال 6/253.

ويورد د. خالد بن محمد الغيث في كتابه مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، دار الإيمان الإسكندرية 2004م ص 393 397 يقول: لم يورد الطبري في تاريخه خبر وفاة الحسن بن علي رضي الله عنه، ولكن نظراً لاتهام بعض الإخباريين لمعاوية رضي الله عنه، وابنه يزيد أنهما تسببا في وفاة الحسن بالسُّم فقد اوردت هذه القضية في هذا الفصل. هذا مع العلم أن أسانيد تلك الروايات أسانيد ضعيفة... ثم اورد بعض اقوال أهل العلم فيها. يقول ابن العربي: "فإن قيل: دس على الحسن من سمّه، قلنا هذا محال من وجهين: أحدهما: أنه ما كان ليتقي من الحسن بأساً وقد سلّم الأمر، الثاني: أنه أمرٌ مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بينة على أحد من خلقه، في زمن متباعد، لم نثق فيه بنقل ناقل، بين أيدي قوم ذوي أهواء، وفي حالة فتنة وعصبية، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغي فلا يُقبل منها إلا الصافي، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم (ابن العربي في العواصم من القواصم 220، 221). ويقول ابن تيمية «وأما قوله: إن معاوية سمّ الحسن، فهذا مما ذكره بعض الناس، ولم يُثبت ذلك بينة شرعية، أو إقراراً معتبراً، ولا نُقلٌ يُجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قولٌ بلا علم» (ابن تيمية منهاج السنة النبوية 4/469). وقال ابن كثير: "وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث، أن سمّ الحسن، وأنا أتزوجك بعده، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: «إنا والله لم نرضك للحسن أفترضاك

وكان الحسن قد بعث يستأذن أم المؤمنين عائشة أن يُدفن بجوار الرسول ﷺ فأذنت له، فلما مات لبس الحسين السلاح وتسلح بنو أمية، وقالوا: لا ندعه يُدفن مع رسول الله ﷺ، أيُدفن عثمان بالبقيع ويُدفن الحسن بن علي في الحجرة؟ فلما خاف الناس وقوع الفتنة أشار سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة وجابر وابن عمر على الحسين ألا يقاتل، فامتثل، ودفن أخاه قريبا من قبر أمه فُدفن رضي الله عنه بالبقيع.⁽¹⁾

لأنفسنا؟. وعندي أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأخرى. (11 / 208، 209). وقال بن خلدون: «وما نُقِلَ من أن معاوية دَسَّ إليه السمَّ مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، وحاشا لمعاوية من ذلك» (التاريخ 2 / 649).

من الجدير بالذكر أن الباحث الدكتور خالد بن محمد الغيث، عرض ما ورد عن حالة الإمام الحسن على أحد كبار الأطباء وهو الأستاذ الدكتور / كمال الدين حسين الطاهر فأجاب بقوله: «لم يشتك المريض من أي نزف دموي سائل، مما يُرجَّح عدم إعطائه أي مادة كيميائية (أو سم) ذات قدرة على إحداث تثبيط لعوامل تخثر الدم، فمن المعروف أن بعض الكيمائيات، والسموم، تؤدي إلى التزيف الدموي؛ وذلك لقدرتها على تثبيط التصنيع الكبدي لبعض العوامل المساعدة على تخثر الدم، أو لمضادات تأثيراتها في عملية التخثر؛ ولذلك فإن تعاطي هذه المواد سيؤدي إلى ظهور نزف دموي من مناطق متعددة من أعضاء الجسم مثل العين والأنف، والفم، والجهاز المعدي، المعوي، يخرج الدم بشكل نزيف دبري سائل منفردا أو مخلوطا مع البراز، ولا يظهر في شكل جمادات أو قطع دموية، صلبة كانت أو إسفنجية، أو في شكل (قطع من الكبد)، ولذلك يستبعد إعطاء ذلك المريض أحد المواد الكيميائية أو السموم ذات القدرة على إحداث نزف دموي». وعلى وصف ما جاء في الروايات يقول: «هنالك بعض أنواع السرطانات، أو أورام الجهاز المعدي، المعوي الثابتة أو المتنقلة عبر الأمعاء، أو بعض السرطانات المخاطية، التي تؤدي إلى النزف الدموي المتجمد، المخلوط مع الخلايا، وبطانات الجهاز المعدي المعوي وقد تخرج في شكل جمادات (قطع من الكبد كما في الروايات)، لذلك فإني أرجح أن ذلك المريض قد يكون مصاباً بأحد سرطانات، أو أورام الأمعاء» انتهى كلام الأستاذ الدكتور كمال الدين حسين الطاهر. (مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري المرجع السابق ص 397، 369).

(1) ذكر جابر بن عبد الله أنه شهد يوم مات الحسن بن علي، فكادت الفتنة تقع بين الحسين بن علي وبين مروان بن الحكم، وكان الحسن قد عهد إلى أخيه أن يُدفن مع رسول الله ﷺ، فإن خاف أن يكون في ذلك قتال أو شر فليُدفن بالبقيع. فأبى مروان أن يدعه، ومروان يومئذٍ معزول يريد أن

الباحث: ودخلت سنة خمسين من الهجرة! في هذه السنة حج بالناس معاوية وكان نائبه على المدينة سعيد بن العاص، وعلى الكوفة والبصرة والمشرق وسجستان وفارس والسند والهند زياد. وعزل معاوية عن مصر معاوية بن حديج، وولّى عليها وعلى إفريقية مسلمة بن مخلد.

الحجاج: وافتتح عقبة بن نافع الفهري عن أمر معاوية بلاد إفريقية، واختط القيروان.⁽¹⁾ وفي هذه السنة أيضا غزا بُسر بن أبي أرطاة وسفيان بن عوف أرض الروم، وفيها غزا فضالة بن عُبيد البحر. وفي هذه السنة توفي المغيرة بن شعبة أبو عبد الله الثقفي، وكان من دهاة العرب وذوي آرائهم.⁽²⁾

الباحث: ثم كانت سنة إحدى وخمسين من الهجرة.

الحجاج: نعم في هذه السنة كان مقتل حُجر بن عدي وأصحابه ويُكنى بأبي عبد الرحمن، وهو من كنده من رؤساء أهل الكوفة.⁽³⁾

يُرضي معاوية بذلك، قال جابر فكلمت يومئذ حسين بن علي فقلت: يا أبا عبد الله، اتق الله؛ فإن أخاك كان لا يحب ماتري، فادفنه بالبيع مع أمه. ففعل. راجع البداية والنهاية 11 / 210، 211 (1) ذكروا أن مكان القيروان كان غيضةً تأوي إليها السباع والوحوش والحيات العظام فدعا الله تعالى أي عقبة بن نافع الفهري، فلم يبق فيها شيء من ذلك حتى السباع صارت تخرج منها تحمل أولادها، والحيات يخرجن من أجحارهن هوارب، فعند ذلك أسلم خلق كثير من البربر. راجع البداية والنهاية 11 / 215

(2) أسلم المغيرة بن شعبة عام الخندق في رمضان منها، عن سبعين سنة. وقال الشعبي: القضاة أربعة؛ عمر، وعلي، وابن مسعود، وأبو موسى. والدعاة أربعة؛ معاوية وعمر بن العاص، والمغيرة، وزياد. وقال صاحب البداية والنهاية: الشيعة يقولون: الأشياخ خمسة؛ رسول الله ﷺ، وعلي، وفاطمة والحسن والحسين، والأضداد خمسة أبو بكر، وعمر، ومعاوية، وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة. راجع البداية والنهاية 11 / 222

(3) البداية والنهاية 11 / 227 وذكر أنه كان من عبّاد الناس وزهادهم، وكان باراً بأمه، وكان كثير الصلاة والصيام. وقال أبو معشر: ما أحدث قط إلا تَوْضُأً، ولا تَوْضُأً إلا صلى ركعتين.

الباحث: يقال إن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنكرت على معاوية قتل حُجْرٍ وأصحابه.؟

الحجاج: نعم، بلغنا أن المغيرة بن شعبة وكان على الكوفة، إذا ذَكَرَ عَلِيًّا في خطبته يتنقَّصُه بعد مدح عثمان وشيعته، فيغضب حُجْرًا هذا، ويظهر الإنكار عليه، ولكن المغيرة فيه حلمٌ وأناة، فكان يصفح عنه ويعظه فيما بينه وبينه، فلم يرجع حُجْرٌ عن ذلك. فلما كان في آخر أيام المغيرة قام حُجْرٌ يوماً، فأنكر عليه في الخطبة وصاح به، وذمه بتأخير العطاء عن الناس، وقام معه فئة من فِئامٍ من الناس لقيامه، يصدقونه ويُشنعون على المغيرة، ودخل المغيرة بعد الصلاة قصر الإمارة، ودخل معه جمهور من الأمراء وغيرهم، فأشاروا على المغيرة بأن يرد حُجْرًا عما يتعاطاه من الجرأة على السلطان وشق العصا والقيام على الأمير، وذمروه ⁽¹⁾ وحثوه على التنكيل به، فصفح عنه وحلَّم.

وذكر بعضهم أن معاوية كتب إلى المغيرة يستمده بمالٍ من بيت المال، فبعث عيرا تحمل مالا فاعترض لها حُجْرٌ، فأمسك بزمام أولها، وقال: لا والله حتى يُوفَّى كُلُّ ذي حقِّ حقه، فقال شباب ثقيف للمغيرة: ألا نأتيك برأسه؟ فقال: ما كنت لأفعل ذلك بحُجْرٍ، فتركه.

فلما تُوفِّي المغيرة بن شعبة، رضي الله عنه، وجمعت الكوفة مع البصرة لزياد دخلها، وقد التف على حُجْرٍ جماعات من شيعة عليٍّ يُقوُّونه ويشدون أمره على يده، ويسبون معاوية ويتبرءون منه، فلما كانت أول خطبة خطبها زيادٌ بالكوفة، ذكر في آخرها فضل عثمان، وذم من قتله أو أعان على قتله. فقام حُجْرٌ كما كان يقوم أيام المغيرة، وتكلم بنحو مما قال

(1) الذمر: اللوم والحُصُّ معا، انظر اللسان (ذم ر)

للمغيرة، فلم يعرض له زياد. وعندما أراد زياد الذهاب إلى البصرة حذر حُجر من مغبه ما يفعل هو ومن معه من شيعة عليٍّ، وأتاب على الكوفة عمرو بن حريث، فقام إليه حُجرٌ وأصحابه فحصبوه وهو على المنبر يوم الجمعة، بلغ ذلك زيادًا فعاد إلى الكوفة، وصعد المنبر، وحُجرٌ جالس وأصحابه وكانوا أكثر ما كانوا وقد لبس منهم يومئذ نحوًا من ثلاثة آلاف، منهم من جلس حوله في المسجد في الحديد والسلاح، فخطب زياد، وقال فيما قال: إن هؤلاء القوم جمَّعوا فأشروا وأمنوني فاجترءوا عليٍّ، وإيم الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم. ثم قال ما أنا بشيءٍ إن لم أُمْنع ساحة الكوفة من حُجرٍ، وأدعُهُ نكالاً لمن بعده، ويل أملك يا حُجر، سقط بك العشاء على سرحان ثم قال:

أبلغ نصيحة أن راعي إبلها سقط العشاء به على سرحان

وجعل زياد يقول في خطبته: إن من حق أمير المؤمنين، إن من حق أمير المؤمنين. فقال حُجر: كذبت. فسكت زياد ونظر إليه، ثم عاد يقول: إن من حق أمير المؤمنين، إن من حق أمير المؤمنين، يعني كذا وكذا. فأخذ حُجرٌ كفا من حصا فحصبه، وقال كذبت عليك لعنة الله، فانحدر زيادٌ فصلى بالناس ثم دخل القصر واستحضر حُجرًا، ويُقال إنه كتب إلى معاوية في أمره وكثر عليه، فكتب إليه معاوية أن شُدَّه في الحديد واحمله إليَّ فبعث إليه زياد والي الشرطة. فامتنع عن الحضور وقام دونه أصحابه فاستنهض زيادُ جماعاتٍ من القبائل، فركبوا إلى حُجرٍ وأصحابه، فكان بينهم قتال بالحجارة والعصي فعجزوا عنه، فندب إليه محمد بن الأشعث، وأمهلته ثلاثًا، وجهز معه جيشًا، فركبوا إليه ولم يزالوا حتى أحضروه إلى زياد، فقيده وسجنه عشرة أيام، ثم بعث به إلى معاوية وبعث معه جماعة

يشهدون عليه أنه سب الخليفة، وأنه حارب الأمير، وأنه يقول: إن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل علي بن أبي طالب، وكان مع حُجر بن عدي بن جبلة الكندي من أصحابه جماعة قيل: أربعة عشر وقيل: اثنا عشر رجلاً، فلما وصلوا إلى الشام بعث إليهم معاوية من تلقاهم إلى عذرَاء تحت الشنية؛ ثنية العُقَاب، فقتلوا هناك.⁽¹⁾ وقيل: بل إنهم دخلوا عليه فردَّهم فقتلوا بعذرَاء، وقيل: حُبسوا بعذرَاء واستشار معاوية الناس فيهم، وكتب إلى زياد في أمرهم فأشار عليه بقتلهم إن كان له حاجة في ملك العراق، فعند ذلك أمر بقتلهم. فقتل منهم ستة، واستوهب الأمراء منهم ستة، واحداً بعد الآخر وكان ممن قُتل وقد بدءوا به حُجر بن عدي. وكان قد أوصى أن يُدفن في قيوده. ففعلوا به ذلك، وروى البعض أن الحسن بن عليٍّ والصحيح الحسين لأن الحسن تُوْفِيَ قبل ذلك قال: أصلوا عليه ودفنوه في قيوده؟! قالوا نعم: قال: حَبَّهْمُ وَاللَّهِ.⁽²⁾

وقال الرواة: إن معاوية عندما دخل على أم المؤمنين عائشة، فسلم عليها من وراء الحجاب، وذلك بعد مقتل حُجرٍ وأصحابه، قالت له: أين ذهب حلمك يا معاوية حين قتلت حُجراً وأصحابه؟ فقال لها: فقدته حين غاب عني من قومي مثلك يا أماء. ثم قال لها: فكيف برِّي بك يا أمه؟ فقالت: إنك بي لبار. فقال يكفيني هذا عند الله، وغدا لي ولحجر موقف بين يدي الله عز وجل.

ورثته هند بنت زيد بن مخزومة الأنصارية، وقيل إن الرثاء لهند أخته:⁽³⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 232، 233

(2) البداية والنهاية 11 / 236

(3) البداية والنهاية 11 / 240

تَرْفَعُ أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمَنِيرُ	تَبَصَّرَ هَلْ تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ	لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْأَمِيرُ
يَرَى قَتْلَ الْخِيَارِ عَلَيْهِ حَقًّا	لَهُ مِنْ شَرِّ أُمْتِهِ وَزَيْرُ
أَلَا لَيْتَ حُجْرًا مَاتَ مَوْتًا	وَلَمْ يُنْحَرْ كَمَا نُحِرَ الْبَعِيرُ
تَجَبَّرَتْ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ	وَطَابَ لَهَا الْخَرُونَقُ وَالسَّيْدِرُ
وَأَصْبَحَتْ الْبِلَادُ لَهُ مُحُولًا	كَأَنَّ لَمْ يُجِيهِهَا مُزْنٌ مَطِيرُ
أَلَا يَا حُجْرُ حُجْرُ بَنِي عَدِيٍّ	تَلَقَّيْنَاكَ السَّلَامَةَ وَالسَّرُورُ
أَخَافُ عَلَيْكَ مَا أُرْدَى عَدِيًّا	وَشَيْخًا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْرُ
فَإِنْ تَهَلَّكَ فَكُلْ زَعِيمَ قَوْمٍ	مَنْ الدُّنْيَا إِلَى هُلْكَ يَصِيرُ

وذكر بعضهم أن معاوية قال لأُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (إني رأيت في قتلهم صلاحاً للأمة، وفي بقائهم فساداً للأمة).

الباحث: هل من فتوح في هذه السنة؟

الحجاج: نعم فتح الربيع بن زياد الحارثي نائب خراسان بلخاً صلحاً، وكانوا قد أغلقوها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس، وفتح قوهستان عنوةً.

وغزا الربيع ما وراء النهر، فغنم وسلم. وحج بالناس في هذه السنة يزيد بن معاوية. ⁽¹⁾

الباحث: ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين هجرية.

الحجاج: نعم ما زلت وقتئذٍ صبياً في الثانية عشرة وبلغنا أن سفيان بن عوف الأزدي غزا الروم في هذه السنة، فمات هناك واستخلف على الجند بعده عبد الله بن مسعدة الفزاري، وغزا الصائفة محمد بن عبد الله الثقفي.

الباحث: يبدو أن هذه الغزوات كانت منتظمة.!

الحجاج: نعم، وذلك لمزيد من الفتوحات الإسلامية ولتأمين حدود الأمصار التي فتحها المسلمون.

وفي هذه السنة توفي أبو أيوب الأنصاري، واسمه خالد بن زيد بن كليب، في داره كان نزول الرسول ﷺ، عند قدومه المدينة مهاجرا، وشهد المشاهد كلها. وكانت وفاته ببلاد الروم قريبا من سور قسطنطينية، وكان في جيش يزيد بن معاوية..⁽¹⁾

الباحث: وماذا عن سنة ثلاث وخمسين هجرية؟

الحجاج: فيها غزا عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي بلاد الروم وشتى بها، وفي هذه السنة أيضا افتتح المسلمون بقيادة جنادة بن أبي أمية جزيرة رودس، وأقام بها طائفة من المسلمين كانوا أشد شبيء على الفرنج، يعترضون لهم في البحر، وكان معاوية يُدر عليهم الأرزاق، فلما كانت إمارة يزيد بن معاوية أقفلهم من تلك الجزيرة، وقد كان للمسلمين بها أموال كثيرة وزراعات غزيرة..⁽²⁾

وفي هذه السنة توفي زياد بن أبي سفيان وكان يُسمى زياد بن أبيه قبل أن يستلحقه معاوية بأبي سفيان.

الباحث: ثم كانت سنة أربع وخمسين من الهجرة..⁽³⁾

(1) البداية والنهاية 11 / وقبره هناك يَسْتَسْقِي به الروم إذا قحطوا وعلى قبره مزارٌ ومسجد 253

(2) البداية والنهاية 11 / 259

(3) البداية والنهاية 11 / 270

الحجاج: شتى في هذه السنة محمد بن مالك بأرض الروم، وغزا الصائفة معن بن يزيد السلمي. وعزل معاوية سعيد بن العاص عن إمرة المدينة، وردَّ إليها مروان بن الحكم، وكتب إليه أن يهدم دار سعيد بن العاص، ويصطفي أمواله التي بأرض الحجاز، فجاء مروان إلى دار سعيد ليهدمها، فقال سعيد: ما كنت لتفعل ذلك. فقال إن أمير المؤمنين كتب إليّ بذلك، ولو كتب إليك في داري لفعلته. فقام سعيد، فأخرج إليه كتاب معاوية إليه حين ولاه المدينة أن يهدم دار مروان ويصطفي أمواله، وذكر أنه لم يزل يجاحف دونه حتى صرف ذلك عنه، فلما رأى مروان الكتب إلى سعيد بذلك، ثناه ذلك عن دار سعيد، وعن أخذ ماله، ولم يزل يُدافع عنه حتى تركه معاوية في داره وأقر عليه ماله.⁽¹⁾

الباحث: هذا وجه آخر من وجوه إدارة معاوية لأمصاره وولاته على هذه الأمصار. فكان النواب لا يستمرون كثيرا في أمصارهم وهم مع ذلك مهددون أن تُصدّر أموالهم وتُهدم بيوتهم، إن بدا للخليفة ما يُريبه منهم!

الحجاج: هذا صحيح. وعزل معاوية في هذه السنة سمرّة بن جندب عن البصرة، ووَلَّى عليها عبد الله بن عمرو بن غيلان. ووَلَّى عبيد الله بن زياد إمرة خراسان وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة، فسار إلى مقاطعته فقطع النهر إلى جبال بخارا، ففتح رامشَ ونصف بيكند وهما من معاملة بخارا ولقي الترك هناك وحاربهم وهزمهم هزيمة فظيعة، وغنموا غنائم كثيرة، وأقام عبيد الله بن زياد بخراسان سنتين.

وحج في هذه السنة بالناس مروان بن الحكم نائب المدينة. وتوفي في هذه السنة أسامة بن زيد، صحابي رسول الله ﷺ وحييه وابن حبيبه. وأمه

بركة أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته. وفيها أيضا توفي حكيم بن حزام بن خويلد⁽¹⁾، عمته أم المؤمنين خديجة عليها رضوان الله.

الباحث: ثم دخلت سنة خمس وخمسين من الهجرة.

الحجاج: في هذه السنة عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن غيلان عن البصرة، وولي عليها عبيد الله بن زياد.

الباحث: هل هذا الأمر مجرد عادة في عزل الولاة كنوع من التغيير أم هناك أسباب أخرى؟

الحجاج: لا شك هناك أسباب لمثل هذا القرار، فهذا التغيير على سبيل المثال كان سببه أن عبد الله بن غيلان كان يخطب الناس، فحصبه رجل من بني ضَبَّة، فأمر بقطع يده، فجاء قومه إليه فقالوا له: إنه متى بلغ أمير المؤمنين أنك قطعت يده في هذا الصنيع، فعل به وبقومه نظير ما فعل بحُجر بن عدي، فاكتب لنا كتابا أنك قطعت يده في شبهه. فكتب لهم، فتركوه عندهم حيناً، ثم جاءوا معاوية، فقالوا له: إن نائبك قطع يد صاحبنا في شبهة فأقدنا منه. فقال لهم معاوية لا سبيل إلى القَوْدِ من نوابي، ولكن الدية. فأعطاهم الدية من بيت المال وعزل ابن غيلان.⁽²⁾

وفي هذه السنة وتوفي الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه أسلم قديما وكان سابع سبعة في الإسلام. وقد تجاوز الثمانين عاما. كما توفي أيضا في

(1) كان حكيم بن حزام بن خويلد، شديد المحبة لرسول الله ﷺ رغم انه ما أسلم إلا يوم الفتح هو وأولاده جميعا، ولما كان بنو هاشم وبنو عبد المطلب في الشعب لا يبايعون ولا يُنَاكِحُونَ، كان حكيم يُقبل بالعرير تقدم من الشام فيشتريها مكانها، ثم يذهب بها، فيضرب أديارها حتى تلج الشعب تحمل الطعام والكسوة؛ تكرمة لرسول الله ﷺ ولعمته خديجة بنت خُوَيْلِد، رضي الله عنها، عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الاسلام ستين سنة. وكان من سادات قريش وكرمائمهم وأعلمهم بالنسب راجع البداية والنهاية 11 / 274

(2) البداية والنهاية 11 / 281

هذه السنة سعد بن أبي وقاص وكان يوم أسلم عمره سبع عشرة سنة وكان من أوائل المسلمين وكان يقول: مكثت سبعة أيام وإني لثلت الإسلام. أحد المبشرين بالجنة. وكان مستجاب الدعوة وهو الذي كَوَّف الكوفة، وأول من رمى بسهم في الإسلام، عليه رحمة الله.

الباحث: ثم دخلت سنة ست وخمسين من الهجرة.

الحجاج: في هذه السنة شتى جُنادة بن أبي أمية بأرض الروم، وغزا فيها في البحر يزيد بن شجرة، وفي البر عياض بن الحارث، وولى معاوية سعيد بن عثمان بلاد خراسان، وعزل عنها عبيد الله بن زياد.⁽¹⁾

الباحث: يقال يا حجاج: إن معاوية أخذ البيعة ليزيد في هذه السنة سنة ست وخمسين؟ الحجاج: فعلا دعا معاوية الناس في هذه السنة إلى البيعة ليزيد ولده، ليكون وليّ عهده من بعده، وكان قد عزم قبل ذلك على هذا في حياة المغيرة بن شعبة⁽²⁾، فهو الذي أشار على يزيد أن يطلب من أبيه معاوية أن يكون وليّ

(1) البداية والنهاية 11 / 305

(2) المرجع السابق 11 / 306 يذكر دخالد محمد الغيث في كتابه مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص 441 وما بعدها عن ابن كثير قوله: «وقد كان معاوية لما صالح الحسن، عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوي أمر يزيد عند معاوية» راجع البداية والنهاية المرجع السابق ص 308. ثم يقول د. خالد: وهذا يردّ التهمة الموجهة إلى المغيرة بن شعبة بأنه صاحب فكرة ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد؛ لأن المغيرة توفي سنة 50 هجرية أي قبل وفاة الحسن رضي الله عنهما. ثم يناقش تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد من خلال الروايات الواردة حيث يذكر خليفة بن خياط في كتابه التاريخ ص 213 والذهبي في تاريخ الاسلام (عهد معاوية) 147 أنه كان سنة 51 هـ. ويذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد 4 / 334 أن ذلك كان سنة 55 هـ. ويذكر الطبري في التاريخ سنة 301 / 5 وابن الجوزي في المنتظم 285 / 5 وابن الأثير في الكامل في التاريخ 3 / 503 وابن كثير في البداية والنهاية 11 / 306 أن ذلك كان سنة 56 هـ. في ضحد خبر أنها كانت سنة 51 هـ أنها السنة التي مات فيها الحسن، فليس من الحكمة إعلانه مباشرة بعد وفات

عهده من بعده، فقال له معاوية من أمرك بهذا قال: المغيرة بن شعبة. فأعجب ذلك معاوية، حتى إنه ردّه الى عمله بالكوفة بعد أن عزله عنها. وبالفعل شرع في نظم البيعة ليزيد وكتب إلى الآفاق بذلك، فبايع له الناس في سائر الأقاليم، إلاّ عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، والحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله ابن عباس.

فركب معاوية الى مكة معتمرا، فلما اجتاز بالمدينة مرجعه من مكة استدعى هؤلاء الخمسة وتهدهم بانفراد لكل منهم فكان من أشدهم عليه وأجلدهم في الكلام معه، عبد الرحمن بن أبي بكر، وكان أليّنهم كلاما عبد الله بن عمر بن الخطاب، ثم خطب الناس وهؤلاء حضور تحت منبره، وبايع الناس ليزيد وهم قعود ولم يوافقوا ولم يُظهروا خلافا، لما تهدهم وتوعدهم، فأتسقت البيعة ليزيد في سائر البلاد ووفدت الوفود من سائر الأقاليم إلى يزيد.⁽¹⁾

الحسن، والقرار يحتاج لوقت للدراسة والاستشارة، ثم قتل حجر بن عدي في السنة نفسها سنة 51هـ، فلم تكن نفوس الناس والحال هكذا مهية لاستقبال مثل هذا القرار من معاوية، حيث يعتبر التوقيت من أهم عوامل نجاحها. ثم إن هذا الاعلان كان في ولاية مروان للحجاز وهي بلا شك الولاية الثانية التي امتدت من سنة 54هـ إلى 57هـ لأن ولايته الأولى كانت قبل وفاة الحسن من سنة 42 إلى سنة 49هـ فالأرجح ان تكون إما سنة 55هـ أو سنة 56هـ والسؤال لماذا تأخر معاوية إلى سنة 55هـ أو 56هـ قبل إعلان قراره رغم أن وفاة الحسن كانت سنة 51هـ والإجابة التي تُرجّح سببا وجيها لهذا التأخير هو وفاة (سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه)، وهو آخر الستة الذين رشحهم عمر رضي الله عنه للخلافة بعده. لذلك فبعد وفاة سعد رضي الله عنه شرع معاوية مباشرة في أخذ البيعة ليزيد فكتب إلى الأمصار في ذلك وكتب بعد ذلك لمروان بن الحكم عامله على المدينة، «أن ادع أهل المدينة إلى بيعة يزيد، فإن أهل الشام والعراق قد بايعوا». راجع العقد الفريد لابن عبد ربه 337 / 339 4.

(1) البداية والنهاية 11 / 307

وقد كان معاوية لما صالح الحسن بن علي عهداً للحسن بالأمر من بعده. فلما مات الحسن، قوي أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهل، وكان يظن أنه لا يقوم أحد من أبناء الصحابة في المُلْك مقامة. ولهذا قال لعبد الله بن عمر فيما خاطبه به: إني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راع. فقال له ابن عمر: إذا بايعة الناس كلهم بايعته، ولو كان عبدا حبشياً مُجَدَّعَ الأطراف، وعندما عاتبه سعيد بن عثمان بن عفان وطلب منه أن يوليّه مكانه فقال له: والله لو ملئت الغوطة رجالاً مثلك لكان يزيد أحب منكم كلكم.

الباحث: ثم دخلت سنة سبع وخمسين من الهجرة.

الحجاج: نعم، وفي هذه السنة، شتّى عبد الله بن قيس بأرض الروم، وفي شهر شوال من هذه السنة عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة، وولّى عليها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان. ⁽¹⁾

الباحث: ثم دخلت سنة ثمان وخمسين هجرية.

الحجاج: نعم، في هذه السنة غزا مالك بن عبد الله الخثعمي أرض الروم، وقالوا شتّى بأرض الروم عمرو بن يزيد الجُهني.

وولى معاوية في هذه السنة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي ابن أخته أم الحكم الكوفة، وعزل عنها الضّحّاك بن قيس، وولى ابن أم الحكم على شرطته زائدة بن قدامة.

وفي هذه السنة كان خروج الخوارج بقيادة حيّان بن ظبيان السّلمي على ابن أم الحكم، فبعث إليهم جيشاً فقتلوا الخوارج جميعاً، ولكن ابن أم

(1) البداية والنهاية 11 / 311

الحكم أساء معاملته أهل الكوفة فأخرجوه منها طريداً، فرجع إلى خاله معاوية، فولاه مصر. فلما سار إليها، تلقاه معاوية بن حديج قبل أن يدخلها وقال له: ارجع إلى خالك معاوية، فلعمري لا تسير فينا سيرتك في إخواننا من أهل الكوفة ثم لحق به وافداً على معاوية، وتهدد ابن أم الحكم إن ولي مصر بالضرب، وكان ذلك أمام أمه في مجلس معاوية، واتهمه بالفسوق بحسب سيرته في أهل الكوفة.⁽¹⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 313، 314 وقيل إن عزل ابن أم الحكم عن الكوفة كان في العام التالي عام تسعة وخمسين. ويقول الرواة: إن معاوية بينما هو جالس على السُّمَّاط إذا شاب من بني عُذْرَةَ قد مثل بين يديه، فأنشده شعراً مضموناً التشوق إلى زوجته سعد، فاستدناه معاوية، واستحكاها عن أمره، فقال: يا أمير المؤمنين، إني كنت مُرَوَّجاً بابتنة عم لي، وكان لي إبل وغنم، فأنفقت ذلك عليها، فلما قل ما يبدي رغب عني أبوها وشكاني إلى عاملك بالكوفة ابن أم الحكم، وبلغه جمالها فحبسني في الحديد، وحملني على أن أطلقها، فلما انقضت عدتها أعطاها عاملك عشرة آلاف درهم، فزوجه إياها، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين، وأنت غياث المحروب، وسند المسلوب، فهل من فرج؟ ثم بكى وأنشأ يقول:

في القلب مني نارٌ	والنَّارُ فيها شرارٌ
والجسم منِّي نحيلٌ	واللون فيه اصفرارٌ
والعين تبكي بشجو	فدمعها مـدـرار
والحـب داءٌ عسيرٌ	فيه الطـبـيب يحارٌ
حملتُ فيه عَظِيماً	فما عليه اصطبارٌ
فليس لي ليـل بليل	ولا نهاري نهـارٌ

فرق له معاوية، وكتب إلى ابن أم الحكم يؤنبه على ذلك ويعيبه عليه، ويأمره بطلاقها قولاً واحداً، فلما جاءه كتاب معاوية تنفس الصعداء، وقال: وددت أن أمير المؤمنين خلَّى بيني وبينها سنة، ثم عرضني على السيف. وجعل يؤامر نفسه على طلاقها، فلا يقدر على ذلك، ولا تُجيبه نفسه، وجعل البريد الذي ورد بالكتاب يستحثه، فطلقها وأخرجها عنه وسيرها مع الوفد إلى معاوية، فلما وقفت بين يديه رأى منظراً جميلاً، فلما استنطقها، فإذا هي أفصح الناس وأحلام كلاماً، وأكملهم جمالاً ودلالاً، فقال لابن عمها: يا أعرابي، هل من سُلوٍ عنها بأفضل الرغبة؟ قال نعم: إذا فرقت بين رأسي وجسدي. ثم أنشأ يقول:

لا تجعلني والأمثال تُضربُ بي
كالمتغيث من الرمضاء بالنار

وجرت في هذه السنة حروب كثيرة بين عبيد الله بن زياد والخوارج، فقتل منهم خلقا كثيرا، وحبس منهم آخرين، وكان صارما كأييه. ⁽¹⁾

وفي هذه السنة توفيت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، أحب أزواج رسول الله إليه والمُبرأة من فوق سبع سماوات. وكانت أعلم نساء النبي ﷺ، وكان عمرها يمتد سبعا وستين سنة، لأن رسول الله ﷺ توفي عنها وعمرها ثمانين سنة، رضي الله عنها. ومات في هذه السنة أيضا أخوها عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.

كانت هذه أهم أحداث سنة ثمان وخمسين هجرية.

الباحث: ثم دخلت سنة تسع وخمسين هجرية.

الحجاج: نعم، وفيها شتى عمرو بن مروة الجُهني في أرض الروم في البر. وقيل غزا في البحر عامئذ جنادة بن أبي أمية.

ارْدُدْ سَعَادَ عَلَى حِرَانَ مَكْتَبَ	يُمَسِي وَيُصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارِ
قَدْ شَفَّهُ قَلْقٌ مَا مِثْلُهُ قَلْقٌ	وَأَسْعَرَ الْقَلْبَ مِنْهُ أَيَّ إِسْعَارِ
وَاللَّهُ وَاللَّهُ لَا أَنْسَى مَحَبَّتَهَا	حَتَّى أُغَيِّبَ فِي رَمْسٍ وَأَحْجَارِ
كَيْفَ السُّلُوْ وَقَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِهَا	وَأَصْبَحَ الْقَلْبَ عَنْهَا غَيْرَ صَبَّارِ

فقال معاوية: نخيرها بيني وبينك وبين ابن أم الحكم. فأنشأت تقول:

هَذَا وَإِنْ أَصْبَحَ فِي أَطْمَارِ	وَكَانَ فِي نَقْصٍ مِنَ الْيَسَارِ
أَكْثَرُ عِنْدِي مِنْ أَبِي وَجَارِي	وَصَاحِبِ الدَّرْهِمِ وَالْدِينَارِ
أَخْشَى إِذَا غَدَرْتُ حَرَّ النَّارِ	

فضحك معاوية، وأمر له بعشرة آلاف درهم ومركب ووطاء. ولما انقضت عدتها، زوجه بها وسلمها

إليه. راجع البداية والنهاية ج 11 ص 315، 316

(1) البداية والنهاية 11 / 316

وفي هذه السنة عزل معاوية ابن أم الحكم عن الكوفة حسب بعض الروايات؛ لسوء سيرته فيهم، وولى عليها النعمان بن بشير.⁽¹⁾ وولى عبد الرحمن بن زياد ولاية خراسان، وعزل عنها سعيد بن عثمان بن عفان، فصار عبيد الله على البصرة، وعبد بن زياد على سجستان، وعبد الرحمن بن زياد على خراسان.

وفي هذه السنة توفي أبوهريرة رضي الله عنه، وهذه أهم أحداث سنة تسع وخمسين.

الباحث: ثم دخلت سنة ستين من الهجرة⁽²⁾

الحجاج: نعم، استمر معاوية يأخذ البيعة ليزيد من الوفود التي تأتيه، واستمرت غزواته وفتوحاته فغزا مدينة سورية ودخلت جيوشه جزيرة رودس. وفي هذه السنة أيضا مرض معاوية رضي الله عنه مرضه الذي توفي فيه في رجب منها، وحين حضرت معاوية الوفاة كان يزيد في الصيد، فاستدعى معاوية الضحاك بن قيس الفهري وكان على شرطة دمشق ومسلم بن عقبة، فأوصى إليهما أن يبلغا يزيد السلام ويقولوا له يتوصى بأهل الحجاز، وإن سأله أهل العراق في كل يوم أن يعزل عنهم عاملا ويولي غيره فليفعل، فعزل واحد أحب إليك من أن يُسَلَّ عليك مائة ألف سيف، وأن يتوصى بأهل الشام خيرا، ويجعلهم أنصاره، وأن يعرف لهم حقهم، ولست أخاف عليه من قريش سوى ثلاثة؛ الحسين، وابن عمر، وابن الزبير، فأما ابن عمر فقد وقذته العبادة، وأما الحسين

(1) البداية والنهاية 11 / 344

(2) البداية والنهاية 11 / 391

فرجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله تعالى بمن قتل أباه وخذل أخاه، وإن له رحم ماسة وحقا عظيما، وقرابة من محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإنني لو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ، فإن شخص لك فالبَدْ له إلا أن يلتمس منك صلحا، فإن فعل فاقبل منه، واصفح عن دماء قومك ما استطعت.⁽¹⁾

وكانت مدة ملك معاوية استقلالا من جمادى سنة إحدى وأربعين حين بايعة الحسن بن علي بأذرح، تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكان نائبا في الشام عشرين سنة. وكان عمره حين وفاته ثلاثا وسبعين سنة.⁽²⁾

الباحث: ماذا حدث ليزيد بعد وفاة أبيه معاوية رضي الله عنه؟

(1) البداية والنهاية 11 / 392.

(2) وقيل أكثر من ذلك. قال معاوية رضي الله عنه: أسلمت يوم القضية، ولكن كتمت إسلامي من أبي. وقال أيضا: ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي، فجنّته فرحب بي، وكتبت بين يديه.

وشهد معاوية رضي الله عنه حُنيّا، وأعطاه رسول الله ﷺ، مائةً من الإبل، وأربعين أوقية من ذهب. وزنها له بلالٌ. وشهد اليمامة. وكان أبوه من سادات قريش في الجاهلية، وتفرّد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسنٌ إسلامه، وكانت له مواقف شريفة، وأثارٌ محمودٌ في يوم اليرموك وما قبله وما بعده.

وصحب معاوية رسول الله ﷺ، وكتب الوحي بين يديه مع الكتاب، وروى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما، وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين... وقالوا عنه: كان حليما وقورا رئيسا سيّدا في الناس، كريما عادلا شهما. ومما ذكره الرواة أنه لما رأى ملك الروم انشغال معاوية بحربه مع علي بن أبي طالب، تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة، وطمع فيه، فكتب إليه معاوية: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيّقن عليك الأرض بما رحبت. فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة. راجع البداية والنهاية 11 / 396، 397، 400

الحجاج: بويع بالخلافة بعد أبيه في رجب سنة ستين، وكان مولده سنة ست وعشرين، فكان يوم بويع ابن أربع وثلاثين سنة، فأقر نواب أبيه على الأقاليم، ولم يعزل أحدًا منهم⁽¹⁾.

الباحث: وماذا فعل يزيد بن معاوية مع المعارضين لبيعته؟

الحجاج: كان ذلك أهم ما يشغله، فكتب إلى نائب المدينة الوليد بن عتبة: بسم الله الرحمن الرحيم، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد، فإن معاوية كان عبدًا من عباد الله، أكرمه الله واستخلفه وخوّله ومكّن له، فعاش بقدر، ومات بأجل، فرحمه الله، فقد عاش محمودًا ومات برًا تقيًا، والسلام. وكتب إليه في صحيفة كأنها أذن الفأرة: أما بعد، فخذ حسينًا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة، حتى يبايعوا، والسلام.

فلما بلغ الوليد نعي معاوية وكتاب يزيد شق عليه الأمر فاستشار مروان في أمرهم فقال له: أرى أن تدعوهم إلى البيعة قبل أن يعلموا بموت معاوية، فإن أبوا ضربت أعناقهم. فارسل من فوره عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان إلى الحسين وابن الزبير وهما بالمسجد فقال لهما: أجبيا الأمير فقالا: انصرف، الآن نأتيه. فلما انصرف عنهما قال الحسين لابن الزبير: إني أرى طاغيتهم قد هلك. قال ابن الزبير: وأنا ما أظن غيره. فلما دخل الحسين على الوليد نعى إليه معاوية فترحم عليه فطلب منه البيعة ليزيد، فقال له إن مثلي لا يبايع سرا، ولكن إذا جمع الناس دعوتنا معهم فكان أمرا واحدا، فرضي الوليد منه ذلك، ولكن مروان حذره من مغبة خروج الحسين من عنده دون مبايعة، ولكن الوليد أثر السلامة. فقال لمروان:

(1) البداية والنهاية 11 / 466

والله يا مروان ماأحب أن لي الدنيا وما فيها وأني قتلت الحسين، أقتل الحسين أن قال لا أباع؟!

وبعث الوليد الى ابن الزبير فمأطله وخرج هو وأخوه إلى مكة سرا ولم تقدر فرسان الوليد على رده، ومع تشاغل الوليد بابن الزبير خرج الحسين وأهله لم يتخلف عنه أحد سوى ابن الحنفية، لليلتين بقيتا من رجب من هذه السنة بعد خروج ابن الزبير بليلة، وكان مقصده مكة. فاجتمع هو وابن الزبير بها.

وبعث الوليد إلى عبد الله بن عمر يطلب منه البيعة ليزيد، فقال: إذا بايع الناس بايعت، فتركه ولم يكن يتخوف منه. فلما جاءت البيعة من الأمصار بايع ابن عمر وابن عباس وكانا قد قدما إلى المدينة.⁽¹⁾ وصادف خروجهما من مكة إلى المدينة قدوم عبد الله بن الزبير والحسين بن علي إلي مكة عائدين بها. فقال لهما عبد الله بن عمر: اتقيا الله، ولا تُفَرِّقا جماعة المسلمين.⁽²⁾

الباحث: ماذا فعل يزيد بن معاوية عندما علم بخروج الحسين وابن الزبير إلى مكة رغم أنف الوليد بن عتبة؟

الحجاج: عزله عن إمرة المدينة؛ لتفريطه، وأضافها إلى عمرو بن سعيد بن العاص نائب مكة فقدم المدينة في رمضان، وكان مفوها متكبرا، وسلط عمرو بن الزبير وكان عدوا لأخيه عبد الله على حربه وجرد له. وجعل عمرو بن سعيد يبعث البعوث إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير.⁽³⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 469

(2) البداية والنهاية 11 / 469

(3) البداية والنهاية 11 / 470

الباحث: ورد في الصحيحين أن أبا شريح الخزاعي قال لعمر بن سعيد، وهو يبعث البعوث إلى مكة: إئذن لي أيها الأمير أن أحدثك حديثاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيني حين تكلم به؛ أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرّمها الله ولم يُحرّمها الناس وإنه لم يحلّ القتال فيها لأحدٍ كان قبلي، ولم يحلّ لأحدٍ بعدي، ولم تحل لي إلا ساعةً من نهارٍ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب»⁽¹⁾.

وهاهو عمرو بن سعيد يُجيش الجيوش بعثاً بعد بعث لحرب مكة!

الحجاج: هل تعلم ماذا كان ردُّ عمرو بن سعيد على أبي شريح الخزاعي؟

الباحث: ماذا كان ردُّه؟

الحجاج: كان ردُّه على أبي شريح: نحن أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يُعيذُ عاصياً ولا فارّاً بدمٍ، ولا فارّاً بخربةٍ.⁽²⁾

الباحث: ولكن أبا شريح يتحث عن الحرب وتجييش الجيوش على مكة، وعمرو بن سعيد يتكلم عن القصاص.!!؟ هذه مغالطة!

الحجاج: هكذا كان تبريره للحرب. لقد استعان عمرو بن سعيد بعمر بن الزبير فولاه شرطة المدينة، فتتبع أصحاب أخيه ومن يهوى هواه، فضربهم

(1) وفي رواية «فإن أحدٌ ترخّص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا: إن الله أذن لرسوله، ولم يأذن لكم».

فتح الباري (1 / 198، 1 / 199) والبخاري (4295، 1832، 104) ومسلم (1354)

(2) الخربة: السرقة، والخربة: بالضم الفساد. وقيل إن عمرو بن سعيد قد تشدّق في رده هذا، وأتى بكلام ظاهره حق، ولكن أراد به الباطل؛ فإن الصحابي أنكر عليه نصب الحرب على مكة، فأجابه بأنها لا تمنع من إقامة القصاص، وهو صحيح إلا أن ابن الزبير لم يرتكب أمراً يجب عليه فيه شيءٌ من ذلك. راجع البداية والنهاية 11 / 371 والحاشية.

ضرباً شديداً، حتى ضرب من جملة من ضربهم أخاه المنذر بن الزبير وجماعةً من الأعيان.

الباحث: وهل كان يزيد بن معاوية على علم بما يحدث؟

الحجاج: بكل تأكيد، بل إنه بعث إلى عمرو بن سعيد وشدّد عليه في طلب بن الزبير، وأنه لا يقبل منه وإن بايع، حتى يؤتى به في القيود، حينئذ صمم عمرو على تجهيز سريةٍ إلى مكة بسبب ابن الزبير، وتقدم عمرو بن الزبير ليكون على رأس هذه الحملة، قائلاً لعمرو بن سعيد: إنك لن تبعث إليه من هو أنكى له مني، فجعل على مقدمته أنيس بن عمرو السلمي في سبعمئة مقاتل.⁽¹⁾ فعسكر أنيس بن عمرو في الجرف، وأشار مروان بن الحكم على عمرو بن سعيد أن لا يغزو مكة، وأن يترك ابن الزبير بها، فإنه عما قليل إن لم يُقتل يمت، فقال أخوه عمرو بن الزبير: والله لنغزونه ولو في جوف الكعبة، على رغم أنف من رغم، فقال مروان والله إن ذلك ليسوءني.

سار أنيس واتبعه عمرو بن الزبير في بقية الجيش، وكانوا ألفين، حتى نزل بالبطح ونزل أنيس بذي طوى. الغريب في الأمر أن عمرو بن الزبير إذا حضرت الصلاة، كان يُصلي بالناس، ويُصلي وراءه أخوه عبد الله،

الباحث: ألم يكن بينهم مفاوضات حينئذ؟

الحجاج: نعم، أرسل عمرو إلى أخيه يقول له: برّ يمين الخليفة، وآتِه وفي عنقك جماعة من ذهب أو فضّة، ولا تدع الناس يضرب بعضهم بعضاً، واتفق الله فإنك في بلد حرام. فأرسل عبد الله يقول لأخيه: موعدك المسجد.

وبعث عبد الله بن الزبير عبد الله بن صفوان بن أمية في سرية، فاقتتلوا مع أنيس بن عمرو الأسلمي، فهزموا أنيساً هزيمةً قبيحة، وتفرق عن عمرو بن الزبير أصحابه، وهرب عمرو إلى دار ابن علقمة، فأجاره أخوه عبدة بن الزبير، فلامه أخوه عبد الله بن الزبير، وقال: تُجير من في عنقه حقوق الناس! ثم ضرب عبد الله بن الزبير أخاه عمرو قوداً بكل من ضربه بالمدينة إلا المنذر بن الزبير وابنه، وكان عمرو بن الزبير قد ضرب من قبل كل من تحيَّز لعبد الله بن الزبير حتى من إخوته. ثم سجنه في سجن عارم.. وقالوا بل مات تحت السياط بتأثير الجلد.⁽¹⁾

الباحث: عد بنا يا حجاج إلى الحسين رضي الله عنه.. وكنا نتحدث عن خروجه إلى العراق..

الحجاج: نعم، فقد كثر ورود الكتب من بلاد العراق يدعونه إليهم، وذلك حين بلغهم موت معاوية وولاية يزيد، ومصير الحسين إلى مكة فرارا من بيعة يزيد، فكان أول من قدم عليه عبد الله بن سبع الهمداني وعبد الله بن والٍ معهما كتاب فيه التهئة بموت معاوية، وذلك لعشر مضي من رمضان من هذه السنة ثم بعثوا بعدهما نفراً؛ منهم قيس بن مسهر الصيدائي، وابن الكواء والسلولي ومعهم نحو من مائة وخمسين كتاباً إلى الحسين، وتبع ذلك كتبٌ فيها استعجاله في السير إليهم، وكتب إليه شُبْتُ بن ربيعي وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث بن رويم وغيرهم، أما بعد: فقد اخضر الجنب وأينعت الثمار وطمت الجِمام، فإن شئت فأقدم على جنْدٍ لك مجنَّدٍ، والسلام عليكم. فاجتمعت الرسل كلها بكتبها عند الحسين

يستحثونه على القدوم إليهم ليبيعوه عوضاً عن يزيد بن معاوية، وذكروا أنهم لم يبيعوا أحداً إلى الآن، وأنهم ينتظرون قدومه ليقدموه عليهم.

الباحث: إذاً فقد كانت ثقة الحسين عظيمة في هذه الكتب وهؤلاء الرسل..؟

الحجاج: نعم ولكنه مع ذلك أراد أن يتثبت قبل القدوم إليهم، أنهم على موقفهم من هذه الدعوة وهذا الإلحاح؛ فأرسل إليهم مسلم بن عقيل بن أبي طالب، ابن عمه ليكتشف له حقيقة الأمر وهذا الاتفاق. وكتب معه كتاباً إلى أهل العراق بذلك، فلما وصل مسلم العراق دخل الكوفة فنزل في دار المختار بن أبي عبيد الله الثقفي، فتسامع أهل الكوفة بقدومه، فجاءوا إليه فبايعوا على إمرة الحسين وحلفوا لينصروا بأنفسهم وأموالهم، فاجتمع على بيعته من أهلها اثنا عشر ألفاً، ثم تكاثروا حتى بلغوا ثمانية عشر ألفاً. فكتب مسلم إلى الحسين ليقدم عليهم فقد تمهدت له البيعة والأمور، لذلك تجهز الحسين من مكة قاصداً الكوفة.

الباحث: وكيف تعامل النعمان بن بشير أمير الكوفة من قبل يزيد في هذا الموقف..؟ لا شك علم به، وبهذه الآلاف التي تجمعت لبيعة الحسين!

الحجاج: بالفعل بلغ الخبر النعمان بن بشير أمير الكوفة، فجعل يضرب عن ذلك صفحاً ولا يعبأ به، ولكنه خطب الناس، ونهاهم عن الاختلاف والفتنة، وأمرهم بالائتلاف والسنة، وقال: إني لا أقاتل من لا يقاتلني، ولا أثب على من لا يثب عليّ، ولا آخذ بالظنّة، ولكن والله الذي لا إله إلا هو لئن فارقتم إمامكم ونكثتم بيعته، لأقاتلنكم ما دام في يدي من سيفي قائمته. فقام عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي. فقال له: إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالغشم، وإن الذي سلكته أيها الأمير مسلك المستضعفين.

فقال له النعمان: لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله، أحب إلي من أن أكون من الأعززين في معصية الله. ثم نزل ⁽¹⁾

فكتب ذلك الحضرمي إلى يزيد يُعلمه بذلك، كذلك كتب إلى يزيد عمارة بن عقبة وعمر بن سعد بن أبي وقاص، فبعث يزيد، فعزل النعمان عن الكوفة، وضمها إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة. وكتب إليه: إذا قدمت الكوفة فتطلب مسلم بن عقيل، فإن قدرت عليه فاقتله أو انفه، وبعث الكتاب مع مسلم بن عمرو الباهلي، فلما استقرت لعبيد الله بن زياد الأحوال بعث يستكشف أمر مسلم بن عقيل وفي أي الدور يستقر ويأخذ البيعة للحسين ومن يتولى قبض الأموال والتجهيز وشراء السلاح، وكان مسلم يتنقل بين أكثر من دار. وجرت محاولة لقتل عبيد الله بن زياد من جانب أنصار الحسين، ولكنها لم تتم، وتمكن من الهرب وإفشال الخطة. وقد دفعت هذه الأحداث مسلم بن عقيل أن ينادي في أنصاره فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة وكان معهم المختار بن أبي عبيد، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، فرتبهم مسلم ميمنة وميسرة، وسار هو في القلب إلى عبيد الله وهو يخطب الناس فيأمر الذين كادوا لقتله، ويحذرهم من الاختلاف، فلم علم بقدوم مسلم بن عقيل ومن معه بادر إلى الدخول إلى القصر ومن معه وأغلقوا عليهم الباب، فلما انتهى مسلم بن عقيل إلى باب القصر ووقف بجيشه هناك.

فأشرف أمراء القبائل الذين عند عبيد في القصر، فأشاروا إلى قومهم الذين مع مسلم بالانصراف، وتهذؤهم وتوعدهم، وأخرج عبيد الله بعض الأمراء، وأمرهم أن يركبوا في الكوفة يُخذّلون الناس عن مسلم بن عقيل،

(1) البداية والنهاية 480 / 11

ففعّلوا ذلك، فتخاذل الناس وتصرموا وانصرفوا عن مسلم بن عقيل، فما أمسى إلا وهو في خمسمائة نفس، ثم بقي في ثلاثمائة، ثم لم يبق إلا ثلاثون رجلاً، فصلّى بهم المغرب، وقصد أبواب كنده، فخرج منها في عشرة، ثم انصرفوا عنه، فبقى وحده، ليس معه من يدلّه على الطريق، ولا من يواسيه بنفسه، ولا من يأويه إلى منزله، فذهب على وجهه في الظلام.

فأتى باباً فنزل عنده وطرقه، فخرجت منه امرأة يقال لها طوعة فقال لها مسلم: اسقني ماءً. فسقته، ثم دخلت وخرجت فوجدته، فقالت ألم تشرب؟ قال: بلى. قالت: فاذهب إلى أهلك. فسكت حتى قالت ذلك ثلاثاً وهو ساكت، فقالت سبحان الله يا عبد الله! قُم إلى أهلك، فقال يا أمة الله ليس لي في هذا البلد منزل ولا عشيرة فهل لك إلى أجر ومعروف وفعل نكافئك به بعد اليوم.

فقالت: يا عبد الله، وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل، كذّبتني هؤلاء القوم وغرّني. فقالت أنت مسلم؟ قال: نعم. قالت: ادخل. فدخلته بيتاً من دارها غير البيت الذي تكون فيه، وفرشت له وعرضت عليه العشاء فلم يتعشَّ، فلما حضر ابنها بلال بن أسيد، علم بحقيقة الضيف، فألحت عليه أمه وأخذت عليه ألا يحدث أحداً، فاضطجع وسكت إلى الصباح.

الباحث: وأين عبيد الله بن زياد من هذا كله؟

الحجاج: نزل عبيد الله بن زياد من القصر، هو ومن معه من الأمراء والأشراف، بعد عشاء الآخرة، فصلّى بهم في المسجد الجامع، ثم خطبهم وطلب منهم مسلم بن عقيل، وحث على طلبه، وحذّر من يأويه بل أهدر دم من يأويه ولم يُعلم به. ومن جاء به فله دية، وطلب من شرطته البحث عنه.

وفي الصباح أخبر بلال بن أسيد عن مكان مسلم بن عقيل ربما خشية من توعده ابن زياد، فأرسل ابن زياد عمرو بن حريث المخزومي وكان صاحب شرطته ومعه عبد الرحمن ومحمد بن الأشعث في سبعين أو ثمانين فارساً، فلم يشعر مسلم إلا وقد أحيط بالدار التي هو فيها، فقام إليهم بالسيف، ثم جعلوا يرمونه بالحجارة، ويلهبون النار في اطنان القصب ويلقونها عليه.

فخرج إليهم بالسيف يقاتلهم، فأعطاه عبد الرحمن الأمان، فأمكنه من يده، وجاءوا ببغلة، فأركبوه عليها، وسلبوا منه سيفه، فلم يبق يملك من نفسه شيئاً، فبكى عند ذلك، وعرف أنه مقتول، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال أحدهم: كيف تبكي وأنت تطلب ما تطلب من هذا الأمر، فقال: لست أبكي على نفسي، ولكن أبكي على الحسين وآل الحسين، إنه قد خرج إليكم اليوم أو غداً من مكة.

ثم التفت إلى محمد بن الأشعث فقال: إن استطعت أن تبعث إلى الحسين على لساني تأمره بالرجوع فافعل. فبعث محمد بن الأشعث إلى الحسين يأمره بالرجوع، فلم يصدق الرسول في ذلك، وقال: كلُّ ما حُمِّ وأقَع.

الباحث: ماذا فعل عبيد الله بن زياد في مسلم بن عقيل؟

الحجاج: أدخل مسلمٌ على ابن زياد، فلما أوقف بين يديه لم يسلم عليه، فقال له الحرسى: ألا تسلم على الأمير؟! فقال: لا، إن كان يريد قتلى فلا حاجة لي بالسلام عليه، وإن لم يرد قتلى فسأسلم عليه كثيراً. فأقبل ابن زياد عليه فقال: إيه يابن عقيل، أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة؛ لتشتتهم، وتفرق كلمتهم، وتحمل بعضهم على بعض؟! قال: كلا لست لذلك أتيت، ولكن أهل المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم، وسفك

دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنامر بالعدل
وندعوا إلى حكم الكتاب.

ثم جرت مناقشات حادة واحتداد بينهما حتى إن ابن زياد قال له: إني
قاتلك. قال: كذلك؟ قال: نعم قال: فدعني أوصي إلى بعض قومي. قال:
أوص. فنظر في جلسائه وفيهم عمرو بن سعيد بن أبي وقاص. فقال: يا
عمر، إن بيني وبينك قرابة ولي إليك حاجة وهو سر. فأبي أن يقوم حتى
أذن له ابن زياد، فقام فتنحى قريبا من ابن زياد، فقال له مسلم: إن علي
دين في الكوفة؛ سبعمائة درهم فاقضها عني: واستوهب جثتي من ابن
زياد فوارها، وابعث إلى الحسين، فإني قد كتبت إليه أعلمه أن الناس
معه، ولا أراه إلا مقبلا، فقام عمر فعرض على ابن زياد ما قال له، فأجاز
له ذلك كله، وقال: وأما الحسين فإن لم يردنا لا نردّه، وإن ارادنا لم نكف
عنه. ثم أمر ابن زياد بمسلم بن عقيل فأصعد أعلى القصر، وهو يكبر
ويستغفر ويصلي على ملائكة الله، ويقول: اللهم احكم بيننا وبين قوم
غرّنا وخذلونا، ثم ضربت عنقه ثم ألقي رأسه إلى أسفل القصر، وأتبع
رأسه بجسده.⁽¹⁾ ثم بعث برأس مسلم إلى يزيد بن معاوية في الشام،
وكتب له كتابا بصورة ما وقع من أمره.

الباحث: غريب أن يزيد يُعطي الخيار لعبيد الله بن زياد عندما قال له في رسالته: اقتله
أو انفه! ثم يقتله ابن زياد، وهو يملك أن ينفه؟ هل تراه كان مضطراً لقتله؟؟!

الحجاج: في مثل هذه الصراعات الكبرى، يكون من الضروري إظهار القسوة
وعدم التردد، حتى تكون الرسالة واضحة لمن وراءه، أنه لا هوادة ولا

(1) البداية والنهاية 11 / 490

لين! وهو يعلم يقيناً أن هذه الرسالة ستصل حتماً للحسين، وابن زياد لم يكن فيما أظن يريد مواجهة الحسين في حرب، وأراد فقط إرهابه حتى لا يُقبل على منطقة ولايته ونفوذه.⁽¹⁾

الباحث: ولكن حدث العكس فقد صمم الحسين على الذهاب إلى العراق. وحدث ما حدث؟!!

الحجاج: الحسين كان حالةً خاصة، وكانت ثقته بمن راسله من أهل العراق ومن عاهده منهم لا حدود لها، وكان لا يتصور أن يكون على رأس الخلافة قهراً من هو مثل يزيد بن معاوية، خاصة وأن معاوية كان قد تعهد للحسن بأن له الخلافة من بعده، ولكنه قلب لمعارضيه ظهر المِجَنِّ، بعد وفاة الحسن وطلب البيعة لابنه يزيد رغماً عن أنف الجميع!!

الباحث: ولكن كم استغرقت هذه الفترة من الوقت حتى وصول الحسين العراق؟

الحجاج: اتفق خروج الحسين من مكة يوم التروية قبل مقتل مسلم بن عقيل بيوم واحد، لأن مسلم بن عقيل قُتِلَ يومَ عرفة، ولما استشعر الناس عزم الحسين على الخروج من مكة إلى العراق، أشفقوا عليه من ذلك، وحذروه منه وأشار عليه ذوو الرأي منهم والمحبون له بعدم الخروج إلى العراق، ورجوه المقام بمكة وذكرّوه ما جرى لأبيه وأخيه معهم، حتى إن ابن عباس قال له عندما علم بعزمه الخروج: لولا أن يزري بي وبك لشبثتُ يدي في رأسك يقصد ليمنعه من الخروج فكان رد الحسين: لأن أُقتل في مكان كذا وكذا، أحب إلي من أن أُقتل بمكة. فُتُسَبِّحَ بي.

(1) ليس هذا كلام الحجاج على التحقيق إنما هو استنتاجات للباحث بحسب الموقف تقبل المناقشة.

الباحث: مختصر القول: إنه لما تواترت الكتب إلى الحسين من جهة أهل العراق وتكررت الرسل بينهم وبينه، وجاء كتاب مسلم بن عقيل بالقدوم عليه بأهله، ثم ما وقع بعد ذلك من مقتل مسلم بن عقيل، والحسين لا يعلم، حتى بعدما علم لم يصدّق، بل قد عزم على المسير إليهم والقدوم عليهم، في موقف يثير الدهشة رغم نصيح الناصحين، وإشفاق المقربين ولم يتراجع عن موقفه قيد أنملة حتى بلغ منتهاه!! ماذا كان موقف عبد الله بن الزبير من ذلك؟

الحجاج: دخل ابن الزبير على الحسين قبل خروجه إلى العراق، فقال له: ما أدري ما تركنا لهؤلاء القوم، ونحن أبناء المهاجرين، وولاة هذا الأمر دونهم، أخبرني ما تريد أن تصنع. فقال الحسين: والله لقد حدثت نفسي بإتيان الكوفة، ولقد كتب إلي شيعتي بها وأشراف أهلها، وأستخير الله. فقال ابن الزبير: أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها. ⁽¹⁾ وذكر بشر بن غالب قال: قال ابن الزبير للحسين: أين تذهب؟! إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟ فقال: لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إليّ من أن تُستحلّ بي. يعني مكة. ⁽²⁾

الباحث: كيف لم يستطع عبد الله بن عباس أن يمنعه والوجهة غير مأمونة؟
الحجاج: لقد حاول معه بن عباس بكل السبل فلم يستطع حتى إنه قال له: يابن عمّ إنني أتصبر ولا أصبر، إنني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك، إن أهل العراق قومٌ غدرٌ فلا تغترّن بهم، أقم في هذا البلد حتى ينفي أهل العراق عدوّهم، ثم أقدم عليهم، وإلا فسرّ إلى اليمن فإن به حصوناً وشعاباً،

(1) البداية والنهاية 11 / 495

(2) البداية والنهاية 11 / 498 وانظر ابن عساكر في تاريخ دمشق 14 / 203

ولأبيك به شيعةٌ، وكن عن الناس في معزلٍ، واكتب إليهم، وبثَّ دعائك فيهم، فإنني أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب. فقال الحسين: يابن عمّ، والله إنني لأعلم أنك ناصحٌ شفيقٌ، ولكنني قد أزمعت المسير. فقال له: فإن كنت ولا بد سائرًا فلا تسر بنسائك وصبيتك: فوالله إنني لخائفٌ أن تُقتَلَ كما قُتِل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه. ثم قال ابن عباس: أقررت عين بن الزبير بتخليتك إياه بالحجاز، والله الذي لا إله إلا هو، لو أعلم أنك إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناس أطمعني وأقمت، لفعلت ذلك. فلما خرج من عنده لقي بن الزبير فقال: قرّرت عينك يا بن الزبير. ثم قال:

يالك من قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَالَكَ الْجَوْ فِضِي وَاصْفَرِي
وَنَقَّرِي مَا شِئْتَ أَنْ تُنَقَّرِي^(١)

وذكروا كذلك حوارًا آخر بين عبد الله بن الزبير وبين الحسين يقول له ابن الزبير: إن شئت أن تُقيمَ أقمتَ فوَلَّيتَ هذا الأمرَ، فأزرنك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك. فقال الحسين: إن أبي حدثني أن لها كبشًا يَسْتَحِلُّ حُرْمَتَهَا، فما أَحَبُّ أن أكون أنا ذلك الكبش. فقال له ابن الزبير: فأقم إن شئت وولّني أنا الأمرَ فَتُطَاعَ وَلَا تُعْصَى. فقال: وما أريد هذا أيضًا.^(٢)

الباحث: هل علم عبد الله بن عمر بخروج الحسين إلى العراق؟

الحجاج: ذكر الشعبي وهو يحدث عن ابن عمر، أنه كان بماء له، فبلغه أن الحسين بن علي قد توجّه إلى العراق، فلحقه على مسيرة ثلاث ليالٍ، فقال له: أين تريد؟ فقال له: العراق وإذا معه طواميرٌ وكتبٌ. فقال: هذه كتبهم

(١) البداية والنهاية 11 / 496

(٢) البداية والنهاية 509 / 11 وانظر تاريخ الطبري 5 / 384

وبيعتهم. فقال لا تأتيهم. فأبى. فقال عبد الله بن عمر: إني محدثك حديثاً؛ إن جبريل أتى النبي ﷺ فخيرته بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة، ولم يرد الدنيا، وإنكم بضعة من رسول الله ﷺ، والله لا يليها أحد منكم أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم. فأبى أن يرجع. فاعتنقه بن عمر، وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل. وكذلك ذكروا عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: عَجَّلَ حُسَيْنٌ قَدْرَهُ، عَجَّلَ حُسَيْنٌ قَدْرَهُ، والله لو أدركته ما كان ليخرج إلا أن يغلبني.⁽¹⁾

الباحث: قالوا أيضاً إن أبا سعيد الخدري حذره من مغبة الخروج إلى الكوفة. الحجاج: بلغنا هذا وقيل إن أبا سعيد الخدري قال للإمام الحسين: يا أبا عبد الله، إني لكم ناصح، وإني عليكم مُشْفِقٌ، وقد بلغني أنه كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك إلى الخروج إليهم، فلا تخرج، فإني سمعت أباك يقول بالكوفة: والله لقد مللتهم وأبغضتهم، وملوني وأبغضوني، وما بلوت منهم وفاءً، ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخب، والله ما لهم ثبات ولا عزمٌ على أمرٍ، ولا صبرٌ على السيف.

وقالوا: إن المسيب بن نجية الفزاري جاء في عِدَّةٍ معه إلى الحسين بعد وفاة الحسن، فدعوه إلى خلع معاوية وقالوا: قد علمنا رأيك ورأي أخيك. فقال: إني لأرجو أن يعطي الله أخي على نيته في حُبِّه الكفِّ، وأن يعطيني على نيتي في حبي جهاد الظالمين.

الباحث: إذاً فهذه المقولة تلخص هدف خروج الحسين رضي الله عنه إلى العراق عندما قال: (وأن يعطيني على نيتي في حبي جهاد الظالمين).⁽²⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 497

(2) البداية والنهاية 11 / 500 وانظر تهذيب الكمال 27 / 589 وسير أعلام النبلاء 3 / 294

الحجاج: هي كذلك. وكان مروان قد كتب إلى معاوية: إني لست آمن أن يكون حسينٌ مَرَصِدًا للفتنة، وأظنُّ يومكم من حُسينٍ طويلاً. فكتب معاوية إلى الحسين: إن من أعطى الله صفقةً يمينه وعهده لجديرٍ بالوفاء، وقد أنبئتُ أن قومًا من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق، وأهل العراق من قد جرَّبَتْ؛ وقد أفسدوا على أبيك وأخيك، فاتَّقِ الله واذكر الميثاق، فإنك متى تكِدْنِي أكِدْكَ. فكتب إليه الحسين: أتاني كتابك وأنا بغير الذي بلغك عني جديرٌ، والحسناتُ لا يهدي لها إلا الله، وما أردتُ لك محاربةً ولا عليك خلافاً، وما أظنُّ لي عند الله عذراً في تركِ جهادِكَ، وما أعلم فتنةً أعظم من ولايتِكَ أمر هذه الأمة. فقال معاوية لمن حوله: إن أثرنا بأبي عبد الله إلا أسداً.⁽¹⁾ وفي بعض ما كتب معاوية للحسين قال: إني لأظن أن في رأسك نزوة، فوددتُ أني أدركُها فأغفرها لك.⁽²⁾

الباحث: من الواضح أن معاوية كان يعرف قدر الحسين جيداً وإلا ما سعى كل هذا السعيَ لاستمالاته وإرضائه، إلا أن ذلك ذهب أدراج الرياح.

الحجاج: نعم كان معاوية يدرك أن الحسين، أقوى معارضيه فيما هو عازمٌ عليه من تولية يزيد بعده وأخذ البيعة له من بعده. فلما حُضر معاوية دعا يزيد فأوصاه بما أوصاه به، وقال له: انظر حسين بن علي، ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فإنه أحبُّ الناس إلى الناس، فصلِّ رحمته، وارفق به، يصلح لك أمره، فإن يكن منه شيءٌ فإني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه.

الباحث: قالوا تُوفِّي معاوية ليلة النصف من رجب سنة ستين.

(1) البداية والنهاية 500 / 11

(2) البداية والنهاية 501 / 11

الحجاج: نعم وبإيع الناس يزيد كما ذكرت لك، وكتب يزيد إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهو على المدينة؛ أن ادعُ الناس فبايعهم، وابدأ بوجه قريش، وليكن أول من تبدأ به الحسين بن عليٍّ، فإن أمير المؤمنين عهد إليَّ في أمره الرفق به واستصلاحه. فبعث الوليد من ساعته نصف الليل إلى الحسين بن عليٍّ وعبد الله بن الزبير، فأخبرهما بوفاة معاوية، ودعاهما إلى البيعة ليزيد، فقالا: نصبحُ وننظر ما يصنعُ الناسُ. ووثب الحسين، فخرج وخرج معه الزبير وهو يقول: هو يزيد الذي نعرف، والله ما حدث له حزمٌ ولا مروءة. وقد كان الوليد أغلظ للحسين، فشتمه الحسين، وأخذ بعمامته، ونزعها من رأسه فقال الوليد: إن هجنا بأبي عبد الله إلا أسدًا. فقال له بعضُ جلسائه: اقتله. فقال: إن ذلك لدمٌ مضمونٌ به في بني عبد منافٍ. وخرج الحسين وابن الزبير من ليلتهما إلى مكة. وأصبح الناس فغدوا على البيعة ليزيد، أما الحسين عندما بلغ مكة نزل بدار العباس ولزم ابنُ الزبير الحجر، ولبسَ المعافريَّ، وجعل يحرضُ الناس على بني أمية، ثم توالى الأحداث بعد ذلك كما ذكرت لك.

الباحث: ولكن ما فلسفة الحسين في حربه يزيدَ وقد سبقه أخوه الحسنُ وسلَّم الأمرَ لمعاوية؟!

الحجاج: لعل في ردِّ الحسينِ على كتاب عمرو بن سعيد بن العاص نائب الحرمين ما يُفسِّر فلسفة الحسين في حربه يزيد بن معاوية. كتب عمرو بن سعيد بن العاص إلى الحسين يقول له: إني أسألك الله أن يُلهمَكَ رُشدَكَ، وأن يَصرفَكَ عما يُريدُكَ، بَلْغَنِي أَنْكَ قد عَزَمْتَ على الشُّخُوصِ إلى العراق، وإني أُعِيدُكَ بالله من الشَّقَاقِ، فإن كنتَ خائفًا فأقبل إليَّ، فلك عندي الأمانُ والبرُّ

وَالصَّلَاةُ. فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْحُسَيْنُ: فَإِنْ كُنْتَ أَرَدْتَ بَكْتَابِكَ بِرِّي وَصِلْتَنِي فَجَزَيْتَ خَيْرًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يُشَاقِقْ مِنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمَلِ صَالِحًا، وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَخَيْرُ الْأَمَانِ أَمَانُ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ مَنْ لَمْ يَخَفْهُ فِي الدُّنْيَا، فَتَسَأَلُ اللَّهَ مَخَافَةً فِي الدُّنْيَا تُوجِبُ لَنَا أَمَانُ الْآخِرَةِ عِنْدَهُ. ⁽¹⁾

لَمْ يَبْأَسْ يَزِيدُ مِنْ تَكَرُّارِ مُحَاوَلَاتِهِ إِثْنَاءَ الْحُسَيْنِ عَنْ مَقْصِدِهِ، فَبَعَثَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ لَهُ: أَحْسَبُهُ أَيُّ الْحُسَيْنِ قَدْ جَاءَهُ رَجُلًا مِنْ هَذَا الْمَشْرِقِ فَمَنُوهُ الْخِلَافَةَ، وَعِنْدَكَ مِنْهُمْ خُبْرَةٌ وَتَجَرِبَةٌ، فَإِنْ كَانَ فَعَلَ فَقَدْ قَطَعَ وَاشْجَعَ الْقَرَابَةَ، وَأَنْتَ كَبِيرُ أَهْلِ بَيْتِكَ وَالْمَنْظُورُ إِلَيْهِ، فَكَفَفَهُ عَنِ السَّعْيِ فِي الْفُرْقَةِ.

وَكُتِبَ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ إِلَيْهِ وَإِلَى مَنْ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ مِنْ قَرِيشٍ:

يا أيها الراكبُ الغادي لطِيَّتِهِ	على عُذافِرَةٍ فِي سِيرِهَا قَحْمٌ
أبلغ قريشًا على نأْيِ المزار بها	بيني وبينَ حُسينِ اللهِ والرَّحِمِ
وموقفٌ بفناء البيتِ أنشده	عهدَ الإلهِ وما تُوفِّي به الذَّمُّ
عَنَيْتُمْ قَوْمَكُمْ فخرًا بأممكم	أَمْ لَعَمْرِي حَصَانٌ بَرَّةٌ كَرُمُ
هي التي لا يُداني فضلُها أحدٌ	بنتُ الرسولِ وخيرُ الناسِ قد عَلِمُوا
وفضلُها لكم فضلٌ وغيرُكم	من قَوْمِكُمْ هُمْ فِي فَضْلِهَا قِسْمُ
إني لأعلم أو ظنًا كعالمه	والظنُّ يَصْدُقُ أحيانًا فَيَنْتَظِمُ
أن سوف يترككم ما تدعون بها	قتلى تهاداكم العقبانُ والرَّحْمُ
يا قومنا لا تُشَبُّوا الحربَ إذ سكنت	وأمسكوا بحبالِ السَّلَمِ واعتصموا
قد غرَّت الحربُ من قد كان قبلكم	من القُرُونِ وقد بادت بها الأممُ
فأنصفوا قَوْمَكُمْ لا تهلكوا بدخًا	فَرُبَّ ذِي بَذَخٍ زَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ

فكتب إليه بن عباس: إني لأرجو أن لا يكون خروجُ الحسين لأمرٍ تكرهه،
ولست أدعُ النصيحةَ له في كل ما يجمعُ الله به الألفةَ وتُطْفَى به النائرةُ..⁽¹⁾
ثم كان خروج الحسين إلى العراق كما تعلم.. ومعه أهل بيته وستون
شيخاً من أهل الكوفة، وذلك يوم الاثنين في عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ سنة ستين.

الباحث: لا شك أن عبيد الله بن زياد أمير الكوفة كان في موقف لا يُحسد عليه!

الحجاج: بكل تأكيد.. تواترت عليه الكتب من كل حذب وصوب تحذرة وتنبهه..
فهذا مروان يكتب إليه يقول: أما بعد، فإن الحسين بن عليٍّ قد توجَّه
إليك، وهو الحسين بن فاطمة، وفاطمة بنتُ رسول الله ﷺ، وبالله ما
أَحَدٌ يُسَلِّمُهُ اللَّهُ أَحَبَّ إلينا من الحسين، فإياك أن تُهَيِّجَ على نفسك ما لا
يسدُّه شيءٌ، ولا تنساهُ العامةُ ولا تدعُ ذكره، والسلام.

الباحث: ولكن عمرو بن سعيد بن العاص يرسل له كتاباً يثير الدهشة بالمقارنة بما
كتبه من قبل للحسين يقول فيه: أما بعدُ فقد توجَّه إليك الحسينُ، وفي
مثلها تُعتَقُ أو تكونُ عبداً تُسْتَرْقُ كما تُسْتَرْقُ العبيدُ!!

الحجاج: إنها السياسة والبعض يلعب على الرائجة، وهذا يزيد يكتب إليه: إنه قد
بَلَغَنِي أن حسينا قد سار إلى الكوفة، وقد ابْتُئِلَ به زمانُك من بين الأزمان،
وبلدُك من بين البلدان، وابتُئِلَتْ به أنتَ من بين العُمَالِ.... فضع المناظرَ
والمسالحَ، واحترس واحبس على الظنَّةِ وخُذْ على التهمة، غير أن لا
تَقْتُلْ إلا من قاتلك، واكْتُبْ إليَّ في كل ما يحدثُ من خَبَرٍ، والسلام.⁽²⁾

الباحث: وذكروا أنه لما فشلت المساعي الودية لمنع الحسين من التوجه إلى
العراق، حاولوا ذلك بالقوة فاعترضت رسلُ عمرو بن سعيد بن العاص

(1) البداية والنهاية 11/506

(2) البداية والنهاية 11/508

نائب مكة بقوة عليها أخوه يحيى بن سعيد، فقالوا له: انصرف أين تذهب؟ فأبى عليهم ومضى، وتدافع الفريقان فاضطربوا بالسياط، ثم إن حسيناً وأصحابه امتنعوا امتناعاً قوياً، ومضى الحسين على وجهه، فناداه: يا حسين، ألا تتقي الله! تخرج من الجماعة وتفرق بين الأمة؟! قال: ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾

الحجاج: وفي الطريق استولى الحسين على غير قادمة من اليمن إلى يزيد، أخذها ووجهها معه إلى الكوفة.⁽²⁾ وفي الطريق أيضاً لقي الفرزدق فسلم عليه وسأله الحسين عن أمر الناس في الكوفة وما وراءه، فقال له: قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء. فقال له صدقت، لله الأمر، يفعل ما يشاء، وكل يوم ربنا في شأنٍ.

أقبل الحسين في طريقة إلى الكوفة حتى بلغ الحاجز من بطن الرَّمَّة، بعث قيس بن مُسَهِّرٍ الصيداويَّ إلى أهل الكوفة، وكتب معه إليهم: بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليٍّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلامٌ عليكم، فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقنا، فنسأل الله أن يُحسنَ لنا الصنيعَ، وأن يُثبِّتكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدُّوا فإني قادمٌ عليكم في أيامي هذه، إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(1) يونس: 41

(2) البداية والنهاية 510 / 11

أقبل قيس بن مُسهر الصيدأوي إلى الكوفة بكتاب الحسين، حتى انتهى إلى القادسية أخذه الحُصَيْنُ بنُ نُمَيْرٍ، فبعث به إلى عُبيد الله بن زياد، فقال له ابن زياد: اصعد إلى أعلى القصر فُسِّبَ الكذاب ابن الكذاب. فصعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن هذا الحسين بن عليٍّ خيرُ خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأنا رسوله إليكم، وقد فارقتُه بالحاجرِ من بطن الرُّمة، فأجيبوه، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه، واستغفر لعليٍّ والحسين. فامر به زياد، فألقِيَ من رأس القصر فتقطع.⁽¹⁾

ثم أقبل الحسين يسير نحو الكوفة، ولا يعلم بشيء مما وقع من الأخبار. فكان لا يمر بماءٍ من مياه العرب إلا اتبعوه. ومَرَّ رجل من بني أسد قادمٌ من الكوفة بركب الحسين في طريقه فأخبر وأقسم بالله إنه لم يخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، ورأهما يُجران بأرجلهما في السوق. فجعل الحسين يقول إنا لله وإنا إليه راجعون. وأخذ يكررها مرارا فقليل له الله الله في نفسك فقال: لا خير في العيش بعدهما.

فقليل له: خار الله لك. فقال له آخرون والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع. وقال بنو عقيل بن أبي طالب: لا والله لا نرجع حتى ندرك ثأرنا، أو نذوق ما ذاق أخونا، فسار الحسين حتى بلغ زُرُود، بلغه خبرُ مقتلِ الذي بعثه بكتابه إلى أهل الكوفة، فقال خَذَلْتَنَا شيعتنا، فمن أحب منكم الانصرافَ فلينصرف من غير حرج عليه، وليس عليه منا ذمام. فتفرق الناس منه أيادي سبا⁽²⁾ يمينا وشمالا حتى بقي في

(1) البداية والنهاية 513 / 11 ويقال: بل تكسرت عظامه وبقي فيه رمق، فقام إليه عبد الملك بن عمير اللخمي فذبحه، وقال إنما أردت إراحته من الألم. وقيل بل رجل يشبهه. وفي رواية أن الذي قدم بكتاب الحسين إنما هو عبدُ الله بن بُقْطَرٍ أخو الحسين من الرضاة، فألقِيَ من أعلى القصر.

(2) يقال: تفرقوا أيادي سبا. أي: في كل جهه. اللسان (ي دي)

أصحابه الذين جاءوا معه من مكة، وإنما فعل ذلك؛ لأنه ظنَّ أن من اتبعه من الأعراب إنما اتبعوه لأنه يأتي بلدًا قد استقامت له طاعة أهلها، والأمر أضحى غير ذلك.. فلم يصحبه إلا من أراد مواساته في الموت معه. ثم سار حتى مرَّ بأرض فنزلوا بها فسأل الحسين ما اسم هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء. قال: كرب وبلاء.

وبعث عبيدُ الله بن زيادِ عمرَ بن سعدٍ يقاتلهم، فقال الحسين: يا عمرُ، اختر مني إحدى ثلاث خصال؛ إما أن تتركني أرجع كما جئتُ، فإن أبيت، فسيرني إلى يزيد أضعُ يدي في يده فيحكم فيَّ ما رأى، فإن أبيت هذه فسيرني إلى التُّرك فاقاتلهم حتى أموت. فأرسل عمر إلى ابن زياد بذلك، فهمَّ أن يُسيره إلى يزيد، فقال شمرُ بن ذي الجوشن: لا، إلا أن ينزل على حُكمك. فأرسل إليه بذلك، فقال الحسين: والله لا أفعل.⁽¹⁾

وأبطأ عمر في قتال الحسين، فأرسل إليه ابنُ زيادِ شمرَ بن ذي الجوشن فقال له: إن تقدَّم عمرُ فقاتل، وإلا فاقتله وكن أنت مكانه. وكان مع عمر قريبٌ من ثلاثين رجلاً من أهل الكوفة، فقالوا لهم: يعرضُ عليكم ابنُ بنتِ رسول الله ﷺ ثلاث خصال، فلا تقبلوا منها شيئاً! فتحولوا مع الحسين فقاتلوا معه.

ويقول سعد بن عُبَيْدة: إنا لمستنقعون في الماء مع عمر بن سعد، إذ أتاه رجل فسارَه فقال له: قد بعث إليك ابن زيادِ جُويريةَ بن بدر التميميَّ، وأمره إن لم تُقاتل القومَ أن يضرب عنقك. فوثب إلى فرسه فركبه، ثم دعا بسلاحه فلبسه وإنه لعلی فرسه، ونهض بالناس إليهم فقاتلوهم، فجيءَ برأس الحسين إلى ابن زياد.. وجيءَ بنسائه وبناته وأهله. وكان أحسن شيء صنعَه ابن زياد أن أمر لهم بمنزل في مكان معتزل، وأجرى عليهم رزقا، وأمر لهم بنفقة وكسوة.⁽²⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 517

(2) البداية والنهاية 11 / 519

سنة إحدَي وستين من الهجرة مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه

الباحث: قيل إن الحسين قُتِلَ في يوم عاشوراء من شهر المحرم.؟

الحجاج: عليه رحمة الله. نعم نعم، وكان مقتل الحسين هو مُسْتَهْلُهُ..

الباحث: ألم تحدث مفاوضات؟ خاصة أن الحسين أبدى رغبةً في عدم إراقة الدماء؟

الحجاج: أقول لك ما حدث: جاءت مقدمة الجيش الذي بعثه ابن زياد وكان ألفَ فارس عليهم الحر بن يزيد التميمي، حتى وقفوا في مقابلة الحسين ومن معه؛ وما معه إلا قليل.. وكان ذلك في نحر الظهيرة، والحسين وأصحابه معتمون متقلدون سُيُوفَهم، فأمر الحسين أصحابه أن يتروا من الماء ويسقوا خيولهم وأن يسقوا خيول أعدائهم أيضا. ولما دخل وقت الظهر أمر الحسين الحجاج بن مسروق الجعفي فأذن ثم خرج الحسين إلى الناس فخطب الناس من أصحابه وأعدائه واعتذر إليهم في مجيئه هذا إلى هاهنا، بأنه قد كتب إليه أهل الكوفة أنهم ليس لهم إمام، وإن أنت قدمت بايعناك وقاتلنا معك. ثم أقيمت الصلاة فقال الحسين للحر: تريد أن تصلي بأصحابك؟ قال: لا ولكن صل أنت ونصلي نحن وراءك. فصلى بهم الحسين، ثم دخل إلى خيمته، واجتمع به أصحابه، وانصرف الحر إلى جيشه، وكل على أهبته، فلما كان وقت العصر صلى بهم الحسين، ثم انصرف فخطبهم وحثهم على السمع والطاعة له وخلع

من عليهم من الأدعياء والسائرين بالجور في الرعية. فقال له الحر: إنا لا ندري ما هذه الكتب، ولا من كتبها، فأحضر الحسينُ خُرجين مملوئين كُتُبًا، فنشرها بين يديه، وقرأ منها طائفة، فقال الحر: لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أُمِرنا إذا نحن لَقْنَاكَ أن لا نفارقك حتى نُقَدِّمَكَ علي عبيد الله بن زياد. فقال الحسينُ: الموتُ أدنى إليك من ذلك.

ثم قال الحسين لأصحابه: اركبوا، فركبوا وركب النساءُ، فلما أراد الانصراف، حال القومُ بينه وبين الانصراف، فتناول القوم وتراجعوا فقال الحر للحسين: إني لم أؤمر بقتالك، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة على ابن زياد، فإذا أبيت فخذ طريقاً لا تُقدمك الكوفة ولا تُردك إلى المدينة وأكتب أنا إلى ابن زياد، واكتب أنت إلى يزيد، أو ابن زياد إن شئت، فلعل الله أن يأتي بأمرٍ يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك. فأخذ الحسين يساراً عن طريق العذيب والقادسية، والحرُّ بن يزيد يسايره وهو يقول له: يا حسين، إني أذكرك الله في نفسك، فأني أشهد لئن قاتلت لتُقتلن، ولئن قُوتلت لتُهْلِكَنَّ فيما أرى. فقال له الحسينُ: أقبال موتٍ تُخوفُني؟ ولكن أقول كما قال أخو الأوسِ لابن عمِّه وقد لقيه وهو يريدُ نصرَةَ رسول الله ﷺ فقال: أين تذهب فأنت مقتولٌ؟ فقال: (1)

سأمضي وما بالموت عارٌ على الفتى	إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وأسى الرجال الصالحين بنفسه	وفارق خوفاً أن يعيش ويُرغمَا

(1) البداية والنهاية 11 / 521، 522 وانظر انساب الأشراف 382 / 3 والكامل 49 / 4. رويت هذه الأبيات بشكل آخر قال:

سأمضي وما بالموت عارٌ على امرئ	إذا ما نوى حقاً ولم يُلف مجرماً
فإن ميتٌ لم أندم وإن عشتُ لم أُلَمُّ	كفى بك موتاً أن تُذلَّ وتُرغمَا

لم يمض وقت حتى قَدِمَ من الكوفة راكبٌ متنكبٌ قوساً، فسلم على الحُر بن يزيد، ولم يسلم على الحسين، ودفع إلى الحر كتاباً من ابن زياد، ومضمونه أن يعدل بالحسين في السير إلى العراق في غير قرية ولا حصن، حتى تأتيه رسلُهُ وجنودُهُ، وذلك يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين، فلما كان من الغدِ قَدِمَ عمر بن سعد بن أبي وقاص، في أربعة آلاف، ثم إن الحسين طلب من عمر بن سعد أن يجتمع به بين العسكرين، فجاء كل واحد منهما في نحو من عشرين فارساً، فتكلما طويلاً حتى ذهب هزيعٌ من الليل، ولم يدرِ أحدهُما قالاً. وذكر البعض أن الحسين سأل من عمر بن سعد أن يذهباً ليزيد، أو يتركه يرجع إلى الحجاز، أو يذهب إلى بعض الثغور فيقاتل الترك. فكتب عمر إلى عبيد الله بذلك، فقال نعم، قد قبلت. ⁽¹⁾ لولا أن شمر بن ذي الجوشن، قال: لا والله حتى ينزل على حكمك هو وأصحابه، لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيتحدثان عامة الليل، قال له ابن زياد فنعم ما رأيت. ثم إن عبيد الله بن زياد بعث شمر بن ذي الجوشن فقال: اذهب فإن جاء حسين وأصحابه على حكمي، وإلا فمر عمر بن سعد أن يقاتلهم، فإن تباطأ عن ذلك فاضرب عنقه، ثم أنت الأمير على الناس، وكتب إلى عمر بن سعد يتهدده على توانيه في قتال الحسين، وأمره إن لم يجرى الحسين إليه أن يقاتله ومن معه، فإنهم مُشاقون. ⁽²⁾

ولما قدم شمر بن ذي الجوشن على عمر بن سعد بكتاب عبيد الله بن زياد قال له عمر أبعد الله دارك، وقبَّح ما جئت به، والله إنني لأظنك الذي صرَفْتَهُ

(1) المرجع السابق 11 / 527

(2) المرجع السابق 11 / 528

عن الذي عرضت عليه من الأمور الثلاثة التي طلبها الحسين، فقال له شمرٌ: فأخبرني ما أنت صانعٌ؛ أقتاتلهم أنت أو تاركي وإياهم؟ فقال له عمر: لا، ولا كرامة لك، أنا أتولى ذلك. وجعله على الرجالة ونهضوا إليه عشية يوم الخميس التاسع من المحرم. نادي عمر بن سعد في الجيش: يا خيل الله اركبي وأبشري. فركبوا وزحفوا إليهم بعد صلاة العصر من يومئذ.

الباحث: قالوا إن الحسين ومن معه مُنعوا الماء وبلغ العطش منهم مبلغاً..؟

الحجاج: هذا صحيح وكان ذلك بتوجيه من ابن زياد ثاراً لعثمان بن عفان رضي الله عنه الذي منعه

الخوارج الماء، رغم أن الحسين لم يمنع جنود ابن زياد الماء عندما قدمت عليه وتركم يرتوون.

الباحث: أعلم أن تفاصيل المعركة التي دارت بين الحسين رضي الله عنه وبين عمر بن سعد كثيرة وقيل فيها الكثير، والواقع أنه لا وجه للمقارنة بين عدد الجيش الذي أرسله ابن زياد وأنصار الحسين رضي الله عنه. ونتيجة المواجهه معلومة سلفاً.

الحجاج: هذا حق، ولعل زَحْرَ بنَ قيس قد أوجز القول عندما دخل على يزيد بن معاوية بدمشق⁽¹⁾ فقال له يزيد: ويلك! ما وراءك؟ فذكر له الحسين وما كان من أمره بكربلاء فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره، وَرَدَ علينا الحسين ابن علي بن أبي طالب وثمانية عشر من أهل بيته وستون رجلاً من شيعته، فسرنا إليهم، فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عُبيد الله بن زيادٍ أو القتال، فاختاروا القتال،

(1) أخرجه الطبري في تاريخه 460 5/459

فغدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم، فجعلوا يهربون إلى غير مهرب ولا وزر، ويلوذون منا بآكام والحفر لواءاً كما لا ذ الحماة من صقر، فوالله ما كان إلا جَزُرُ جَزورٍ أو نومة قائل، حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مُجَرَّدَةٌ، وثيابهم مُرْمَلَةٌ وخدودهم مَعْفَرَةٌ، تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح، زوارهم العقبان والرخم. فدمعت عينا يزيد بن معاوية وقال: قد كنت أَرْضَى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه، ورحم الله الحسين. ثم لم يصل زُحَرَ بن قيسٍ بشي⁽¹⁾.

الباحث: قُتِلَ كثيرٌ من أهل بيت النبي في كربلاء..؟

الحجاج: نعم قُتِلَ مع الحسين رضي الله عنه من ولده وإخوته وأهل بيته ثلاثة وعشرون رجلاً، فمن أولاد علي رضي الله عنه، جعفر، والحسين، والعباس، ومحمد، وعثمان، وأبو بكر. ومن أولاد الحسين علي الأكبر، وعبد الله. ومن أولاد أخيه الحسن ثلاثة؛ عبد الله، والقاسم، وأبو بكر. ومن أولاد عبد الله بن جعفر اثنان؛ عونٌ ومحمد. ومن أولاد عقيل؛ جعفر، وعبد الله، وعبد الرحمن، ومسلم كان قد قُتِلَ قبل ذلك، ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل⁽²⁾. وكذلك قُتِلَ أخوه لأمه من الرضاعة؛ عبد الله بن بقطر حين بعث معه كتاباً إلى أهل الكوفة، فحُمِلَ إلى ابن زياد فقتله.

الباحث: عليهم رحمة الله ورضوانه. قُتِلَ أشعارٌ كثيرة في هذه الفترة في مقتل الحسين رضي الله عنه..!

(1) البداية والنهاية 11/557

(2) البداية والنهاية 11/551 552

الحجاج: نعم ومنها تلك الآيات:

متزماً بدمائه تزميلاً	جاءوا برأسك يا بنت محمدٍ
قتلوا جهاراً عامدين رسولاً	وكأنما بك يا بنت محمدٍ
في قتلِكَ التنزيلَ والتأويلاً	قتلوك عطشاناً ولم يترقبوا
قتلوا بك التكبيرَ والتَّهليلَ ^(١)	ويُكبرون بأن قُتِلتَ وإنما

الباحث: ومتى كان مقتل الحسين رضي الله عنه تحديداً وكم كان عمره حينئذٍ؟

الحجاج: كان مقتل الحسين يوم الجمعة، وكان يوم عاشوراء من المحرم سنة إحدى وستين يقال له الطَّفُّ. بكرلاء من أرض العراق وله من العمر ثمانٍ وخمسون سنة أو نحوها.^(٢)

الباحث: هل معنى هذا، أن قبر الحسين في هذا المكان؟ أم في مكانٍ آخر؟

الحجاج: لم يُنقل إلى مكانٍ آخر، هو بمشهد عليٍّ بالطف عند نهر كربلاء^(٣) وقيل إن الماء لما أُجري على قبر الحسين ليُمحِّي أثره نضب الماء بعد أربعين يوماً، فجاء أعرابيٌّ من بني أسد، فجعل يأخذ قبضةً قبضةً، ويشمها حتى وقع على قبر الحسين، فبكى وقال: بأبي أنت وأمي، ما كان أطيبك وأطيب تربتك! ثم أنشأ يقول:

أرادوا ليُخفوا قبره عن عدوّه	فطيبُ ترابِ القبرِ دلَّ على القبرِ
------------------------------	------------------------------------

الباحث: وماذا عن رأس الحسين رضي الله عنه؟

(١) البداية والنهاية ١١ / ٥٦٩ وحول هذا راجع تاريخ الطبري ٤٦٧ / ٥

(٢) المرجع السابق ١١ / ٥٦٩ وانظر ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤ / ٢٥٥ ٢٥٧

(٣) البداية والنهاية ١١ / ٥٨٠

الحجاج: بعث بها ابن زياد إلى يزيد بن معاوية، ولكن هناك خلاف حول المكان الذي دفن به رأس الحسين؛ فقالوا إن يزيد بعث برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد نائب المدينة، فدفنه عند أمه بالبقيع. وقالوا ظل في خزانة يزيد بن معاوية حتى توفي، فأخذ من خزانته، فكفّن ودفن داخل باب الفراديس من مدينة دمشق، ويعرف مكانه بمسجد الرأس هناك.⁽¹⁾

الباحث: وأين عبد الله بن الزبير من هذه الأحداث؟

الحجاج: ذكرت لك من قبل موقف عبد الله بن الزبير من رحيل الحسين ومن معه من أنصار وآل البيت إلى العراق، وبقائه بالحرم عائداً به فلما بلغه مقتل الحسين شرع يخطب الناس، ويُعظّم قتل الحسين وأصحابه جدّاً، ويعيب على أهل الكوفة وأهل العراق ما صنعوه من خذلانهم الحسين، ويترحم على الحسين ويلعن من قتله، ويقول: ⁽²⁾ أما والله لقد قتلوه، طويلاً بالليل قيامه، كثيراً في النهار صيامه، أما والله ما كان يستبدل بالقرآن الغناء والملاهي، ولا بالبكاء من خشية الله الحُداء، ولا بالصيام شرب الحرام، ولا بالجلوس في حلق الذكر تطلاب الصيد يُعرض بيزيد بن معاوية فسوف يلقون غياً. ويُؤلّب الناس على بني أمية، ويحثّهم على مخالفتهم وخلع يزيد، فباعه خلق كثير في الباطن، وسألوه أن يُظهرها، فلم يُمكنه ذلك مع وجود عمرو بن سعيد، وكان شديداً عليه، ولكن فيه رفق. وقد كاتبه أهل المدينة وغيرهم، وقال

(1) البداية والنهاية 11 / 581 وانظر تاريخ دمشق، تراجم النساء ص 102، 103 وادعى الفاطميون الذين ملكوا الديار المصرية من منتصف القرن الرابع الى مابعد سنة ستمائة وستين هجرية، أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية، ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور به بمصر، والذي يقال له: تاج الحسين. بعد سنة خمسمائة، وقال البعض لا أصل لذلك. انظر البداية والنهاية 11 /

الناس: أما إذ قُتِلَ الحسين فليس أحدٌ يُنَازِعُ ابن الزبير. وبلغ ذلك يَزِيدَ، وقيل له: إن عمرو بن سعيد لو شاء لبعثَ إليك برأسِ ابن الزبير، أو يُحاصِرُهُ حتى يخرجَ من الحرم. فبعثَ فعزله، وولى الوليد بن عتبةَ في هذه السنة، ركب عمرو بن سعيد إلى يزيد، فلما دخل عليه، أكرمه يزيد واحترمه ورحّب به، وأدنى مجلسه، ثم إنه عاتبه في تقصيره في شأن ابن الزبير، فقال له: يا أمير المؤمنين، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وإن جُلَّ أهل مكة والحجاز مالهو علينا وأحبوه، ولم يكن لى جُنْدٌ أقوى بهم عليه لو ناهضته، وقد كان يحذرُنِي ويحترس مِنِّي، وكنت أرفق به كثيرا، وأداريه لأستمكن منه فأثب عليه، مع أنني قد ضيقتُ عليه ومنعته من أشياء كثيرة، وجعلتُ على مكة وطرقها وشعابها. رجالا لا يدعون أحدا يدخلها حتى يكتبوا إليَّ اسمه واسم أبيه، ومن أي بلادِ الله هو وما جاء له، وماذا يريد، فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يُريده رددته صاغراً، وإلا خليتُ سبيله.. فقال له يزيد: أنت أصدق ممن رماك وحملني عليك، وأنت ممن أثق بهم وأرجو معونته وأدخره لرأب الصدع، وكفاية المهم، وكشف نوازل الأمور العظام⁽¹⁾.

وحلف يزيدُ ليعثنَّ إلى ابن الزبير فليؤتَيَنَّ به في سلسلة من فضة، وبعث بها مع البريد ومعه بُرنسٌ من خَزْءٍ لَتَبَرٍّ يَمِينُهُ. وكانت رسلٌ بين يزيد وابن الزبير، ولكن لم تلن قناته وكان ردّه: ⁽²⁾

إِنِّي لِمَنْ نَبَعَةٍ صُمِّمَ مَكَاسِرُهَا إِذَا تَنَاوَحَتِ الْقَصَبَاءُ وَالْعُشُرُ
وَلَا أَلَيْنَ لَغَيْرِ الْحَقِّ أَسْأَلُهُ حَتَّى يَلِينَ لَضَرْسِ الْمَاضِغِ الْحَجَرُ

الباحث: وهل كان موقف الناس في مكة والحجاز كما ذكر عمرو بن سعيد؟

(1) البداية والنهاية 11 / 608

(2) البداية والنهاية 11 / 600 عجز البيت للفرزدق ديوانه ص 245

الحجاج: كان حالهم كما ذكر عمرو بن سعيد، ولكن الحال في المدينة ازداد سوءاً فقد جاء يزيد وفدٌ من أعيان المدينة فآكرمهم وأعطاهم وأحسن إليهم، ليستميل قلوبهم، ولكنهم عندما عادوا إلى المدينة خلعوه وأظهروا عييه وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، وتعزف عنده القينات بالمعازف، وإنا نُشهدكم أنّا قد خلعناه. فتبعهم الناسُ على خلعه، وقد أنكر عليهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ذلك أما المنذر بن الزبير فقد وافقهم وعابه أكثر وكان من ضمن وفد المدينة إلى يزيد وأخبر عنه أنه يشرب الخمر ويسكر حتى يترك الصلاة.

الباحث: وكيف عالج يزيد هذا الموقف المشتعل..؟

الحجاج: بعث إلى أهل المدينة النُّعمانَ بنَ بشير⁽¹⁾ ينهاهم عما صنعوا، ويحذرهم غِبَّ ذلك، ويأمرهم بالرجوع إلى السمع والطاعة، ولزوم الجماعة، ففعل وقال لهم لا طاقة لكم بأهل الشام، فاتهمه عبد الله بن مطيع العدوي⁽²⁾ بأنه جاء يفرق جماعتهم ويفسد عليهم أمرهم. فلم يستطع النعمان أن يردهم إلى الجماعة ولزوم الطاعة، فانصرف.

(1) البداية والنهاية 11 / 609، 610 وانظر تاريخ الطبري 5 / 481 479، والكامل 4 / 102 104

وجمهرة أنساب العرب ص 111

(2) البداية والنهاية 11 / 610

سنة ثلاث وستين من الهجرة وقعة الحرة

الباحث: ماذا حدث في هذه السنة؟

الحجاج: وقعة الحرة، حيث أظهر أهل المدينة في مستهل هذه السنة خلع يزيد وولوا عليهم أمراء منهم، على قريش عبد الله بن مطيع، وعلى الأنصار عبد الله بن حنظله بن أبي عامر، وعلى قبائل المهاجرين معقل بن سنان الأشجعي.⁽¹⁾

اجتمعوا عند المنبر واندفع الناس يخلعون يزيد، ثم اجتمعوا على أن يخرجوا عامل يزيد من بين أظهرهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سُفيان بن عم يزيد، وعلى إجلاء بني أمية من المدينة، وحصروهم في دار مروان بن الحكم عندما اجتمعوا فيها، وكانوا قريبا من ألف رجل وأحاطوا بهم، وقد اعتزل الناس كما ذكرت لك عبد الله بن عمر وكذلك علي بن الحسين زين العابدين.⁽²⁾ وكذلك لم يخلع يزيد أحد من بني عبد المطلب، وقد سئل محمد بن الحنفية في ذلك، فامتنع، وناظرهم وجادلهم في يزيد.⁽³⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 614 تاريخ الطبري 5 / 482 495 المتظم 6 / 12 17 الكامل 4 / 111

121 تاريخ خليفة 1 / 289 290

(2) البداية والنهاية 11 / 614 وتاريخ الطبري 5 / 482 495 والمتظم 6 / 12 والكامل 4 / 111

121

(3) البداية والنهاية 11 / 615

وكتب بنو أمية إلى يزيد بما هم فيه من الحصر والإهانة والجوع والعطش، وأنه إن لم يبعث إليهم من ينقذهم مما هم فيه وإلا استؤصلوا عن آخرهم. فلما وصل البريد يزيداً انزعج لذلك، وقال له: ويلك! أليس فيهم ألف رجل؟ قال: بلى. قال: أفلا قاتلوا ولو ساعة من نهار؟ ثم بعث إلى عمرو بن سعيد بن العاص، فقرأ عليه الكتاب، واستشاره فيمن يبعثه إليهم، وعرض عليه ذلك، فأبى وقال: إن أمير المؤمنين عزلني عنها وهي مضبوطة، وأمورها محكمة، فأما الآن فإنما هي دماء قريش تراق بالصعيد، فلا أحب أن أتولى ذلك منهم، ليتول ذلك من هو أبعد منهم مني.

الباحث: يبدو أن يزيد كان في موقف لا يُحسد عليه..!

الحجاج: هذا صحيح. كان هذا التحدي أصعب تحدٍّ واجهه بعد مقتل الحسين رضي الله عنه. وكان بالنسبة له حياة أو موت، إنه يواجه معارضة الصحابة من قريش ومن المهاجرين والأنصار وكذلك التابعين في مدينة رسول الله ﷺ، ثم إن حياة كبار بني أمية على المحك قد يُستأصلوا في هذا الحصار، فإما أن ينصرهم ويبقى معهم أو يخذلهم ويذهب ويذهبون.⁽¹⁾

الباحث: ماذا فعل؟

الحجاج: بعث البريد إلى مسلم بن عقبة المُرِّي، وهو شيخ كبير ضعيف، فانتدب لذلك وأرسل معه يزيد عشرة آلاف فارس، وقيل اثني عشر ألفاً. بل إن البعض قال بعث سبعةً وعشرين ألفاً، إثنا عشر ألف فارس وخمسة عشر ألف راجل وأعطى كل واحدٍ منهم مائة دينار،⁽²⁾ وجعل على أهل

(1) ليس هذا كلام الحجاج على التحقيق بل هو رأي الباحث من خلال الملاحظات والأخبار والأحداث المحيطة بالموقف أجراه على لسان الحجاج.

(2) البداية والنهاية 11 / 616 تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 61 80 ص 25

دمشق عبد الله بن مسعدة الفزاري، وعلى أهل حمص حصين بن نُمير السَّكُونِي، وعلى أهل الأردن حبيش بن دُلْجَة القيني، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجزامي وشريك الكناني، وعلى أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعليهم جميعاً مسلم بن عُقْبَة المُرِّي.

الباحث: هذا الجيش بهذه المواصفات وهذا التشكيل ليس جيشاً يذهب للنزاهة، إن إراقة الدماء هي أبسط شيء يمكن توقعه، ودماء من؟ دماء أهل المدينة المنورة وفيها صحابة رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين ومن القرشيين الكثير، ألم يكن هناك من ناصح يبصره بخطورة ما هو مقبل عليه؟

الحجاج: كانت هناك محاولة لتفريغ هذا البعث من مضمونه أو على الأقل لا يصل الأمر إلى مرحلة الصدام والتلاحم ولكن يزيد فطِنَ إلى ذلك وأفشَل المحاولة.

الباحث: كيف ذلك؟

الحجاج: بعد أن فرغ يزيد من حشد الحشود، جاءه النعمان بن بشير وقال له: يا أمير المؤمنين، ولَّني عليهم أكفكُ – والنعمان بن بشير هذا هو أخو عبد الله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رواحة، وعبد الله بن حنظلة كما تعلم هو أحد قادة الخروج على يزيد في المدينة – فقال يزيد وقد أدرك ما وراء الطلب: لا، ليس لهم إلا هذه العَشَمَة، والله لأقبلهم بعد إحساني إليهم وعفوي عنهم مرة بعد مرة. فقال النعمان: أنشدك الله يا أمير المؤمنين في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ. ⁽¹⁾ فلم يتراجع عن موقفه.

فقال له عبد الله بن جعفر: أرايت إن رجعوا إلى طاعتك، أتقبل ذلك منهم؟ قال: إن فعلوا فلا سبيل عليهم.

(1) البداية والنهاية 11 / 616 وانظر تاريخ دمشق 478 / 24

الباحث: فماذا كانت توجهات يزيد لقائد جيشه، ماذا طلب منه بالتحديد؟

الحجاج: قال يزيد لمسلم بن عقبة قائد جيشه: إذا قدمت المدينة ولم تُصدَّ عنها، وسمعوا وأطاعوا فلا تتعرَّض لأحدٍ منهم، وامض إلى الملحدين الزبير، وإن صدُّوك عن المدينة فادعهم ثلاثاً، فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكفَّ عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً، ثم اكفف عن الناس. وقيل إنه قال لمسلم بن عقبة: إذا ظهرت عليهم فإن كان قُتل من بني أمية أحدٌ فجرد السيف، واقتل المُقبِل والمُدبر، وأجهز على الجريح وانهبها ثلاثاً، وانظر إلى علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً، وأدنِ مجلسه؛ فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه. وأمره يزيد إذا فرغ من المدينة أن يذهب إلى مكة لحصار ابن الزبير وقال له: إن حدث بك أمرٌ فعلى الناس حُصين بن ثُمير السَّكوني.

الباحث: هذا الجيش لم يكن قصده المدينة فقط بل مكة أيضاً للقضاء على عبد الله بن الزبير؟

الحجاج: هو كذلك.

الباحث: هل علم عبد الله بن الزبير بذلك الجيش القادم إليه؟

الحجاج: نعم وكان يُعرَّض بيزيد ويصرح في خطبه ويقول: يزيد القروء، شارب الخمر، تارك الصلوات، منعكف القينات. فلما بلغ يزيد ذلك وقد جهز مسلم بن عقبة واستعرض الجيش بدمشق، جعل يقول:

أبلغ أبا بكرٍ إذا الأمر انبرى ونزل الجيش على وادي القُرى
عشرون ألفاً بين كهل وفتى أجمَعَ سكرانٍ من القوم ترى

وتحرك الجيش بالفعل في اتجاه المدينة، وازداد حصار أهل المدينة لبني أمية فيها.

الباحث: هل احتفظوا بهم رهائن أو دروع في مواجهة جيش يزيد.

الحجاج: كلا، لقد حدث أمرٌ عجيب، لقد أطلقوا سراحهم، بعد أن أخذوا عليهم العهود والمواثيق أن لا يمالئوا الجيش القادم أو يدلوا عليهم بشيء.

الباحث: وخرج بنو أمية من المدينة سالمين؟ عجباً! هل هذا سلوك قومٍ مقبلين على حرب.؟!

الحجاج: لك أن تعجب، وكان عبدُ الله بن جعفر قد أرسل إلى أهل المدينة يُحذِّرهم من التعرُّض لهذا الجيش، وكان مسلم كلما سأل أحداً من بني أمية ممن تلقون الجيش عند أطراف المدينة حال خروجهم منها، عن شيء يخصُّ المدينة ومن فيها لا يُخبره بشيء، ولم ينضم أحدٌ منهم إلى الجيش، إلتراماً بعهدهم، إلا أن عبد الملك بن مروان وكان من بين المحاصرين المطلق سراحهم، قال لمسلم: إن كنت تريد النصر فانزل شرقي المدينة في (الحرّة)، فإذا خرجوا إليك كانت الشمس في أفقيتكم وفي وجوههم، فادعهم إلى الطاعة، فإن أجابوك وإلا فاستعن بالله وقتلهم، فإن الله ناصرٌ عليهم، إذ خالفوا الإمام، وخرجوا من الطاعة. فشكره مسلم بن عقبة على ذلك وامتلأ ما أشار به، فنزل شرقي المدينة في الحرّة.⁽¹⁾ ودعا أهلها ثلاثة أيام، كل ذلك وهم يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، فلما مضت الثلاثُ قال لهم في اليوم الرابع وهو يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر ذي الحجة سنة ثلاثٍ وستين: يا أهل المدينة، مضت الثلاثُ، وإن أمير المؤمنين قال لي: إنكم أصله وعشيرته،، وإنه يكره إراقة دماءكم،

(1) البداية والنهاية 11 / 618 وانظر تاريخ الطبري 5 / 485 495، والكامل 4 / 115 121،

والمنتظم 6 / 13 17

وإنه أمرني أن أؤجِّلكم ثلاثاً، فقد مضت فما أنتم صانعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ قالوا: بل نحارب. فقال لا تفعلوا، بل سالموا ونجعلُ جدنا وقوتنا على هذا الملحد. (يعني ابن الزبير). فقال له: يا عدو الله، لو أردت ذلك ما مكَّناك منه، أنحن نذكركم تذهبون فتلحدون في بيت الله الحرام؟! ثم تهيَّئوا للقتال، وقد كانوا اتخذوا خندقاً بينهم وبين مسلم بن عقبة، ثم اقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزم أهل المدينة إليها، وقد قتل من الفريقين خلقٌ من السادات والأعيان، ثم أباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد، وقتل خلقاً كثيراً من أشرافها وقرائها، وانتهب أموالاً كثيرة منها، وتصرف مسلم بن عقبة في المدينة تصرف الجبارين المنتصرين هو وجنوده ولم يرع ذمة ولا عهداً إلا ما أوصاه به يزيد من إكرام علي بن الحسين رضي الله عنه وآل بيته ممن لم يدخل في شيء مما دخل فيه أهل المدينة، واختفى جماعة من سادات الصحابة منهم أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله.

الباحث: قالوا إن أبا سعيد الخدري فر إلى غار في جبل، فلحقه رجلٌ من أهل الشام. قال أبو سعيد: فلما رأيته انتضيتُ سيفي، فقصدني، فلما رأيته صمم على قتلي، فشمْتُ سيفي، ثم قلت: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بَيْتِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾⁽¹⁾ فلما رأى ذلك قال: من أنت؟ قلت: أنا أبو سعيد الخدري. قال: صاحب رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم فمضى وتركني.⁽²⁾

(1) (المائدة: 29)

(2) البداية والنهاية 11 / 621 وتاريخ الطبري 5 / 491. وفيه أن أبا سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: (لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) المائدة: 28.

الحجاج: من استطاع أن يفلت من لظى الحرب فعل، ولكن قليلا من نجى منهم. وقد قتل مسلم الكثير منهم صبرا ممن رفض أن يبيع يزيد، فكان يأمر بضرب عنقه لا يتورع في ذلك. وذكروا أنه لما انهزم أهل المدينة يوم الحرة، صاح النساء والصبيان، فقال ابن عمر: بعثمان ورب الكعبة.⁽¹⁾

الباحث: كم قُتِلَ يوم الحرة؟

الحجاج: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، وعشرة آلاف من الموالى وممن لا يُعرف من الأحرار والعبيد وغيرهم.

الباحث: هل وصل خبر المعركة إلى مكة؟

الحجاج: نعم وصل الخبرُ مكةَ في مستهل المحرم مع سعيدٍ مولى المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ، فحزنوا حزنا شديداً، وتأهبوا لقتال أهل الشام.⁽²⁾ وهتف هاتفٌ بمكة على جبل أبي قيس مساء تلك الليلة، وابن الزبير جالس يسمع:⁽³⁾

قُتِلَ الْخِيَارُ بَنُو الْخِيَا	ر ذُووِ الْمِهَابَةِ وَالسَّامِحِ
وَالصَّائِمُونَ الْقَائِمُونَ	ن الْقَانِتُونَ أَوْلُو الصَّلَاحِ
الْمُهْتَدُونَ الْمُتَقَوْنَ	ن السَّابِقُونَ إِلَى الْفَلَاحِ
مَاذَا بَوَاقِمِ الْبَقِي	ع مِنْ الْجَحَاجِحَةِ الصَّبَاحِ
وَبِقَاعٍ يَشْرَبُ وَيَحْهَنُّ	مِنْ النَّوَادِبِ وَالصَّيَاحِ

الباحث: وماذا كان رد ابن الزبير حين سمع هذا الهاتف؟

(1) البداية والنهاية 11 / 622 والمتنظم 6 / 16 وانظر تهذيب الكمال 21 / 35 ومن أعيان من قتلوا

يوم الحرة راجع البداية والنهاية، الحاشية ج 11 / 622، 623

(2) البداية والنهاية 11 / 624 وتاريخ الطبري 5 / 494 وانظر تهذيب الكمال 14 / 372.

(3) البداية والنهاية 11 / 226 وانظر تاريخ دمشق 3 / 156

الحجاج: قال: يا هؤلاء قُتِلَ أصحابُكم، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

الباحث: كيف تقيّم موقف يزيد وما حدث للمدينة يوم الحرة؟

الحجاج: لقد أخطأ يزيد خطأً فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يُبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير، فإنه وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يُحد ولا يُوصف، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل. وقد أراد يزيد بارسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه / ودوام أيامه، فعاقبه الله بنقيض قصده.

الباحث: هناك حديث لرسول الله ﷺ يقول: (لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا انماع كما ينماع الملح في الماء) صدق رسول الله ﷺ.⁽¹⁾

الحجاج: صدق رسول الله ﷺ، لقد حدث ذلك بالفعل ليزيد.

الباحث: ولكن قل لي يا حجاج قبل أن نعرف ماذا حدث ليزيد، مارأيك فيما يراه الفقهاء، من أن يزيد بن معاوية بهذه التصرفات السيئة التي تصرفها، إنما تأوّل وأخطأ، وقالوا: إنه كان مع ذلك إماماً فاسقاً، والإمام إذا فسق لا يُعزل بمجرد ذلك، على أصحّ قولٍ العلماء، بل ولا يجوز الخروج عليه؛ لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقوع الهرج، وسفك الدماء الحرام، ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهن كما جري في وقعة الحرّة وغير ذلك مما كل واحدةٍ فيها من الفساد أضعاف فسقه؟⁽²⁾

(1) البخاري (1877) وانظر تحفة الأشراف 3 / 325، وتهذيب الكمال 6 / 358.

(2) البداية والنهاية 11 / 630

الحجاج: أنا مع هذا الرأي، وقد رأيتَ بنفسك ماذا حدث للناس بالمدينة بسبب خروجهم على الإمام. إن يزيد بن معاوية كان يرى أنه الإمام، وقد خرجوا على طاعته، وأَمَرُوا عليهم غيره، فله قِتَالُهُمْ حتى يرجعوا إلى الطاعة، ولزوم الجماعة، كما أُنذِرهم بذلك على لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة ثلاثة أيام، وقد جاء في الحديث الصحيح: (من جاءكم وأَمَرُكُمْ جَمِيعٌ يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان)⁽¹⁾

(1) أخرجه مسلم (1852) وانظر المسند الجامع 12 / 544

سنة أربع وستين من الهجرة

بداية المواجهة بين يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير

الباحث: إذا فقد خُتِمت سنة ثلاثٍ وستين بوقعة الحرة.. وجاءت سنة أربعٍ وستين، ماذا فعل جيش مسلم بعدما اجتاحت المدينة؟

الحجاج: التزم أوامر يزيد بن معاوية، فتوجه من فوره إلى مكة قاصدا قتال ابن الزبير ومن انضم إليه من الأعراب ممن بايعه بعدما خلع بيعة يزيد. وقد استخلف مسلم على المدينة رَوح بن زُبَاع.

الباحث: كيف تحمل مسلم بن عُقبة كل هذا الجهد وهو مسنٌ ومريض؟.

الحجاج: لم يتحمل مسلم كل هذا الجهد، وشعر بدنو أجله، فاستخلف على الجند حُصَيْن بن نُمَيْر السَّكُونِي، كما أوصاه يزيد، ثم مات.

الباحث: لم يفكر أن يتوب إلى الله مما فعل باهل المدينة قبل أن يوافيه الأجل؟!

الحجاج: على العكس تماما مما تتصوّر، لقد كانت كلماته الأخير تثير العجب،

لقد قال: اللهم إني لم أعمل عملا قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن

محمدًا عبده ورسوله أحبَّ إليَّ من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عندي في

الآخرة، وإن دخلت النار بعد ذلك إني لشقي. ثم مات ودُفن بالمُشَلَّل.⁽¹⁾

لسبعٍ بقين من المحرم من هذا العام.

الباحث: تولى الحصين بن نمير السكوني قيادة الجيش؟.

(1) البداية والنهاية 11 / 633 وانظر تاريخ الطبري 5 / 496

الحجاج: نعم، سار بالجيش نحو مكة، فانتهى إليها لأربع بقين من المحرم، وقد تلاحق بابن الزبير جماعاتٌ ممن بقي من أشراف المدينة. ومعهم نجدة بن عامر الحنفي، ومعه طائفة من أهل اليمامة، حتى يمنعوا البيت الحرام من أهل الشام. أما الحصين بن نمير فنزل بجيشه ظاهر مكة، وخرج إليه ابن الزبير في أهل مكة ومن انضم إليهم، فاقتتلوا ذلك اليوم قتالا شديدا، وحمل أهل الشام حملة صادقةً فانكشف أهل مكة، وكاد عبد الله بن الزبير أن يُقتل في هذا اليوم، عندما عثرت بغلته. وقد اقتتل الفريقان بقية شهر المحرم وشهر صفر بكماله، فلما كان يوم السبت الثالث من ربيع الأول سنة أربع وستين، نصب الحصين بن نمير المنجنيق على الكعبة، ورموها حتى بالنار، فاحترق جدار البيت في هذا اليوم يوم السبت.

الباحث: إذا لم تكن أنت يا حجاج أول من ضرب الكعبة بالمنجنيق؟!

الحجاج: لا، ثم إنني لم أكن أقصد الكعبة، كنت أقصد ابن الزبير ومن معه.

الباحث: ولكن البعض قالوا أنما احترقت الكعبة؛ لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة، فعلمت النار في بعض أستارها، فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت.

الحجاج: نعم قالوا هذا وقالوا أيضا: إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع تكبيرا على بعض جبال مكة في ليلة ظلماء، فظن أنهم أهل الشام، فرفعت نارا على رمح لينظروا هؤلاء الذين على الجبل، فأطارت الرياح شررةً من رأس الرمح إلى ما بين الركن اليماني والأسود من الكعبة فعلمت في أستارها وأخشابها، فاحترقت واسود الركن، وانصدع في ثلاثة أمكنة منه.⁽¹⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 635 وانظر تاريخ الطبري 5 / 498

الباحث: قرأت هذا البيت لعمر بن حوطة السدوسي في هذا الموقف يقول:

كيف ترى صنيع أم فروة تأخذهم بن الصفا والمروة.
من أم فروة هذه؟

الحجاج: أم فروة أسم المنجنيق.

الباحث: وهل استمر الحصار للكعبة كثيراً؟

الحجاج: استمر الحصار إلى مستهل ربيع الآخر، وجاء الناس نعي يزيد بن معاوية⁽¹⁾،
وأنه مات لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين.

(1) روى يزيد عن أبيه معاوية أن رسول الله ﷺ قال: "من يرد الله به خيراً يُفقه في الدين" أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق 18 / 389 من طريق يزيد عن أبيه معاوية، كما روى حديثاً آخر في الوضوء، وروى عنه ابنه خالد وعبد الملك بن مروان، وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة، وهي العليا، وقال له أحاديث.

ومن صفاته، أنه كان كثير اللحم عظيم الجسم، كثير الشعر، جميلاً طويلاً، ضخم الهامة، مُخَدَّد الأصابع غليظها، وكان مُجَدَّرًا (من أثر الإصابة بالجذري) وقد روي أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا ويصبح فيه مخموراً، وكان يشد القرد على فرس مُسَرَّجَةٍ يجبال ويسوق به، ويلبس القرد القلائس الذهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه، وقيل: إن سبب موته أنه حمل قردةً وجعل يُنقِزُها فعضته. راجع البداية والنهاية 11 / 659 وانظر مروج الذهب 3 / 67، 68

وذكر الزبير بن بكار، عن أبي محمد الجزري قال: كانت بالمدينة جارية مغنية يقال لها سَلَامَةُ. من أحسن النساء وجهها، وأتمهن عقلاً وأحسنهن حديثاً، قد قرأت القرآن، وروت الشعر وقالته، وكان عبد الرحمن بن حسان والأحوص بن محمد يجلسان إليها، فعَلِقَتِ الأحوص، وصَدَّت عن عبد الرحمن بن حسان، فترحل بن حسان إلى يزيد بن معاوية فامتدحه، ودلّه على سَلَامَةَ وجمالها وحسنها وفصاحتها، وقال: لا تصلح إلا لك يا أمير المؤمنين، وأن تكون من سُمَارِك. فأرسل يزيد، فاشترى له، وحملت إليه، فوقع منه موقعاً عظيماً، وفصلها على جميع من عنده، ورجع عبد الرحمن إلى المدينة، فمرّ بالأحوص، فوجده مهموماً، فأراد أن يزيد به إلى مابه فقال:

الباحث: مات صغيراً..!

يَا مُبْتَلَى بِالْحُبِّ مَفْدُوحَا	لَأَقَى مِنَ الْحُبِّ تَبَارِيحَا
أَفَحَمَهُ الْحُبُّ فَمَا يَنْشِي	إِلَّا بِكَأْسِ الْحُبِّ مَصْبُوحَا
وَصَارَ مَا يُعْجِبُهُ مُغْلَقَا	عَنْهُ وَمَا يَكْرَهُ مُفْتُوحَا
قَدْ حَازَهَا مِنْ أَصْبَحَتْ عِنْدَهُ	يَنَالُ مِنْهَا الشَّمَّ وَالرَّيْحَا
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَسَلِّ الْهَوَى	وَعَزَّ قَلْبًا مِنْكَ مَجْرُوحَا

قال: فأمسك الأحوص عن جوابه، ثم غلبه وجدُّه عليها، فرحل إلى يزيد، فامتدحه، فلما قدم عليه أكرمه وقرَّبه وحظي عنده، فدمست إليه سلامُ خادما، وأعطته مالا على أن يدخله عليها، فأخبر الخادم يزيد بذلك، فقال امضي لرسالتها. ففعل وأدخل الأحوص عليها، وجلس يزيد في مكان يراهما ولا يريانه، فلما بصرت الجارية بالأحوص بكت إليه وبكى إليها، وأمرت فألقي له كرسي، فقعده عليه، وجعل كل واحد منهما يشكو إلى صاحبه شدة الشوق، فلم يزالا يتحدثان إلى السحر، ويزيد يسمع كلامهما من غير أن يكون بينهما ربيَّة، حتى إذا همَّ الأحوص بالخروج قال:

أَمْسَى فَوَادِي فِي هَمٍّ وَبَلْبَالٍ	مَنْ حُبِّ مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْهُ عَلَى بَالٍ
--	--

فقال:

صَحَا الْمَحْبُونُ بَعْدَ النَّأْيِ إِذْ يَتَسَوَا	وَقَدْ يَتَسَوَا وَمَا أَصْحُو عَلَى حَالٍ
--	--

فقال:

مَنْ كَانَ يَسْلُو بِأَسٍ عَنْ أَخِي ثَقَّةٍ	فَعَنْكَ سَلَامٌ مَا أَمْسَيْتُ بِالسَّالِي
--	---

فقال:

وَاللَّهُ وَاللَّهُ لَا أَنْسَاكَ يَا شَجَنِي	حَتَّى تُفَارِقَ مِنِّي الرُّوحُ أَوْصَالِي
---	---

فقال:

والله ماخاب من أمسى وأنت له
ثم ودَّعها وخرج، فأخذه يزيد، ودعا بها فقال: أخبراني عما كان في ليلتكما واصلدقاني. فأخبراه وأنشده ما قال، فلم يخرما حرفاً، ولا غيراً شيئاً مما سمعه. فقال لها يزيد: أتحبِّينه؟ قالت: إي والله يا أمير المؤمنين:

حُبًّا شَدِيدًا جَرَى كَالرُّوحِ فِي جَسَدِي	فَهَلْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
--	--

فقال له: أتحبِّها؟ فقال: إي والله يا أمير المؤمنين:

حُبًّا شَدِيدًا تَلِيدًا غَيْرَ مُطَرِّفٍ	بَيْنَ الْجَوَانِحِ مِثْلَ النَّارِ يَضْطَرِّمُ
---	---

الحجاج: نعم مات وهو ابن خمسٍ أو ثمانٍ أو تسعٍ وثلاثين سنة، فكانت ولايته ثلاثَ سنين وستة أشهر تقريباً. واستمر حصار الكعبة بعد موت يزيد أربعين ليلة.

الباحث: لا شك أن موت يزيد أراح قلبَ عبدِ الله بن الزبير..!

الحجاج: نعم ولقد علم بموت يزيد قبل أهل الشام، فنأدى فيهم: قد أهلك الله طاغيتكم، فمن أحب منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل، ومن أحب أن يرجع إلى الشام فليرجع.

الباحث: وماذا فعل الجنود؟

الحجاج: لم يصدقهُ الشاميون كما لم يصدقوا أهل مكة فيما أخبروهم به، حتى جاء ثابت بن قيس بن المُنَقِّع، بالخبر اليقين. حينئذٍ دعا عبدُ الله بن الزبير حُصين بن نمير إلى لقاءٍ بينهم فكان بين الصنفين كلٌّ على فرسه، ودار بينهما حوار وكانت فرسُ ابن حُصين تنفر ويكفُّها، فقال له ابن الزبير: مالك؟ قال: إن الحمام تحت رجلي فرسي تأكل من الروث، فأكره أن أظأ حمام الحرم. فقال له ابن الزبير: تفعل هذا وأنت تقتل المسلمين؟! فقال له حُصين: فأذن لنا فلنظف بالكعبة ثم نرجع إلى بلادنا. فأذن لهم فطافوا.⁽¹⁾

فقال يزيد: انكما لتصفاني حباً شديداً، خُذها يا أحوصُ فهي لك. ووصله صلةً سنِيَّةً. فرجع بها الأحوصُ إلى الحجاز وهو قرير العين. (راجع البداية والنهاية 11 / 656 658 وانظر الأصفهاني في الأغاني 134 / 9، 135 وابن عساكر في تاريخ دمشق تراجم النساء ص 183، 184.

وقد كان يزيدُ فيه خصالاً محمودَةً من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحُسْنُ الرأي في الملك، وكان ذا جمالٍ، حسن المعاشرة، وكان فيه أيضاً إقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات. راجع مختصر تاريخ دمشق 27 / 28.

(1) البداية والنهاية 636 / 11 وانظر تاريخ الطبري 5 / 501

الباحث: لم يعد لابن الزبير منافسٌ..!

الحجاج: نعم وقد قالها ابن نمير له وهما على فرسيهما، قال: إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر بعده، فهلّمّ ارحل معي إلى الشام فوالله لا يختلفُ عليك اثنان. وتؤمن الناس وتهدر الدماء التي كانت بيننا وبينك، وبيننا وبين أهل الحرة.

الباحث: هذا رأي صائب. فماذا كان رد ابن الزبير؟

الحجاج: أغلظ عبدُ الله بن الزبير له في المقال فلم يكن يثق فيه، فنفر منه ابن نمير، وقال: أنا أدعوه إلى الخلافة، وهو يغلظ علي في المقال، ثم كرّ بالجيش راجعا إلى الشام، وقال: أعدّه بالملك ويتوعدّني بالقتل؟!

الباحث: لقد خسر ابن الزبير بهذا الرفض وهذه الغلظة في الرد.

الحجاج: نعم ولقد ندم ابن الزبير على ذلك، وأرسل إليه يقول له: أما الشام فلست آتية، ولكن خذ لي البيعة على من هناك، فإني أوْمُنكم وأعدل فيكم. فبعث إليه يقول له: إن من يبتغيها من أهل هذا البيت بالشام لكثيرٌ. واجتاز الحصين في طريق عودته المدينة، ووجد من أهلها إهانة وطمعوا فيهم، إلا أن عليّ بن الحسين أكرمهم وأهداهم علفا وقتاً⁽¹⁾، وارتحلت بنو أمية مع الجيش إلى الشام، وفي دمشق وجدوا أن معاوية بن يزيد بن معاوية قد استخلفَ عن وصية أبيه له بذلك.

الباحث: وكيف سارت الأمور بمكة؟

الحجاج: أَمِنَ الناسُ على أنفسهم بعد مغادرة جيش حصين بن نمير، ودعا عبدُ الله بن الزبير إلى نفسه وسُمِّي أمير المؤمنين، وترك الشعار الذي اتخذهُ

(1) القْتُ: الرُّطْبُ من علف الدواب. اللسان (ق ت ت)

من قبل، حيث كان يُدعى العائد بالبيت، وشعاره لا حكم إلا لله، وفارقه الخوارج، وبايعه أهل مكة في رجب من هذه السنة؛ سنة أربع وستين.⁽¹⁾

الباحث: قال أحدهم:⁽²⁾ ما أفسد أمر الناس إلا اثنان؛ عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف يوم صِفِّين، فحُمِلت على رءوس الأسنة، فحكَّم الخوارج، وقالوا: لا حكم إلا لله. فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، والآخر المغيرة بن شعبة؛ فإنه كان عامل معاوية على الكوفة فكتب إليه معاوية يقول: إذا قرأت كتابي فأقبل معزولا. فأبطأ على معاوية في القُدوم، فلما قدم عليه قال له معاوية: ما أبطأك عني؟ قال أمرُ كنت أوطئه وأُهيئه. قال وما هو؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك. قال وقد فعلت ذلك؟ قال: نعم. فقال: ارجع إلى عملك. فلما خرج المغيرة من عنده: قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غَرَزٍ لا يزال فيه إلى يوم القيامة. الحجاج: هذا كلام صحيح، وبلغني أن معاوية قيل له: تُشِدُّك الله فيمن نستخلف على المسلمين.

فقال: لم يبق إلا ابني وأبناؤهم وابني أحم.⁽³⁾

الباحث: ومع ذلك فإن بعض أبناء كبار الصحابة لم يدخلوا في صراع على السلطة والخلافة مع معاوية أو يزيد مثل عبد الله بن عمر وابن عباس ومحمد بن الحنفية. بل بايعوا عن رضى نفسٍ أو بغير رضا النتيجة واحدة فهم لم ينازعوا على الخلافة.⁽⁴⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 637

(2) البداية والنهاية 11 / 649 وانظر تاريخ الخلفاء ص 205، 206 وباختصار في سير أعلام النبلاء 4 / 39.

(3) البداية والنهاية 11 / 650 وانظر تاريخ الخلفاء ص 205.

(4) البداية والنهاية 11 / 652

الحجاج: نعم، فهذا عبد الله بن عمر بن الخطاب وجماعاتٌ من أهل بيت النبوة ممن لم ينقض العهد، ولا بايع أحداً بعد بيعته ليزيد، عندما خلع الناسُ يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشَّهَّد، ثم قال: أما بعدُ فإنَّا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنَّ الغادرَ يُنصبُ له لواءٌ يوم القيامة يُقال: هذه غدرُ فلان ».⁽¹⁾ وإن من أعظم الغدر إلا أن يكون الإِشراكُ بالله أن يبايع رجلٌ رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحدٌ منكم يزيد، ولا يُشرفن أحدٌ منكم في هذا الأمر، فيكون الصيلم⁽²⁾ بيني وبينه. ومشى عبدُ الله بن مطيع وأصحابه إلى محمد ابن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد، فأبى، فقال ابنُ مطيع: إن يزيد يشربُ الخمرَ ويترك الصلاةَ ويتعدَّى حُكْمَ الكتابِ. فقال لهم: ما رأيتم منه ما تذكرون، وقد حَضَرْتُهُ وأقمتُ عنده، فرأيتُه مواظباً على الصلاة، متحرِّياً للخير، يسألُ عن الفقه، ملازماً للسُنَّة. قالوا فإن ذلك كان منه تصنعاً لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يُظْهِرَ إلَيَّ الخشوعَ؟! أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلو كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا إنه عندنا لحقٌّ وإن لم يكن رأينا. فقال لهم: قد أبى الله ذلك من أهل الشهادة، فقال: (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)⁽³⁾ ولستُ من أمركم في شيء. قالوا: فلعلك تَكْرَهُ أن يتولَّى الأمرَ غيرُكَ، فنحن نوليكَ أمرنا. قال: ما أَسْتَحِلُّ القتالَ على ما تُريدونني عليه تابعا ولا متبوعا. قالوا فقد قاتلت

(1) المسند 2 / 48 ورواه مسلم والترمذي من حديث صخر بن جويرية، وقال الترمذي حسنٌ صحيحٌ.

(2) الصَّيْلَمُ: القطيعة المنكرة.

(3) الزخرف: 86

مع أبيك. قال: جِئْتُوني بمثل أبي أُقاتل على مثل ما قاتل عليه. فقالوا: فمر ابنك أبا هاشم والقاسم بالقتال معنا. قال: لو أمرتهما بالقتال قاتلتُ. قالوا فقم معنا مقاماً تحضُّ الناس فيه على القتال. قال: سبحان الله! أمر الناس بما لا أفعله ولا أَرْضاه؟! إذا نُكِرْهُكَ. قال: إذا أُمِرَ الناسَ بتقوى الله، وألا يُرْضُوا المخلوقَ بِسَخَطِ الخالق. وخرج إلى مكة. ⁽¹⁾

الباحث: وقد روى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « من نَزَعَ يداً من طاعةٍ فإنه يأتي يوم القيامة لا حُجَّةَ له، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموتُ ميتةً جاهليَّةً » ⁽²⁾

الحجاج: صدق رسول الله ﷺ. لقد ذكر عبد الله بن عمر هذا الحديث لابن مطيع الذي كان يتزعم المعارضة ويسعى في الناس لخلع يزيد بن معاوية. لم يخرج أحدٌ من آل أبي طالب ولا من بني عبد المطلب أيام الحرة، وقد حفظ لهم يزيد ذلك فأكرمهم وأوصى بهم خيراً. ⁽³⁾ وقيل إن آخر ما تكلم به يزيد بن معاوية: اللهم لا تؤاخذني بما لم أحبه، ولم أُرْده، واحكم بيني وبين عبيد الله بن زياد. وكان نقش خاتمه (آمنت بالله العظيم). ⁽⁴⁾

الباحث: وماذا عن معاوية بن يزيد؟ ماذا فعل؟.

الحجاج: معاوية بن يزيد بن معاوية كان رجلاً صالحاً، تولى الخلافة بعد أبيه بوصية أبيه له في الرابع عشر من ربيع الأول من هذا العام عام أربعة وستين من الهجرة، كان صالحاً وناسكاً، لم تَطُلْ مُدَّتُهُ، فهي تقاس بالأيام، في أقل

(1) البداية والنهاية 11 / 653 وانظر أنساب الأشراف 471 / 3

(2) رواه مسلم (1851) والمسند 2 / 97

(3) البداية والنهاية 11 / 654

(4) البداية والنهاية 11 / 659 وانظر تاريخ دمشق لابن منظور 28 / 29.

تقدير عشرين يوما وفي أكثر تقدير أربعة أشهر. ⁽¹⁾ وكان في مدة ولايته مريضا، لم يخرج إلى الناس، وكان الضَّحَّاكُ بن قيس هو الذي يصلي بالناس، وَيَسُدُّ الأُمُورَ، وتوفي وهو ابن إحدى وعشرين سنة تقريبا. وشهد دفنه مروان بن الحكم بالشام، وكان الضحَّاك بن قيس هو الذي يصلي بالناس بعده حتى استقر الأمر لمروان بالشام.

الباحث: وكيف استقام الأمر لمروان بن الحكم في الشام؟

الحجاج: عندما حضر مروان دفن معاوية بن يزيد، قال لمن حوله: أتدرون من دفنتم؟ قالوا: نعم، معاوية بن يزيد. قال مروان: هو أبو ليلى الذي قال فيه أَرَزَمُ الْفَزَارِيُّ:

إني أرى فتنةً تغلي مراحلها والملوك بعد أبي ليلى لمن غلبا

وقد كان كما قال الفزاري. وذلك أن أبا ليلى تُوفِّيَ عن غير عهدٍ منه إلى أحد. فتغلب على الحجاز عبدُ الله بن الزبير، وعلى دمشق وأعمالها مروانُ بن الحكم، وبائع أهل خراسان سَلَمَ بن زياد حتى يتولى على الناس خليفة، فسار فيهم سَلَمٌ سيرةً حسنةً أحبوه عليها، ثم أخرجوه من بين أظهرهم، وخرج القراء والخوارج بالبصرة، وعليهم نافع بن الأزرق، وطرَدوا عنهم عبيدُ الله بن زياد بعدما كانوا بايعوه عليهم حتى يصير للناس إمامٌ، فذهب إلى الشام، وبايعوا بعده عبدُ الله بن الحارث بن نوفل المعروف ببَيَّةَ، وأمُه هند بنت أبي سفيان، فبايعه الناس في مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وستين. ⁽²⁾ ويقول فيه الفرزدق الشاعر: ⁽³⁾

(1) البداية والنهاية 662/11 وانظر انساب الأشراف 379/5 وتاريخ دمشق 789/16 (مخطوط) وسير أعلام النبلاء 4/139.

(2) البداية والنهاية 664/11 وانظر تاريخ دمشق 792/16 مخطوط

(3) انظر الكامل 136/4 ولسان العرب (ب ب ب) والبيَّة: السمين. وبه لُقِّب عبد الله بن الحارث؛ لكثرة لحمه في صغره. والبيت في البداية والنهاية 664/11.

وباعَتْ أَقْوَامًا وَفَيْتُ بَعْدَهُمْ وَبَبَّةٌ قَدْ بَاعَتْهُ غَيْرَ نَادِمٍ

ولكنه لم يَقم فيهم غير أربعة أشهر ثم لزم بيته، فكتب أهل البصرة إلى الزبير، فكتب ابن الزبير إلى أنس بن مالك يأمره أن يُصَلِّي بالناس فصلي بهم شهرين. وفي اليمامة خرج نجدة بن عامر الحنفي، وخرج بنو ماحوز في الأهواز و فارس وغير ذلك.

الباحث: ما كل هذا...؟؟!!

الحجاج: نعم وأكثر، كانت أرض الخلافة تمور مورا..⁽¹⁾

الباحث: لقد تصورتُ أن تستقر الأمور لعبد الله بن الزبير، ويرضى به الجميع. وقد كان على وشك أن يضع يده على الشام؟

(1) البداية والنهاية 665 / 11.

البيعة لعبد الله بن الزبير بالحجاز وما وراءها

الحجاج: العكس ما حدث، عندما رجع جيش حُصَيْن بن نمير عن مكة إلى الشام، استفحل أمر عبد الله بن الزبير بالحجاز وما والاها، وبايعه الناس بعد يزيد بيعة عامة هناك، واستناب على المدينة أخاه عبيدة بن الزبير، وأمره باجلاء بني أمية عن المدينة، فأجلاهم فرحلوا إلى الشام، وفيهم مروان وابنه عبد الملك، ثم بعث أهل البصرة إلى الزبير بعد حروب بينهم وفتن كثيرة، بعثوا إليه يجلبونه إلي أنفسهم، فكتب إلى أنس بن مالك ليصلي بهم⁽¹⁾. ويقال إن أول من بايع ابن الزبير هو مصعب بن عبد الرحمن، وبايعه عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن علي بن أبي طالب، وبعث ابن الزبير إلى ابن عمر وابن الحنفية وابن عباس ليبايعوا فأبوا عليه.

الباحث: غريب هذا الموقف منهم تجاه ابن الزبير وليس هناك إمام، ماذا ينتظرون؟! الحجاج: يبدو أنهم غير مقتنعين به خليفة للمسلمين، وربما لم ينسوا موقفه من الحسين، عندما أراد الخروج إلى العراق، وأنه فرح بهذا الخروج وخلق له الأمر في مكة بلا منافس، وانتهى الأمر بالحسين إلى مقتله رضي الله عنه. المهم كانت بيعة ابن الزبير في رجب من هذا العام بعد أن أقام الناس ثلاثة أشهر بلا إمام. وبعث ابن الزبير إلى أهل الكوفة عبد الله بن يزيد الأنصاري على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج، وأرسل إلى أهل مصر فبايعوه، واستناب عليها عبد الرحمن

(1) المصدر السابق 11 / 666 وانظر تاريخ الطبري 528 / 5.

بن جحدم، وبعث على البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وبعث إلى اليمن فبايعوه، وإلى خراسان فبايعوه، وإلى الضحّاك بن قيس بالشام فبايع، أما أهل دمشق وأعمالها من بلاد الأردن لم يبايعوه، لأنهم بايعوا مروان بن الحكم.

الباحث: وما موقف الخوارج من هذه البيعة العامة لابن الزبير؟

الحجاج: كان قد التفّ على عبد الله بن الزبير جماعة من الخوارج يدافعون عنه؛ منهم نافع بن الأزرق، وعبد الله بن إياض، وجماعة من رءوسهم، فلما استقر أمره في الخلافة، قالوا في أنفسهم: لقد أخطأنا إذ قاتلنا مع ابن الزبير دون أن نعلم رأيّه في عثمان بن عفان؛ وكانوا ينتقصون من عثمان رضي الله عنه، فاجتمعوا إليه وسألوه عن عثمان بن عفان، ذكر لهم ما كان متصفًا به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان والسياسة الحسنة، والرجوع إلى الحق إذا تبين له. عند ذلك نفروا عنه وفارقوه، وقصدوا بلاد العراق وخراسان، وتفرقوا فيها بمذاهبهم. واستحوذوا على كثير من البلدان والكور.

البيعة لمروان بن الحكم في الشام

الباحث: لم تُحدثني يا حجَّاجُ كيف تمت البيعةُ لمروان بن الحكم.؟

الحجَّاج: لما رجع حُصَيْن بن نُمَيْر من أرض الحجاز إلى الشام، وارتحل عُبيد الله بن زياد من البصرة إلى الشام، وانتقلت بنو أمية من المدينة إلى الشام، اجتمعوا إلى مروان بن الحكم بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية، وكان مروان قد عزم على البيعة لابن الزبير بدمشق، وكان أهلها قد بايعوا الضحاك بن قيس على أن يُصلح بينهم ويقيم لهم أمرهم، حتى تجتمع أمة محمد ﷺ، والضحاك يريد أن يبايع لابن الزبير، فقد بايع النعمان بن بشير لعبد الله بن الزبير بحمص، وبايع له زُفَر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وبايع له ناتل بن قيس بفلسطين، وأخرج منها روح بن زنباع الجزامي.

ولكن عُبيد الله بن زياد والحُصَيْن بن نمير اجتمعا على مروان ليشنوه عن رأيهِ في مبايعة ابن الزبير، وحذروه من دُخول سلطان ابن الزبير ومُلْكهِ إلى الشام، وقالوا له: انت شيخ قريشٍ وسيدُها، فأنت أحق بهذا الأمر، والتفَّ عليه مع هؤلاء قومُه من بني أمية مع أهل اليمن، فوافقهم، وكتب حسان بن مالك بن بحدل الكلابي إلى الضحاك بن قيس يشنوه عن المبايعة لابن الزبير، فبايع حسان بن مالك أهل الأردن لبني أمية، ويقصد البيعة لابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية، وبعث إلى الضحاك بذلك، ليأخذ البيعة من

أهل دمشق، فلم يقبل الضحاك أن يعلن ذلك، وعلم الناس بالخبر فثارت فتنة عظيمة بينهم فقام خالد بن يزيد ابن معاوية على المنبر وسكن الناس ونزل الضحاك وكان على المنبر فصلى بالناس الجمعة

وأمر الضحاك بالمعارضين له فسُجنوا فثارت قبائلهم وأخرجوهم من السجن واضطرب أهل دمشق وانقسموا بين ابن الزبير وبني أمية. وأراد البعض أن يتولى عليهم الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وعرضوا عليه ذلك فأبى، ثم إن الضحاك بن قيس صعد منبر المسجد الجامع، وخطب الناس ونال من يزيد بن معاوية، فقام إليه شاب من بني كلبٍ فضربه بعصا كانت معه، والناس جلوسٌ متقلدي سيوفهم، فقام بعضهم إلى بعض فاقتتلوا في المسجد قتالا شديدا، قيس ومن لف لفيها يدعون إلى ابن الزبير، وينصرون الضحاك بن قيس، وبنو كلب يدعون إلى بني أمية وإلى البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية،

فقام الضحاك بن قيس فدخل دار الإمارة واغلق الباب، ولم يخرج إلى الناس ثم أرسل إلى بني أمية، فجمعهم إليه فدخلوا إليه وفيهم مروان بن الحكم وعمر بن سعيد بن العاص، وخالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية. فاعتذر إليهم مما كان منه، واتفق معهم أن يركب معهم إلى حسان بن مالك الكلبى، فيتفقوا على رجلٍ يرتضونه من بني أمية للإمارة، فركبوا جميعا يقصدون حسان فقابلهم ثور بن معن بن الأحنس في قومه قيس، فقال له: إنك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير فأجبتك، وأنت ذاهب إلى هذا الأعرابي ليستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية، فقال له الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن نُظهر ما كنا نُسرُّ، وأن ندعو إلى طاعة ابن الزبير ونقاتل عليها.

فمال الضحاك بمن معه من الجيش من قيس ومن لف ليفها، وبعث إلى أمراء الأجناد، وباع الناس لابن الزبير، وكتب لابن الزبير يُعلمه بذلك. ثم حَسَّنَ له عُبيد الله بن زياد أن يدعو إلى نفسه، وذلك في مكر منه به، فدعا الضحاك إلى نفسه ثلاثة أيام، فنقم الناس عليه ذلك، وقالوا دعوتنا إلى البيعة لرجل فبايعناه، ثم خلعته من غير سبب ولا عذر، ودعوت إلى نفسك!، فرجع إلى البيعة لابن الزبير، فسقط في عين الناس. وكان عُبيد الله بن زياد قد اجتمع من قبل بمروان بن الحكم وحسَّ عليه أن يدعو إلى نفسه، ثم فارقه ليخدع الضحاك. وخدعه. ولما رأى مروان بن الحكم ما انتظم من البيعة لابن الزبير وما استوثق له من الملك، عزم على الرحيل إليه ليبايعه وليأخذ منه أماناً لبني أمية.

وفي الطريق لقيه عُبيد الله بن زياد فصده عن ذلك، وهَجَّنَ رأيه، واجتمع إليه عمرو بن سعيد بن العاص، وحُصَيْن بن نمير، وابن زياد وأهل اليمن وخلق كثير فقالوا لمروان: أنت كبير قريشٍ ورئيسها، وخالد بن يزيد غلامٌ، وعبد الله بن الزبير كهْلٌ، وإنما يُقرعُ الحديدُ بعضُهُ ببعض، فلا تُبارِه بهذا الغلام، وارم بنحرك في نحره، ونحن نبايعك، أبسط يدك. فبسط يده، فبايعوه. فكان ذلك يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع وستين.

فلما تمهد له الأمر، سار بمن معه نحو الضحاك بن قيس، فالتقيا بمرج راهط، فغلبه مروان بن الحكم وقتله وقتل من قيس مقتلةً لم يُسمع بمثلها.⁽¹⁾

(1) البداية والنهاية 11 / 668 672 وانظر تاريخ الطبري 5 / 533، 534. وقال البعض كان ذلك في المحرم من سنة خمسٍ وستين وقال آخرون بل كانت في النصف من ذي الحجة سنة أربع وستين وقال البعض كانت في أواخر سنة أربع وستين. راجع المنتظم 28 / 6 وانظر الإكمال 4 / 162، 163 وتاريخ دمشق 24 / 292، 296، 298.

كان مروان قد اجتمع له ثلاثة عشر ألفاً، وكان مع الضحّاك ثلاثون ألفاً، وتصافوا وتقاتلوا بالمرج عشرين يوماً، يلتقون في كل يوم فيقتتلون قتلاً شديداً، ثم أشار عبيد الله بن زياد على مروان بن الحكم أن يدعوهم للموادعة خديعة؛ فإن الحرب خدعة، وأنت وأصحابك على الحق وهم على الباطل، فنودي في الناس بذلك، ثم غدر أصحاب مروان، فمالوا يقتلونهم قتلاً شديداً، وصبر أصحاب الضحّاك صبراً بليغاً، فقتل الضحّاك بن قيس، وصبر مروان وأصحابه صبراً شديداً حتى فرّ أولئك بين يديه، فنادى لا يُتَّبَعُ مُدْبِرٌ ثم جيء برأس الضحّاك، ويقال إن أول من بشره بقتله روح بن زنباع الجذامي، واستقر مُلك الشام بيد مروان بن الحكم. وروي أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط فقال: أبعد ما كبرتُ وضعُفتُ، صرْتُ أقتل الناس بالسيوف على المُلكِ؟! ⁽¹⁾ وتزوج بأم خالد بن يزيد بن معاوية، وهي أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، فعظم أمره، فباعه الناس واجتمعوا عليه.

(1) البداية والنهاية 676/11 وانظر تاريخ دمشق 296/24 وأنساب الأشراف 269/6 وتاريخ الطبري 538/5.

ابن الزبير يهدم الكعبة

ويُعِيدُ بِنَاءَهَا

الباحث: إذا كان الحال هكذا في الشام، فما الحال في الكعبة مع عبد الله بن الزبير؟
الحجاج: في مكة؛ هدم ابنُ الزبير جدرانَ الكعبة؛ وذلك لأنه مال جدارُها مما رُميت
من حجارة المنجنيق، حتى وصل إلى أساس إبراهيم⁽¹⁾، وكان الناس
يطوفون ويصلون من وراء ذلك، وجعل الحجر الأسود في تابوت في سَرَقَةٍ
من حرير، وادخر ما كان في الكعبة من حُلِيِّ وثيابٍ وطيبٍ عند الخزان،
حتى أعاد بناءها على ما كان رسول الله ﷺ يُريد أن يبنها عليه من الشكل.
الباحث: لكنهم ذكروا أن عبد الله بن عباس كان له رأيٌ آخر، ألم يتشاور ابن الزبير
في هذا الأمر مع كبار القوم؟

الحجاج: الحق إن ابن الزبير شاور الناس في هذا الأمر،⁽²⁾ فوافقه جابر بن عبد
الله وعبيد الله بن عمر وأشاروا عليه بهدمها، وقال بن عباس: أخشى أن
يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تُهدم حتى يتهاون الناسُ بحرمتها، ولكن
أرى أن تُصلح ما وهى منها، وتَدَعَ بيتا أسلم الناسُ عليه، وأحجاراً بُعث
رسول الله ﷺ عليها. فقال بن الزبير: لو احترق بيتُ أحدكم ما رضي
حتى يُجَدِّده، فكيف بيت ربكم؟! ثم إن الزبير استخار الله ثلاثة أيام، ثم
غدا في اليوم الرابع، فبدأ في نقض الركن إلى الأساس، فلما وصلوا إلي

(1) البداية والنهاية 691/11 وانظر تاريخ الطبري 582/5

(2) البداية والنهاية 691/11 وانظر أنساب الأشراف 370، 369/5 وأخبار مكة 1/140، 145

الأساس، وجدوا أصلاً بالحجر مُشَبَّكَ كأصابع اليدين، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً وأشهدهم على ذلك، ثم بنى البيت وأدخل الحجر فيه، وجعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض؛ بابٌ يُدْخَلُ منه وبابٌ يُخْرَجُ منه، ووضع الحجر الأسود بيده، وشدَّه بِفُضَّةٍ؛ لأنه كان قد تصدَّع، وجعل طولَ الكعبة سبعةً وعشرين ذراعاً، وكان طولها سبعةً وعشر ذراعاً، فزاد في وُسْعِ الكعبة عشرة أذرع، ولطخ جدرانها بالمسك وسترها بالديباج، ثم اعتمر من مساجد عائشة، وطاف بالبيت، وصلى وسعى، وأزال ما كان حول البيت وفي المسجد من الحجارة والزُّبالَة، وما كان حولها من الدماء.

الباحث: لماذا لم يبن ابن الزبير الكعبة كما كانت على عهد رسول الله ﷺ، وزاد فيها وأدخل الحجر؟!

الحجاج: ذلك أنه سمع حديثاً من أم المؤمنين عائشة خالته رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ⁽¹⁾ قال لها: «لولا حدثان قومك بكفرٍ لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قَصُرَتْ بهم النفقة، ولجعلتُ لها باباً شرقياً وباباً غربياً، يدخلُ الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض، فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا» فبناها ابن الزبير على ذلك.

(1) ورد في الصحيحين البخاري ومسلم والموطأ ومسنَد أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي كما يلي: البخاري (1583، 126، 1586، 3368، 4484) ومسلم (398، 406/1333) الموطأ (1/363)..... راجع البداية والنهاية 11/692.

طموحات المختار الثقفي

والصراع على الساطة

الباحث: كان للمختار بن أبي عبيد الثقفي شأنٌ في هذه المرحلة من الصراع!

الحجاج: نعم. كان طموحا، وقد ظهر ذلك مبكرا فقد أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفي أمير المدائن حينما جُرح الحسن بن علي رضي الله عنه في مظلم ساباط بالمدائن أن يأخذ الحسن ويدفع به إلى معاوية للتقرب به إليه، فأبى عمه، لذلك يعتبره الشيعة من أعدائهم ويعتبرونه عثمانيا.

وعندما ذهب مسلم بن عقيل إلى الكوفة، كان المختار أحد الذين بايعوه، فحبسه ابن زياد لأنه بايع مسلم، فتوسط له زوج أخته عبد الله بن عمر فأطلق سراحه فسار إلى ابن الزبير واشترط عليه أن يولّيه أفضل أعماله وأن لا يقطع أمرا دونَه فأظهر ابن الزبير قبول شروطه وشهد معه حصار الحُصَيْن بن نُمير ولكن ابن الزبير لم يف له بالشروط فتركه المختار وسار إلى الكوفة حينما علم أن الفتنة قد برقت فيها ورعدت.⁽¹⁾ وقبل خروجه أتى محمد بن الحنفية وابان له أنه سيخرج للطلب بدم الحسين والانتصار لآل البيت فلم يأمره ولم ينهه وأوصاه بتقوى الله. وقال له إني لأحبُّ أن ينصرنا ربُّنا ويُهْلِكَ من سفك دماءنا؛ ولست أمر بحرب ولا إراقة دم فإنه كفى بالله ناصرا ولحقنا آخذا وبدمائنا طالبا.

(1) الحجاج لمحمود زياده ص 28، 29 وانظر البلازي أنساب الأشراف ج 5 من ص 214 216

وابن الأثير ج 3 ص 337، 338.

وكانت نية المختار في هذا أن يجمع الأنصار حوله بأي وسيلة، مستفيدا من فكرة طرحها المغيرة بن شعبة حين دار بينهما الحديث وهم بسوق الكوفة حيث قال له المغيرة: أما والله إني لأعرف كلمة لو دعا بها أريب لاستمال أقواما فصاروا له أنصارا ثم، لاسيما العجم الذين يقبلون ما يُلقى إليهم. فقال له المختار وما هي يا عم؟! قال: يدعوهم إلى نصرة آل محمد ﷺ، والطلب بدمائهم. فلم ينسها المختار حتى دعا بها. ⁽¹⁾. وكان المختار داهيةً فاستطاع أن يضم الناس إلى دعوته فهو من ذُعاة ثقيف، وثقيف من ذُعاة العرب. ⁽²⁾، كان المختار يُظهر مدح ابن الزبير في العلانية ويسبّه في السرّ، ويمدح محمد بن الحنفية ويدعو إليه.

وما زال حتى استحوذ على الكوفة بطريق التشيع وإظهار الأخذ بثأر الحسين، وبسبب ذلك التفت عليه جماعات كثيرة من الشيعة حتى قاوم نواب ابن الزبير على الكوفة، وأخرج عامل ابن الزبير منها، واستقر ملك المختار بها، ثم كتب إلى ابن الزبير يعتذر إليه ويُخبره أن ابن مُطيع عامله كان مدهنا لبني أمية، وقد خرج من الكوفة، وأنا ومن بها في طاعتك، فصدقه ابن الزبير؛ لأنه كان يدعوله على المنبر يوم الجمعة على رءوس الناس، ويُظهر طاعته. ثم شرع في تتبّع قتلة الحسين ومن شهد الواقعة بكرلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقا كثيرا وظفر برءوس كبار القوم منهم؛ كعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين، وشمر بن ذي الجوشن أمير الألف الذين ولّوا قتل الحسين، وسانن بن أبي أنس، ووليّ بن يزيد الأصبحي، وخلقاً غير هؤلاء، ثم بعث المختار سيفاً

(1) الحجاج، محمود زيادة ص 29 وانظر البلازي أنساب الأشراف ج 5 من ص 223.

(2) محمود زياد مرجع سابق ص 29 وانظر الأبشيهي المستطرف ج 2 ص 89.

نقمته إبراهيم بن الأشتر النخعي، في عشرين ألفاً إلى ابن زياد وهو في جيش أعظم من جيش المختار بأضعافٍ، كانوا ستين ألفاً، وقيل ثمانين ألفاً. فقتل ابنُ الأشتر ابنَ زيادٍ وكسر جيشه، واحتاز ما في معسكره وكان ذلك سنة سبعٍ وستين وفي يوم عاشوراء،

ثم بعث برأس ابن زياد ورءوس أصحابه مع البشارة إلى المختار، ففرح بذلك فرحاً شديداً، ثم إن المختار بعث برأس عبيد الله بن زياد ورأس حُصَيْن بن نمير ومن معهما إلى عبد الله بن الزبير بمكة فأمر ابن الزبير بها فنُصِبَت على عقبِ الحجون، وقد كانوا نصبوها بالمدينة.

وطابت نفس المختار بالملك، وظنَّ أنَّه لم يبقَ له عدوٌّ ولا منازعٌ.

ثم إن ابن الزبير تبين له خداع المختار له ومكره وسوء مذهبه، فبعث أخاه مصعباً أميراً على العراق، فسار إلى البصرة فاجتمع إليه أهلها، ووفد إليه جماعاتٌ من الكوفة، فلم يتمَّ سرورُ المختار حتى ركب إليه مصعبُ بن الزبير من البصرة في جيشٍ هائلٍ فحاصره بالكوفة وضيق عليه، وما زال حتى أمكن الله منه، فقتله واحتز رأسه، وأمر بصلب كفه على باب المسجد، وبعث مصعبُ برأس المختار مع رجلٍ من الشُّرَطِ على البريد إلى أخيه عبد الله بن الزبير، فلم تزل كف المختار هنالك حتى قَدِمَت الكوفة، فأمرت بانتزاعها ودفنها،⁽¹⁾

الباحث: هذا الرجل المختار عندما قُتل، كيف كان ردُّ فعل الناس، خاصة وأنه تزعم الأخذ بثأر الحسين وقد فعل ذلك فعلاً، ثم جاء مصعب بن الزبير فقتله؟!

(1) راجع الحجاج محمود زيادة مرجع سابق وانظر البلازي انساب الأشراف ج 5 من ص 225

الحجاج: رغم أن الشيعة التفوا حولة عندما ثار لثأر الحسين إلا أنه كان كاذبا وكاهنا، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه على يد جبريل يأتي إليه. حتى إن رفاعه القتباني يقول: دخلت على المختار فألقى لي وسادة وقال: لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لألقيتها لك. قال: فأردت أن أضرب عنقه. فتذكرت حديثا حدثني أخى عمرو بن الحميق، قال: قال رسول الله ﷺ: (أيما مؤمن آمن مؤمنا على دمه فقتله، فأنا من القاتل بريء) ⁽¹⁾ لذلك فرح المسلمون بمقتل المختار وبزوال ملكه على يد مصعب بن الزبير.

الباحث: نعم وقد روى النسائي وابن ماجه، عن عمرو بن الحميق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من آمن رجلا على نفسه فقتله، أُعطي لواء غدٍ يوم القيامة) ⁽²⁾.

(1) مسند أحمد 223 / 5 راجع البداية والنهاية 68 / 12

(2) مسند أحمد 5 / 224

سنة خمس وستين من الهجرة الحجاج شاهد على العصر

الباحث: كنتَ شاهداً على هذا العصر يا أبا محمد!

الحجاج: نعم شهدتُ عصر بني أمية من بدايته وما به من حوادث وانقسام الجماعة الإسلامية إلى طوائفٍ وأحزابٍ متنازعة، كلُّ جماعة تُريد أن تطغى على الأخرى، ويُكفِّر بعضها بعضاً، ورأيت الكثير من الولاة والقواد الذين بلغوا الذروة من الشهرة في ميادين السياسة والحرب، وقد تأثرت كثيراً بهؤلاء الذين ينتمون إلى ثقيف، كالمغيرة بن شُعبة، وزِيَاد بن أبيه، والمختار بن أبي عبيد الثقفي.

وقد دفعني الطموح أن أحذوا حذوهم، ففي هذا العام عام خمسة وستين انتظمتُ في سلك الجندية وكنت قد بلغت الخامسة والعشرين من عمري؛ وذلك كان في الحملة التي جهَّزها مروان بن الحكم تحت قيادته والذاهبة إلى مصر، لتخليصها من يد عبد الرحمن بن جحدم الفهري؛ عامل بن الزبير عليها، بعد أن استقرت أحوال الشام له، فانتصر على ابن جحدم وقبض على ناصية الأمور بمصر، ورجع إلى الشام في رجب من عام خمسة وستين من الهجرة.⁽¹⁾ وبعد عودتنا مباشرة أراد مروان أن يستغل حماسنا وانتصارنا ونجاحنا في ضم مصر لنفوذه والسيطرة عليها، فعبأ جيشين؛ أحدهما أرسله إلى

(1) الحجاج محمود زيادة ص 37 وانظر ابن الأثير ج 3 ص 330 والأتابكي النجوم الزاهرة ج 1 ص 116، 167. والطبري 5/540 والبداية والنهاية 11/694.

المدينة كما ذكرت لك من قبل على رأسه حبش بن دليجة القيني لمحاربة ابن الزبير، وكنت أنا ووالدي ضمن هذا الجيش، وكان والدي حامل لواء فيه، وكما تعلم انتصرنا في البداية لولا أن كَمَنَ لنا الحتتفُ بجيشه وتمكن من قتل حُبش فانهمزنا، نجا منّا من فرَّ وقُتِلَ مِنّا الكثيرُ في هذه المعركة، وكنت وأبي من بين الناجين من القتل في هذه الواقعة واقعة الربذة.⁽¹⁾

الباحث: وماذا عن الجيش الثاني؟

الحجاج: أما الجيش الثاني، فكان مع عبيد الله بن زياد إلى العراق، لينتزع من نواب ابن الزبير، فلما كانوا في الطريق لقوا جيش التوابين، مع سليمان بن صُرد، وهم الذين خرجوا للثأر للحسين من قتله وأولهم عبيد الله بن زياد، وسموا أنفسهم التوابين؛ لأنهم هم الذين دعوا الحسين إلى العراق، ثم خزلوه وتركوه حتى قُتل، ولكنهم هُزموا في عين الوردة وقُتل أكثرُ أصحابِ بنِ صردٍ معه.⁽²⁾ وما لبث هذا الجيش جيش ابن زياد وهم بالجزيرة أن علموا بموت مروان ابن الحكم، و كانت وفاته في شهر رمضان من سنة خمسٍ وستين من الهجرة.

الباحث: لم يجلس مروان على كرسي الخلافة طويلاً..!

الحجاج: تسعة أشهر وبضعة أيام، وقالوا إنما قُتِلَ؛ قَتَلَتْهُ زوجته.

الباحث: كيف ذلك؟!

الحجاج: أقول لك: كان السببُ في موته أنه تزوج بأم خالد؛ أرملة يزيد بن معاوية، وهي أم هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة، وإنما أراد مروان

(1) محمود زيادة مرجع سابق ص 38 وانظر ابن الأثير ج 3 ص 347 وابن قتيبة ص 173 وأنساب

الأشراف ج 5 ص 152، 153 واليعقوبي ج 3 ص 3 وابن عبد ربه ج 2 ص 229.

(2) راجع البداية والنهاية 684/11 وما بعدها. وانظر تاريخ الطبري 551/563.

بتزويجه إياها لِيُصَغَّرَ ابنها في أعين الناس، فقد أراد البعض أن يُمَلِّكُوهُ بعد أخيه معاوية، فتزوج أُمُّهُ لِيُصَغَّرَ أمره، فبينما هو ذات يوم داخلٌ عند مروان، إذ جعل مروان يتكلمُ فيه عند جُلُوسائه، فلما جلس قال له فيما خاطبه به: يابن الرطبة الإِست. فذهب خالد إلى أمه، فأخبرها بما قال له مروان فقالت اكنتم ذلك، ولا تُعلمه أنك أعلمتني بذلك. فلما دخل عليها مروان قال لها: هل ذكرني خالدٌ عندك بسوءٍ؟ فقالت له: وما عساه يقول لك وهو يحبك ويُعظِّمُك. ثم إن مروان رقد عندها، فلما أخذه النوم عمدت إلى وسادةٍ، فوضعتها على وجهه، وتحاملت عليها هي وجواريتها حتى مات مخنوقاً، ثم إنها أعلنت الصراخ هي وجواريتها وصحن: مات أمير المؤمنين فجأةً. وكان ذلك في رمضان سنة خمس وستين بدمشق ⁽¹⁾ والبعض قال: بل دسَّت له السم. وقام بعده وَلَدُهُ عبدُ الملك بن مروان في الخلافة، بوصية أبيه له. ⁽²⁾ كان مروان قد أخذ لابنه عبد الملك البيعة قبل وفاته. فلما مات مروان تجددت البيعة لعبد الملك على ما كان تحت يد أبيه من الأمصار.

الباحث: بعد ذلك اتصلت بروح بن زنباع؟

الحجاج: نعم وكان من أصفياء عبد الملك بن مروان ويقوم مقام الوزير بالنسبة له يستشيرُه في معظم الأمور ⁽³⁾، فكُنْتُ في جملة شرطته، وكما تعلم رشَّحني ابن زنباع لتولي شرطة الجيش لضبطه وانتظامه فقامت بها

(1) راجع البداية والنهاية 705/11 وانظر تاريخ الطبري 610/5، 611 والمتنظم 6/49، 50 والكامل 4/191، 192.

(2) البداية والنهاية 11/713

(3) محمود زيادة مرجع سابق ص 38 وابن كثير ج 9 ص 55 وابن نباتة ص 104 وابن عبد ربه ج 3 ص 5 وابن خلكان ج 1 ص 154 والقمراني ص 133.

خير قيام وارتقيت في نظر عبد الملك بن مروان، وزاد تقديره لي بعد مفاوضاتنا مع زفر بن الحارث الخارج عن طاعة أمير المؤمنين، ورفض الصلاة معه باعتباره منافق خارج على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فأعجب عبد الملك بموقفني وولاني تبالة وهي بلدٌ في طريق اليمن، ولكنني استصغرتها واستحقرتها أن أشغل نفسي بولايتها.. فطلبت منه أن يصرفني إلى عمل آخر غيرها، فولاني شرطة فلسطين لأخيه أبان بن مروان.⁽¹⁾

ولما استقرت الأحوال بالشام لعبد الملك بن مروان وأراد الخروج إلى العراق لتخليصها من يد مصعب ابن الزبير واليها من قبل أخيه عبد الله بن الزبير، جعل يستنفر أهل الشام فيُطَوَّن عليه، فقلت له وكنت من بين الحضور في هذه الأزمة: سَلِّطْنِي عَلَيْهِمْ! فوالله لأخرجهم معك. فأذن لي فكنت لا أُمُرُّ على دار رجلٍ لم يخرج إلا حَرَقْتُهَا عليه حتى سارعوا إلى الخروج جميعاً، فاجتمع لدي عبد الملك جيشٌ كبير، حتى إن أصحاب مصعب لما نظروا إلى الجيش أصابهم الرعب وداخلهم الخوف والفرع، فأمكن عبد الملك أن ينتصر على مصعب بن الزبير في معركة مسكن عند دير الجاثليق، وقُتِل مصعب في الثالث عشر من جمادى الآخرة لسنة اثنتين وسبعين، وبقتل مصعب صفًا العراق جميعاً لعبد الملك بن مروان.

الباحث: يبدو أن سردك للأحداث سيخرج بنا عن سياق السنين..!

(1) محمود زياد مرجع سابق ص 40 وأنساب الأشراف ج 5 ص 166.

الحجاج: ماذا تقصد؟!

الباحث: أريد عندما تسرد الأحداث أن تسردها سنة بسنة، فلا تقفز إلى سنواتٍ لم يأت أوانها،

الحجاج: كما تريد..

الباحث: كنا نتحدث عن وقائع سنة خمسة وستين هجرية ننتقل إلى أحداث سنة ستٍ وستين هجرية

سنة ست وستين من الهجرة

المختار يحقق نجاحاً

الحجاج: نعم، أقول لك: في هذه السنة،⁽¹⁾ وثب المختار بن عبيد الله الثقفي بالكوفة؛ ليأخذ بثأر الحسين بن علي كما ذكرت لك، وكما زعم هو، فأخرج منها عاملها عبد الله بن مطيع؛ وكان سبب ذلك أنه لما رجع أصحاب سليمان بن صرد مغلوبين إلى الكوفة، وجدوا المختار بن أبي عبيد مسجوناً، فكتب إليهم يُعزيهم ويعدّهم ويمنّهم، وقال لهم: أبشروا فإنني لو خرجت إليكم جرّدتُ فيما بين المشرق والمغرب من أعدائكم السيف، فجعلتهم بإذن الله ركاماً، وقتلتهم فذاً وتوأماً، فرحب الله بمن قارب منكم واهتدى، ولا يُبعدُ الله إلا من أبي وعصى. وردّوا عليه: إنّنا كما تُحب فمتى أحببت أخرجناك من محبسك.

ولكنه كره أن يُخرجه قهراً، فتلطف فكتب إلى زوج أخته صفية، عبد الله بن عمر بن الخطاب، يسأله أن يشفع في خروجه من محبسه عند نائبي الكوفة؛ عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة، ففعل ولم يمكنهما رده؛ لمكانته.

وخرج المختار، بعدما ضمنه جماعة من أصحابه. واجتمعت الشيعة عليه، وكثُر أصحابه وبايعوه في السر، وكان الذي يأخذ البيعة له ويُحرّض

(1) البداية والنهاية 12/5 وانظر تاريخ الطبري 6/7 والمتنظم 6/51 وتاريخ الإسلام (حوادث ووفيات) 80 61 هـ ص 50.

الناس عليه خمسة؛ السائب بن مالك الأشعري، ويزيد بن أنس، وأحمر بن شُمَيْط، ورفاعة بن شداد، وعبد الله ابن شداد الجشمي.

ولم يزل أمره يقوى ويشتد ويستفحل ويرتفع، حتى إن عبد الله بن الزبير لم يجد بداً من عزل واليِّه على الكوفة عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة، وبعث عبد الله بن مُطِيع نائباً عليها، وبعث الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة نائباً على البصرة.⁽¹⁾

في هذه الفترة اتفق رأي الشيعة على أن يكون خروجهم لليلة الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من تلك السنة سنة ست وستين.

الباحث: ماذا كان موقف الأمير الجديد ابن مطيع؟ هل علم بما يدبره الشيعة؟.

الحجاج: نعم بلغه ما اتفقوا عليه، فبعث الشرط في كل جانب من جوانب الكوفة، وألزم كل أمير بحفظ ناحيته أن يخرج منها أحد. فلما كانت ليلة الثلاثاء خرج إبراهيم بن الأشتر، وكان قد انضم إلى المختار بعد مشاورات بينهما، خرج قاصداً إلى دار المختار في مائة رجل من قومه، وعليهم الدروع تحت الأقيية، فلقاه إياس بن مضارب، وكان على تلك الناحية من الكوفة، فقال له: أين تريد يا ابن الأشتر في هذه الساعة؟ إن أمرك لمريب، فوالله لا أدعك حتى أحضرك إلى الأمير فيرى فيك رأيه.⁽²⁾ فتناول إبراهيم بن الأشتر رُمحاً من يد رجلٍ قطعنه، فسقط، وأمر رجلاً فاحتز رأسه، وذهب به إلى المختار فألقاه بين يديه، فقال المختار بشرك الله بخير، فهذا طائرٌ صالح، ثم طلب إبراهيم من المختار أن يخرج في

(1) البداية والنهاية 12 / 7

(2) البداية والنهاية 12 / 10 وراجع الطبري 6 / 20، 20

هذه الليلة، فأمر المختارُ بالنار أن تُرفع، وأن يُنادى بشعار أصحابه: يا منصورُ أمت، ويا ثارات الحُسين، ثم نهض المختار فجعل يلبسُ درعه وسلاحه وهو يقول: ⁽¹⁾

قَد عَلِمْتُ بَيْضَاءُ حَسَنَاءُ الطَّلَلِ
واضحةُ الخَدَيْنِ عِزَاءُ الكَفَلِ
أني غَدَاةَ الرُّوْعِ مِقْدَامُ بَطْلِ

وخرج بين يديه إبراهيم بن الأشتر، فجعل يتقصد الأمراء الموكِّلين بنواحي الكوفة؛ فيطردهم واحدا واحدا وينادي بشعار المختار، فاجتمع الناس عليه من كل صوب. فاجتمع إليه في الليل قريبٌ من أربعة آلاف، فأصبح وقد عبأ جيشه.

الباحث: وماذا كان رد ابن مطيع على ذلك؟

الحجاج: جهَّز ابن مطيع جيشاً هو الآخر من ثلاثة آلافٍ عليهم شَبْتُ بن رُبْعِي، وأربعة آلاف أخرى مع راشد بن إلياس بن مضارب. وبدأ القتال سجّالا بين الفريقين، ثم انتهى بانتصار المختار ومن معه وحصروا قصر الخلافة ثلاثة أيام، وفر ابن مطيع ليلاً، وفي الصباح، أخذ الأمراءُ ومن تبقى بالقصر أماناً لهم من أميرهم بن الأشتر فأمنهم، فخرجوا من القصر وجاءوا إلى المختار فبايعوه، وجاء المختار إلى القصر فدخله وبات فيه، ووزع الأموال على الجيش ومن كان معه. وخرج المختارُ إلى المسجد فصعد المنبر وخطب خطبة بليغة ثم دعا الناس إلى البيعة وقال: فوالذي

(1) البداية والنهاية 12 / 10 وانظر الطبري 6 / 20

جعل السماء سَقْفًا مكفوفًا والأرض فِجَاجًا سُبُلًا، ما بايعتم بعد بيعته عليّ
أهدى منها، ثم نزل فدخل القصر ودخل الناسُ يبايعونه على كتاب الله
وسنة رسوله، والطلبُ بثأر الحسين وأهل البيت.

ثم إن المختار بعث الأمراء إلى النواحي والبلدان والأقاليم والرساتق،
من أرض العراق وخراسان، وعَقَدَ الألوية والرايات، وجعل يجلسُ
للناس غُدُوَّةً وعَشِيَّةً يحكم بينهم.

ثم شرَعَ المختارُ يَتَّبِعُ قَتْلَةَ الحسين من شريفٍ ووضعٍ فيقتله، فقتل فيمن
قتل؛ خوليّ بن يزيد الأصبحيّ الذي احتز رأسَ الحسين رضي الله عنه، كما
قتل عمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذين قتلوا الحسين وقتل ابنه
أيضًا. ولما علم المختار أن ابن الزبير لا ينال منه وأن جيش الشام من قبل
عبد الملك بن مروان يقصدونه مع عبيد الله بن زياد في جمع كثير، شرع
يصانع ابن الزبير، يريد خداعه والمكر به، فكتب إليه: إني كنتُ بايعتك على
السمع والطاعة والنصح لك، فلما رأيتك قد أعرضت عني تباعدت عنك،
فإن كنتَ على ما أعهدُ منك فأنا على السمع والطاعة لك.⁽¹⁾

وقالوا إن المختار أرسل خطابًا لابن الحنفية مع رأس عمر بن سعد
ورأس ابنه، وذكر فيه أنه قتل من شرك في دم الحسين وأهل بيته وكل من
قدر عليه، وأنه لن يُعجز الله من بقي.⁽²⁾

الباحث: ولكن هذه الرسائل متضاربة فكيف يدعو لمحمد بن الحنفية وفي نفس
الوقت يتقرب إلى ابن الزبير؟

(1) البداية والنهاية 12 / 32 وانظر تاريخ الطبري 6 / 71، والكمال 4 / 246.

(2) البداية والنهاية 12 / 28 وانظر الطبري 6 / 62.

الحجاج: كان المختار يُداهن ويمكر بابن الزبير، ثم إن مراسلاته لابن الزبير كانت سرا لا يعلم عنها الشيعة شيئا. وكان ابن الزبير يرتاب في نواياه ويختبرها بين الحين والحين، فتبين له سوء نيته وقصده،

وكان ابن الزبير يريد أن يجتمع له من البيعة أكابر القوم فعمد إلى ابن الحنفية وسبعة عشر رجلاً من أشرف أهل الكوفة فحبسهم حتى يبايعوه، فكرهوا أن يبايعوا إلا من اجتمعت عليه الأمة، فتهددهم وتوعدهم واعتقلهم بزمزم، فكتبوا إلى المختار بن أبي عبيد يستصرخونه ويستنصرونه، ويقولون له: إن ابن الزبير قد توعدنا بالقتل والحريق، فلا نخذلونا كما خذلتُم الحسين وأهل بيته.

الباحث: وماذا كان رد المختار؟

الحجاج: جمع الشيعة وقرأ عليهم الكتاب وقال: لست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرا مؤزرا. وأرسل رجاله وقواته إلى الكعبة فدخلوا المسجد الحرام نهاراً جهاراً، وهم يقولون: يا ثارات الحسين. وكان ابن الزبير قد أعد الحطَب لابن الحنفية وأصحابه ليحرقهم به إن لم يبايعوا، وقد بقي من الأجل يومان، فعمد الفرسان الذين أرسلهم المختار إلى محمد بن الحنفية فأطلقوا سراحه من سجن ابن الزبير وطلبوا من ابن الحنفية أن يأذن لهم بقتال ابن الزبير قال: لا أرى القتال في المسجد وحاول ابن الزبير منعهم من الخروج قبل أن يبايعوه فلم يقدر، وهم يهتفون يا ثارات الحسين فخافهم ابن الزبير وكف عنهم، فخرجوا جميعاً وبقيّة أصحابهم.⁽¹⁾

وفي نهاية هذا العام وجّه المختار إبراهيم بن الأشتر لقتال أهل الشام، وخرج معه المختار يُودّعه في وجوه أصحابه، وخرج معهم خاصة المختار، ومعهم كُرسِيّ المختار على بغل أشهب، ليستنصروا به على

(1) البداية والنهاية 36/12 وانظر تاريخ الطبري 6/75.

الأعداء، وهم حافون يستصرخون ويستنصرون ويتضرعون. فجعل ابن الأشر بعد رجوع المختار، يقول: اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. فلما جاوز إبراهيم وأصحابه القنطرة انصرف أصحاب الكرسي⁽¹⁾.

الباحث: ماهذا الكرسي وما قصته؟

الحجاج: يحكي طفيل بن جعدة بن هبيرة قصة هذا الكرسي فيقول: أعدمت مرة من الورق فإني لذلك إذ مررت بباب جار لي له كرسي قد ركبه وسخ شديد، فخطر على بالي أن لو قلت في هذا؛ فرجعت فأرسلت إليه أن أرسل إلي بالكرسي. فأرسل به، فأتيت المختار فقلت له: إنني كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لي أن أذكره لك. قال: وما هو؟ قال: قلت: كرسي كان جعدة بن هبيرة يجلس عليه كأنه يرى أن فيه أثرة من علم. قال: سبحان الله! فأخبرت هذا إلى اليوم؟ ابعث إليه. قال فجئت به وقد غُسل فخرج عوداً نضاراً وقد تشرب الزيت، فأمر لي باثني عشر ألفاً، ثم نودي في الناس: الصلاة جامعة. قال: فخطب المختار الناس فقال: إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن في هذه الأمة مثله، وإنه قد كان في بني إسرائيل التابوت يُنصرون به، وإن هذا مثله، ثم أمر فكشف عنه أثوابه، وقامت السبيّة فرفعوا أيديهم وكبروا ثلاثاً، فقام شيب بن ربعي فأنكر على الناس وكاد أن يكفر من يصنع بهذا الكرسي هذا التعظيم، وأشار بأن يكسر ويخرج من المسجد ويرمى في الحش.

فلما قيل: هذا عبيد الله بن زياد قد أقبل، وبعث المختار إبراهيم بن الأشر، بعث معه بالكرسي يحمل على بغل أشهب قد غُشي بأثواب الحرير، عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة، فلما تواجها مع الشاميين، غلبوا الشاميين وقتلوا ابن

(1) البداية والنهاية 37/12 وانظر تاريخ الطبري 82/6

زياد، ازداد تعظيمهم لهذا الكرسي حتى بلغوا به الكفر، قال الطفيل بن جعدة:
فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون. وندمتُ على ما صنعتُ، وتكلم الناس في هذا
الكرسي، وكثر عيبُ الناس له، فغُيبَ حتى لا يُرى بعد ذلك.⁽¹⁾

وقد قال أعشى همدان في هذا الكرسي:⁽²⁾

شهدتُ عليكم أنكم سبيّةٌ	وإني بكم يا شرّطَ الشّرك عارفٌ
وأقسمُ ما كرسيّكم بسكينةٍ	وإن كان قد لُفّت عليه اللّفائفُ
وأن ليس كالتابوتِ فينا وإن سعتُ	شِباءَ حواليه ونَهْدَ وخارفُ
وإني امرؤُ أحببتُ آلَ محمدٍ	وتابعتُ وحيّا ضمّنته المصاحفُ
وتابعتُ عبدَ الله لما تابعتُ	عليه قریشُ شمطُها والغَطارفُ

الباحث: كانت مصرٌ بعيدةً عن هذه المهارات في هذه الفترة!

الحجاج: في هذا العام بالتحديد عام ستّة وستين وقع بمصر الطاعون وهلك فيه
خلقٌ كثير من أهلها، وكان واليها حينئذٍ عبد العزيز بن مروان، وفي هذا
العام أيضًا ضرب عبدُ العزيز بن مروان الدنانير، وهو أولٌ من صَرَبَها بها.⁽³⁾
وفي هذا العام ابتداءً عبد الملك بن مروان ببناء القبة على صخرة بيت
المقدس، وعمارة الجامع الأقصى، ووكّل بالعمل رجاء بن حيوة، ويزيد
بن سلام، وكمّلت عمارته في سنة ثلاثٍ وسبعين.⁽⁴⁾

الباحث: نعود بأبامحمد إلي التواريخ.

(1) البداية والنهاية 12 / 37 39 وانظر تاريخ الطبري 6 / 82

(2) المرجع السابق 6 / 83، 84 والبداية والنهاية 12 / 40

(3) البداية والنهاية 12 / 40 وانظر تاريخ خليفة 1 / 332، وتاريخ الاسلام 53 / 5.

(4) البداية والنهاية 12 / 41

سنة سبع وستين من الهجرة.

المختار يواصل الانتصار

الحجاج: نعم، في هذا العام كان مقتل عبيد الله بن زياد على يدي ابراهيم بن الأشتر النخعي، فقد استهلت هذه السنة وابن الأشتر سائر لقصد ابن زياد في أرض الموصل، فكان اجتماعهما بمكان يقال له: الخازر. بينه وبين الموصل خمسة فراسخ. فعبا ابن الأشتر جيشه وصلى بأصحابه الفجر، ثم ركب فناهض جيش ابن زياد. فجعل يُحرّض الجنود على قتال ابن زياد ويقول: هذا قاتل ابن بنت رسول الله ﷺ، قد جاءكم الله به وأمكنكم الله منه اليوم، فعليكم به؛ فإنه قد فعل في ابن بنت رسول الله ﷺ ما لم يفعله فرعون في بني اسرائيل، هذا ابن زياد قاتل الحسين الذي حال بينه وبين الفرات أن يشرب هو وأولاده ونساؤه، ومنعه أن ينصرف إلى بلده، أو يأتي يزيد بن معاوية حتى قتله! ويحكم، اشفوا صدوركم منه، وارووا رماحكم وسيوفكم من دمه، هذا الذي فعل في آل نبيكم ما فعل، قد جاءكم الله به.

وكان ابن زياد قد أقبل في جيش كثيف، والتقى الجيشان، وقاتل ابن الأشتر يومئذ قتالا عظيما، وكان لا يضرب بسيفه رجلا إلا صرعه، فانهزم جيش الشام بين يديه، فجعل يقتلهم كما تُقتل الحملان، واتبعهم بنفسه ومن معه من الشجعان وثبت عبيد الله بن زياد في موقفه حتى اجتاز به ابن الأشتر فقتله وهو لا يعرفه حتى التمسوه فيما بعد فإذا هو ابن زياد، فاحتزوا

رأسه، وبعثوه إلى المختار بالكوفة مع البشارة بالنصر والظفر بأهل الشام، فأرسل المختار الرءوس إلى ابن الزبير فنصبت بمكة والمدينة.⁽¹⁾ وقد قُتل من أهل الشام من رءوسهم حُصين بن نمير وشُرحيل بن ذي الكلاع، وغيرهم وأتبع الكوفيون أهل الشام فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، وغرق منهم أكثر ممن قُتل، واحتازوا ما في معسكرهم من الأموال والخيول.⁽²⁾

وفي نشوة المختار بالنصر، تمكن جماعة من معارضيهِ من الخروج إلى البصرة؛ ليجتمعوا بمصعب بن الزبير، وكان منهم شَبْتُ بن رَبِيعٍ. أما ابن الأشر لما بعث بالبشارة ورأس عبيد الله بن زياد إلى المختار، بدأ يستقلُّ في تلك البلاد فبعث أخاه لأمه عبد الرحمن بن عبد الله على نيابة نصيبين، وبعث عمًّا إلى الموصل، وأخذ سِنَجَارَ ودارا وما والاها من الجزيرة.⁽³⁾ واستمر مقيمًا في تلك البلاد.

الباحث: فرح الناس بمقتل ابن زياد قاتل الحسين؟.

الحجاج: نعم فرحوا وقال الشعراء في ذلك شعراً منهم سراقه بن مرداس البارقى وهو يمدح ابن الأشر على قتله ابن زياد:⁽⁴⁾

أَتَاكُمْ غَلَامٌ مِنْ عَرَايِنِ مَذْحِجٍ	جَرِيٌّ عَلَى الْأَعْدَاءِ غَيْرُ نَكُولٍ
فِيَا ابْنَ زِيَادٍ بُوٌّ يَأْظُمُ مَالِكٍ	وَذُقْ حَدَّ مَاضَى الشَّفَرَتَيْنِ صَقِيلٍ

(1) البداية والنهاية 57/ 12 وانظر تاريخ دمشق 44/ 247 وإن كان صاحب البداية والنهاية يرى أن ارسال الرءوس إلى ابن الزبير من المختار أمر متعذر لأن الخلاف بينهما قد بلغ في هذه الفترة مبلغاً لا يسمح للمختار بأن يفعل ذلك. وعما قليل من هذه السنة يبعث ابن الزبير أخاه مصعباً من البصرة إلى الكوفة لحصار المختار وقتاله.

(2) البداية والنهاية 47/ 12 وانظر تاريخ الطبري 6/ 91

(3) البداية والنهاية 48/ 12

(4) المرجع السابق ص 49 وتاريخ الطبري 6/ 92 وديوان سراقه ص 81، 82.

ضَرَبْنَاكَ بِالْعَصَبِ الْحُسَامِ بِحَدِّهِ إِذَا مَا أَبَانَا قَاتِلًا بِقَتِيلِ
جَزَى اللَّهُ خَيْرًا شُرْطَةً اللَّهُ إِنَّهُمْ شَفَوْا مِنْ عُيْبِ اللَّهِ أَمْسٍ غَلِيلِ

الباحث: لا شك ان ابن الزبير فرح بانكسار جيش ابن زياد ومقتله على يد جيش المختار.؟

الحجاج: بالتأكيد، ولكنه انزعج كثيرا لقوة أنصار المختار وصلابة جيش ابن الأشر والذي ظهر على حلبة الصراع بقوة حتى إنه يكسر جيش عبد الملك على كثرة عدده وعدته. لذلك عزل ابن الزبير نائبه على البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي المعروف بالقباع، وولاها لأخيه مصعب بن الزبير؛ ليكون كُفُوًا وقرنًا وردءًا من المختار.

الباحث: ولكننا نجد أن مصعبًا دخل في حربٍ مع المختار، فكيف تجرأ عليه هكذا، وقد استطاع المختارُ كَسَرَ جيشِ عبدِ الملك وقتل ابن زياد؟

الحجاج: لقد تجرأ مصعب بن الزبير على المختار لأسباب عدة،⁽¹⁾ أهمها؛ أن من بقي في الكوفة ممن يُعادي المختارَ استغل انشغاله بفرحة الانتصار على ابن زياد وفروا إلى البصرة للانضمام الى مصعب، هذه واحدة، الثانية أن ابن الأشر قائد الجيش المنتصر لم يعد إلى الكوفة بل استقرَّ بالبلاد التي انتصر بها وأخذ في التوسع وترتيب الإمارات من طرفه ولم يعد الى الكوفة؛ استهانةً منه بالمختار. فطمع مصعبُ فيه، وبعث محمد بن الأشعث بن قيس على البريد إلى المُهَلَّبِ بن صُفْرة، وهو نائبهم على خراسان، فَقَدِمَ في مالٍ وجنودٍ وعُدَدٍ وجيشٍ كثيف، فرح به أهل البصرة

(1) هذه وجهة نظر الباحث وليس كلام الحجاج على التحقيق.

وتَقَوَّى به مصعب واستبشر وركب إلى المختار في الكوفة في البر والبحر، في جيشٍ عظيم⁽¹⁾

أما المختار فقد استعد وجَهَّز ما لديه من قوات ولم تكن قليلة، كانوا مايقرب من عشرين ألفاً⁽²⁾ لمواجهة جيش مصعب بن الزبير، وانهزمت مقدمة جيش المختار ومات الكثير من الأمراء والشيعية، ثم التحم الجيشان فاقتلوا قتالا شديدا إلى الليل فُقُتِلَ أعيانُ أصحاب المختار، فجعل أنصار المختار ينصرفون عنه إلى مصعب ويدْعُونَه إلا قليلا منهم. وقُتِلَ في تلك الليلة محمد بن الأشعث وعُبَيد الله بن علي بن أبي طالب.

وتفرَّق عن المختار باقي أصحابه، فقبل له القصر القصر. فقال: والله ما خرجت منه وأنا أريد أن أعود إليه، ولكن هذا حُكْمُ الله، ثم سار إلى القصر فدخله وتحصَّن به. وجاء مصعبُ ففرَّق القبائل في نواحي الكوفة، ثم خلصوا إلى القصر. وقد منَعُوا المختارَ الطعامَ والماء، وكان المختار يخرجُ فيقاتلهم ثم يعود إلى القصر فحاصره، واستمر الحصارُ أربعة أشهر، ولما اشتد عليه الحصارُ قال المختارُ لأصحابه: إن الحصار لا يزيدنا إلا ضعفاً فانزلوا بنا حتى نقاتل حتى الليل حتى نموت كراماً. فوهنوا، فقال أما أنا فوالله لا أعطي بيدي. ثم اغتسل وتطيَّب وتحنَّط وخرج، فقاتل هو ومن معه حتى قُتِلوا.⁽³⁾

الباحث: هل تعرف من قتله.

(1) البداية والنهاية 59/ 12 وتاريخ الطبري 93/ 6

(2) البداية والنهاية 12/ 71 وانظر الطبري 115، 114/ 6 والكمال 277/ 4

(3) البداية والنهاية 61/ 12 وانظر تاريخ الطبري 6/ 101، 106، 107.

الحجاج: نعم، قتله رجلان شقيقان هما طرفة وطرف ابن عبد الله بن دجاجة من بني حنيفة، قتلاه واحتزا رأسه وأتيا به إلى مصعب بن الزبير وقد دخل قصر الإمارة فوُضِعَ بين يديه، كما وُضِعَ رأسُ ابن زيادٍ بين يدي المختار، وكما وُضِعَ رأس الحسين بين يدي ابن زيادٍ.

الباحث: هل كافأهما مصعب؟

الحجاج: نعم أمر لهما بثلاثين ألفاً. وقد قُتِلَ من أصحاب المختار في المعركة الكثير وأُسِرَ منهم خمسمائة أسير، فضربت أعناقهم عن آخرهم في يوم واحد. وأمر مصعب بن الزبير بكف المختار فُقِطِعَتْ وَسُمِّرَتْ إلى جانب المسجد، فما زالت هناك حتى قَدِمَتْ الكوفة فرفعتها وأمرتُ بدفنها.

الباحث: كيف ترى هذه النهاية يا حجاج؟

الحجاج: لاشك كان المختار بطلاً ليس مثله كثير، هذا إن غضضنا الطرف عن مذهبه ومعتقده. وليس أدلّ على بطولته من هذه النهاية.

الباحث: يُقال كان للمختار زوجتان؟

الحجاج: نعم، وقد سأل مصعب زوجته أم ثابت بنت سمرّة بن جندب سألها عنه فقالت: ما عسى أن أقول فيه إلا ما تقولون أنتم فيه؟ فتركها واستدعى زوجته الأخرى؛ وهي عمرة بنت النعمان بن بشير، فقال لها: ما تقولين فيه؟ فقالت: ⁽¹⁾ رحمه الله، لقد كان عبداً من عباد الله الصالحين. فسجنها وكتب إلى أخيه عبد الله بن الزبير: إنها تقول إنه نبيٌّ. فكتب إليه

(1) البداية والنهاية 63/12 وانظر تاريخ الطبري 112/6 والكامل 4/275، 276.

أن أخرجها فاقتلها فأخرجها إلى ظاهر البلد فضربت حتى ماتت، فقال في ذلك عمرو بن أبي ربيعة المخزومي: ⁽¹⁾

إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ عِنْدِي قَتَلَ بِيضَاءَ حُرَّةٍ عَطْبُولِ
قُتِلْتُ هَكَذَا عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ إِنَّ اللَّهَ دَرَّهَا مِنْ قَتْلِ
كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جُرُّ الذُّيُولِ

الباحث: كيف ترى هذه الدماء التي تجري في تلك الحروب وخاصة دماء الأسرى وأنهم يشهدون ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

الحجاج: مصعب يعتبرهم خارجين على الخليفة عبد الله بن الزبير، ولذلك استحل قتلهم، ولو كنت مكانه لفعلت ما فعل، وما أخذني بهم رحمة ولا شفقة. وإن كان البعض يرى غير ذلك، مثل عبد الله بن عمر.

الباحث: كيف؟

الحجاج: بلغني أن مصعب لقي عبد الله بن عمر فسلم عليه، فقال ابن عمر: من أنت؟ فقال له: أنا ابن أخيك، مصعب بن الزبير. فقال له ابن عمر: نعم، أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة؟ عيش ما استطعت! فقال مصعب: إنهم كانوا كفرة سحرة. فقال ابن عمر: والله لو قتلت عدتهم غنماً من ثراث أبيك لكان ذلك سرفاً. ⁽²⁾

قُتِلَ الْمُخْتَارُ فِي الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِينَ مِنَ الْهَجْرَةِ وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ سَبْعٌ وَسِتُونَ سَنَةً. ⁽³⁾

(1) المراجع السابقة والديوان ص 498.

(2) البداية والنهاية 12 / 64 وانظر الطبري 113، 112 / 6.

(3) البداية والنهاية 12 / 72 وانظر الطبري 115، 114 / 6 والكامل 4 / 277.

الباحث: بلغنا حديثاً عن سيدتنا أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تقول فيه إن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا»⁽¹⁾ هل بلغك هذا الحديث؟

الحجاج: أدرك ما ترمي إليه، نعم بلغني عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه، وقالت: إن الكذاب قد عرفناه المختار بن أبي عبيد الثقفي، وأما المبير فهو أنت تقصدني وكان ذلك بعد مقتل ولدها عبد الله بن الزبير.⁽²⁾ وقالوا عن المختار الكذاب لأنه كان يُظهرُ التشيعَ ويبطن الكهانةَ، ويُسرُّ إلى أخصائه أنه يُوحى إليه. وكانت هذه أعظم سقطاته.

الباحث: نعود إلى التواريخ يا حجاج.

(1) أخرجه الإمام مسلم (2545) وانظر الجرح والتعديل 8/379 وذكر هذا الحديث في دلائل النبوة 6/486.

(2) ويقول صاحب لسان العرب: وفي حديث أسماء في ثقيف: كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ، أي مُهْلِكٌ يُسْرِفُ في إهلاك الناس؛ يُقَالُ بَارَ الرَّجُلُ يَبُورُ بَوْرًا، وَأَبَارَ غَيْرَهُ، فهو مُبِيرٌ. ودار البوار: دار الهلاك. راجع السانج 1 مادة (ب و ر) ص 385 طبعة دار المعارف.

سنة ثمان وستين من الهجرة الصراع مع الأزارقة

الباحث: ماذا حدث في هذه السنة يا حجاج؟

الحجاج: اقول لك: كان عبدُ الله بن الزبير قد عزل أخاه مصعبًا عن البصرة بآبنة حمزة، فأعادَهُ إليها مرةً أخرى بالإضافة إلى الكوفة، واستعمل على المدينة جابر بن الأسود الزهري، وعزل عنها عبد الرحمن بن الأشعث؛ لكونه ضرب سعيد بن المسيَّب ستين سوطاً، فإنه أراد أن يبايع لابن الزبير فامتنع من ذلك فضربه، فعزله عبدُ الله بن الزبير.

وفيها أيضاً كانت جولة من جولات الخوارج ضد النظام القائم، سواء كان زبيرياً أم أمويًا، فكانت وقعة الأزارقة، وذلك أن مصعبًا كان قد عزل عن ناحية فارس المهلب بن أبي سُفرة، وكان قاهراً لهم، وولاه الجزيرة، وولَّى على فارس عمرَ بن عبيد الله بن معمر، فثار الأزارقة عليه، فقاتلهم عمر بن عبيد الله فقهرهم وكسرهم، وكانوا مع أميرهم الزبير بن الماحوز، ففروا بين يديه إلى اصطخر، فاتَّبَعَهُمْ فقتل منهم مقتلَةً عظيمةً، وقتلوا ابنه، ثم ظفر بهم مرةً أخرى، ثم هربوا إلى بلاد أصبهان ونواحيها، فتقووا هنالك وكثر عددهم وعدتهم، ثم اقبلوا يريدون البصرة، وقد تحاليلوا حتى لا يواجهون عمر بن عبيد الله بن معمر مرةً أخرى فتركوه وراء ظهورهم وقصدوا البصرة فعلم مصعب بن الزبير بقدومهم فتجهز لهم، وكذلك

تنبه عمر بن عبيد الله لحيلتهم فتبعهم، فأدركوا خطورة وضعهم، فعدلوا وجهتهم إلى المدائن وعاثوا فيها فسادا وتقتيلا للنساء والولدان، فقصدهم نائب الكوفة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة الذي يُقال له القَبَّاعُ ومعه ابن الأشر وشبت بن ربيعي ففروا هارين فاتبعهم عبد الرحمن بن الأحنف في ستة آلاف ففروا إلى أصبهان فرجع عنهم، ثم رجعوا فحاصروا عتَّاب بن ورقاء شهرا، بمدينة جُبَّاء، ثم تواجها فقاتلهم عتاب وانتصر عليهم وقتل أميرهم الزبير بن الماحوز وغنموا ما في معسكرهم، فأمر الخوارج عليهم قَطْرِيَّ بن الفُجَاءة، ثم ساروا إلى بلاد الأهواز ثم وَجَّهَ مصعب بن الزبير إليهم المهلب بن أبي صُفرة لقاتلهم، فانصرف إليهم يقاتلهم على مدى ثمانية أشهر قتالاً لم يُسَمَّعْ بمثله.⁽¹⁾

الباحث: وفي هذه السنة تُوفي عبدُ الله بن عباس⁽²⁾ ابن عم رسول الله ﷺ، حَبْرُ الأُمَّةِ وتُرْجَمَانِ القرآن، روى عن رسول الله ﷺ شيئا كثيرا وعن جماعة من الصحابة وأخذ عنه خلقٌ من الصحابة وأممٌ من التابعين. يُقالُ إنه كُفَّ بَصَرُهُ قبل وفاته؟

الحجاج: نعم، وله في ذلك شعرٌ يقول فيه:⁽³⁾

إِنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نَوْرَهُمَا ففِي لِسَانِي وَسَمْعِي مِنْهُمَا نَوْرُ
قَلْبِي ذِكْرِي وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ وَفِي فَمِي صَارُمٌ كَالسَيْفِ مَأْثُورُ

الباحث: كم بلغ من العمر عبد الله بن عباس حين مات؟

(1) البداية والنهاية 12 / 75 وانظر تاريخ الطبري 6 / 119، 120 والكمال 4 / 282

(2) البداية والنهاية 12 / 78 وانظر الاستيعاب 3 / 933 وأسد الغابة 3 / 290، والإصابة 4 / 141.

(3) البداية والنهاية 12 / 108 وانظر ابن قُتَيْبَةَ في الشعر والشعراء 2 / 854 وابن عبد البر في الاستيعاب 3 / 938.

الحجاج: كان عمره حينها اثنتين وسبعين سنة.

الباحث: هل يمكن أن تصفه لي؟

الحجاج: نعم⁽¹⁾، كان رحمه الله جسيما، إذا قعد يأخذ مكان اثنين، جميلا له وفرة، قد شاب مقدّم رأسه، وشابت لِمَتُّه⁽²⁾، وكان يُخضب بالحناء، كان حسن الوجه، وكان يلبس الحسن من الثياب، ويكثر من التَّطْيُبِ، بحيث إذا مرّ من طريق تقول هذا ابن عباس، أو رجل يحمل مسكًا، كان وسيما أبيضًا طويلا، صبيحا، فصيحًا، ولمّا عمي في أواخر أيامه اعتري لونه صُفرةٌ يسيرة.

الباحث: وماذا عما رواه من الحديث؟

الحجاج: ابن عباس روى ما يقرب من ألفٍ وستمائة حديثٍ. وكان يُقال عنه تُرْجَمَانُ الْقُرْآنِ.

(1) البداية والنهاية 12 / 110.

(2) اللَّمَّة: شعر الرأس المجاوز لشحمة الأذن.

سنة تسع وستين من الهجرة عبد الملك بن مروان وعمر بن سعيد الأشدق والصراع على الساطة

الباحث: ماذا حدث في هذه السنة يا حجّاج؟

الحجّاج: في هذه السنة حدثت واقعة كادت أن تعصف بالبيت الأموي في دمشق، ولكنها انتهت بمقتل عمرو بن سعيد الأموي الأشدق، قتله عبد الملك بن مروان.

الباحث: ماذا حدث؟

الحجّاج: كان سبب ذلك أن عبد الملك بن مروان ركب في أوائل هذه السنة في جنوده قاصدا قرقيسيا؛ ليحاصر زُفر بن الحارث الكلابي الذي أعان سليمان بن صُرَدَ على جيش مروان حين قاتلوهم بعين وردة، وكان من عزمه إذا فرغ من ذلك أن يقصد مصعب بن الزبير بعد ذلك، وكان معه عمرو بن سعيد الأشدق، فلما كان الليل انخذه عنه عمرو بن سعيد في طائفة من الجيش وكرّ راجعا إلى دمشق ومعه حميد بن حُرَيْث بن بجدل الكلبي وزهير بن الأبرد الكلبي، فلما انتهوا إلى دمشق وكان عليها عبد الرحمن بن أم حكيم نائبا من قبل عبد الملك بن مروان، فلما أحس بهم هرب وترك البلد فدخلها عمرو بن سعيد،⁽¹⁾ فاستحوذ على ما فيها من

(1) البداية والنهاية 12 / 114 وانظر تاريخ الطبري 6 / 140

خزائن، وخطب الناس فوعدهم بالعدل والنصف والعطاء الجزيل والثناء الجميل، ولما علم عبد الملك بما فعله الأشدق، كرّر راجعاً من فوره، فوجد الأشدق قد انحاز إلى حصنٍ روميٍّ منيعٍ في دمشق، وتحصّن فيه. فحاصره عبد الملك وقاتله عمرو بن سعيد الأشدق مدة ستة عشر يوماً، وراسله عبد الملك قائلاً: أنشدك الله والرحم أن تُفسدَ أمر بيتك وما هم عليه من إجتماع الكلمة، وإن فيما صنعت قوةً لابن الزبير فارجع إلى بيعتك ولك علي عهد الله وميثاقه، وكتب بينهما كتاباً أن يكون هو ولي العهد من بعده، فانخدع عمرو له وفتح له أبواب دمشق، ثم اصطالحا على ترك القتال⁽¹⁾، وما زال به عبد الملك حتى استدرجه إلى دار الإمارة وقتله، وكان آخر ما قاله عبد الملك لعمر بن سعيد الأشدق قبل أن يذبحه: والله لو أعلم أنك إذا بقيت تفي لي وتصلحُ قريشُ لأطلقتك، ولكن ماجتمع رجلان قط في بلدٍ على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه. ثم ذبحه ودفع الرأس إلى عبد الرحمن بن أم الحكم، فخرج بها إلى الناس فألقاها بين أظهرهم وخرج عبد العزيز بن مروان ومعه البدرُ من الأموال تُحمل، فألقيت بين الناس فجعلوا يختطفونها. ويقال: إنها استرجعت بعد ذلك إلى بيت المال.

الباحث: قالوا إن والدك يوسف بن الحكم الثقفي تُوفي في هذا العام.

الحجاج: نعم عليه رحمة الله، قدّم من الطائف إلى الشام ثم ذهب إلى مصر والمدينة، وتعلّم أنه كان يُلَازِم مروان بن الحكم.⁽²⁾

(1) البداية والنهاية 12 / 115 وانظر تاريخ الطبري 141 / 6، 142 والكمال 4 / 298

(2) البداية والنهاية 12 / 129 وانظر مختصر تاريخ دمشق 78 / 80، وتاريخ الإسلام (حوادث

ووفيات 61 80) ص 275

الباحث: ثم دخلت سنة سبعين من الهجرة فما أحدث هذه السنة يا حجاج؟
الحجاج: أقول لك: عندما أدرك الرومُ الخلافَ القائمَ بين عبد الملك بن مروان
وعبد الله بن الزبير، استجاشوا على من بالشام، فصالح عبد الملك بن
مروان ملك الروم، وهادنه على أن يدفع إليه عبد الملك في كل جمعة
ألف دينار.

وفي هذه السنة أيضا وقع الوباء بمصر، فهرب منه عبد العزيز بن مروان
إلى الشرقية، فنزل حلوان وهي على مرحلة من الفسطاط، واتخذها منزلا
واشترأها من القبط بعشرة آلاف دينار، وبنى بها دارا للإمارة وجامعا،
وأنزلها الجند.⁽¹⁾

سنة إحدى وسبعين من الهجرة عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير

الباحث: ماذا حدث في هذه السنة يا حجاج؟

الحجاج: هذه السنة مهمة في تاريخ الصراع بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان.

الباحث: كيف ذلك؟

الحجاج: أقول لك: في هذه السنة سار عبدُ الملك بن مروان في جنودٍ هائلة من الشام قاصداً مصعبَ بن الزبير بالعراق، وبعث بين يديه السرايا ودخل بعضُ من أرسله إلى البصرة فدعا أهلها إلى عبد الملك في السرِّ، فاستجاب بعضهم، فلما بلغ مصعباً قصدُ عبد الملك خرج إليه، ووصل عبد الملك إلى مسكن وكتب إلى المروانية الذين استجابوا إلى من بعثه إليهم فأجابوه، واشتروطوا عليه أن يوليهم أصبهان، فقال: نعم. وهم جماعة كثيرةٌ من الأمراء.

وخرج مصعب بن الزبير، وقد اختلف عليه أهل العراق، وخذلوه وجعل يتأمل من معه فلا يجدهم يقاومون أعداءه، فاستقتل وطمّن نفسه على ذلك، وقال: لي بالحسين بن عليٍّ أسوةٌ حين امتنع من إلقاء يده ومن الذلة لعبيد الله بن زياد، وجعل ينشد ويقول مسلينا نفسه:

وإنَّ الأليَّ بالطَّفِّ من آل هاشمٍ تأسَّؤا فسئوا للكرامِ التَّاسِيَا

فلَمَّا تقارب الجيشان بعث عبدُ الملك إلى أمراء مصعب يدعوهم إلى نفسه ويعددهم الولايات، فلما علم مصعبُ بالأمر، وتوجس من بعضهم الخيانة قال: رحم الله أبا بحر يعني الأحنف بن قيس إن كان ليحذرني غدر أهل العراق، وكأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه الآن.

ثم تواجه الجيشان بدير الجاثليق من مسكن، واشتد القتال وفرَّ من فرَّ من جيش مصعب إلى جيش عبد الملك، وتخاذل الرجال حول مصعب وضاق به الحال وكثر النزال.

وأرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان إلى مصعب يُعطيه الأمان فأبى، وقال: إن مثلي لا ينصرف عن هذا الموضع إلا غالباً أو مغلوباً. ثم قال ولكن أقاتل فإن قُتِلْتُ فما السيف لي بعار، والله لا تتحدث قريشُ عني أني فررت من القتال، وتقدم ابنه عيسى فقاتل حتى قُتل وقاتل مصعب قتالا شديدا حتى أُثخن بالرمي، فنظر إليه زائدة بن قدامة، وهو كذلك فحمل عليه فطعنه، وهو يقول: يا ثارات المختار فصرعه، ونزل رجل يُقال له: عبيد الله بن زياد بن ظبيان التميمي. فقتله واحتز رأسه، واتى بها عبد الملك بن مروان، فسجد عبد الملك. ثم قال: لقد كان بيني وبين مصعبِ صُحبةٌ قديمةٌ، وكان من أحب الناس إليَّ، ولكن الملك عقيم.⁽¹⁾

الباحث: ومتى كان مقتل مصعب بن الزبير تحديداً؟

الحجاج: قُتِلَ مصعب بن الزبير يوم الثلاثاء الثالث عشر من جمادى الأولى من سنة إحدى وسبعين من الهجرة.⁽²⁾

(1) البداية والنهاية 12 / 139 وانظر تاريخ بغداد 13 / 107.

(2) البداية والنهاية 12 / 140 وانظر تاريخ الطبري 6 / 162 وتاريخ دمشق 543 / 16. وقد يكون جمادى الآخرة، ففيه شك.

وممن قُتِلَ مع مصعب في هذه الواقعة ابراهيم بن الأشتر وكان أبوه الأشتر من كبار أعوان عليٍّ، واستعمله عليٌّ على خراسان، وهو ممن قام على عثمان وقتله، وكان ابراهيم هذا من الأمراء المعروفين بالشجاعة وله شرفٌ، وهو الذي قتل عبيد الله بن زياد كما ذكرنا، ثم صار إلى مصعب بن الزبير، وقُتِلَ معه هذه السنة. ⁽¹⁾

ولما قَتَلَ عبدُ الملك مصعباً ارتحل إلى الكوفة، فنزل النخيلة، فوفدت عليه الوفود بها من رؤساء القبائل وسادات العرب، وبايعة العراق، وفرَّق العِمالات، ثم رجع إلى الشام. ⁽²⁾

الباحث: وماهي أخبار مصر في هذه الظروف؟

الحجاج: مصرٌ بعيدة عن هذه المنطقة من مناطق الصراع الدائر بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، وإن كان هذا لم يمنع عبد العزيز بن مروان نائب مصر في هذا العام من أن يعقدَ لحَسَّانَ الغَسَّانِيَّ على غزو إفريقية، فسار إليها في عددٍ كثيرٍ، فافتتح قَرْطَاجَنَةَ، وكان أهلها رومًا يعبدون الأصنام. ⁽³⁾

(1) البداية والنهاية 12 / 158 وراجع جمهرة أنساب العرب 415 وسير أعلام النبلاء 4 / 35 وتاريخ الإسلام (حوادث ووفيات 80 61 هـ) ص 344 والوافي بالوفيات 6 / 99، ومراة الجنان 1 / 148.

(2) البداية والنهاية 12 / 142 وانظر تاريخ الطبري 6 / 165.

(3) البداية والنهاية 12 / 143.

سنة اثنتين وسبعين من الهجرة

العراق يدخل حوزة عبد الملك بن مروان

الباحث: وماهي أحداث هذه السنة؟

الحجاج: كانت هناك حروبٌ امتدت لشهور طويلة مع الأزارقة، فلما بايع أهل العراق عبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب بن الزبير، أرسل عبد الملك المهلب بن أبي صُفْرَةَ أميراً على الأهواز وما معها، ثم توقع الناس في دولة عبد الملك بالأهواز، فكسر الناس الخوارج كسرةً عظيمة، فهربوا في البلاد لا يلوون على شيء وأتبعهم خالد بن عبد الله أمير البصرة، وداود بن قحذم ليطردهم، وأرسل عبد الملك إلى أخيه بشر بن مروان أن يمدّهم بأربعة آلاف، فبعث إليه أربعة آلاف عليهم عتّاب بن ورقاء، فطردوا الخوارج شرّاً طردة.⁽¹⁾

أما خراسان، فقد كتب عبد الملك بن مروان إلى عبد الله بن خازم أمير خراسان يدعوه إلى بيعته، ويُقطّعه خراسان سبع سنين، فلما وصل إليه الكتاب قال للرسول: بعثك أبو الذُّبَّان؟ والله لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتك، ولكن كُلُّ كتابه. فأكله. وبعث عبد الملك إلى بكير بن وشاح نائب ابن خازم على مرو يعهده بإمرة خراسان إن هو خلع عبد الله بن خازم فخلعه، فجاءه ابن خازم فقاتله فقتل في المعركة عبد الله بن

(1) البداية والنهاية 163/12 وانظر تاريخ الطبري 173/6 والكامل 4/344.

خازم، قَتَلَهُ وَكَيْعُ بْنُ عَمِيرَةَ،⁽¹⁾ وَأَرْسَلَ بِكِيرُ بْنُ وَشَّاحٍ رَأْسَ بْنِ خَازِمٍ وَمَعَهَا الْبَشْرَى بِالْغَنَمِ وَالْظَّفَرُ، فَسَرَّ عَبْدُ الْمَلِكِ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يُقَرِّهُ عَلَى نِيَابَةِ خُرَّاسَانَ.

الباحث: ما كل هذا التوتر والحروب ماذا يحدث في دولة الخلافة الإسلامية؟؟؟!!

الحجاج: بل أكثر من ذلك، ففي هذه السنة خرج أَبُو فُذَيْكٍ الْحَارِثِيُّ، وَهُوَ مِنْ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، عَلَى الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَغَلَبَ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَقَتَلَ نَجْدَةَ بْنَ عَامِرِ الْحَارِثِيِّ فَبَعَثَ إِلَيْهِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرَ الْبَصْرَةِ أَخَاهُ أُمِيَّةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَهَزَمَهُمْ أَبُو فُذَيْكٍ، فَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَمِيرَ الْبَصْرَةِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يُعَلِّمُهُ بِمَا وَقَعَ، فَلَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَى خَالِدٍ حَرْبُ أَبِي فُذَيْكٍ، وَحَرْبُ الْأَزْرَاقَةِ أَصْحَابِ قَطْرِ بْنِ الْفُجَاءَةِ بِالْأَهْوَازِ.

الباحث: أين أنت يا حجاج من كل ما يدور حولك من أحداث وقد صار لك شأن في دولة الخلافة كما علمنا من قبل؟

الحجاج: أقول لك: في هذه السنة سنة اثنتين وسبعين هجرية، لما أراد عبد الملك بن مروان الرجوع إلى الشام بعد أخذه العراق، ندب الناس إلى قتال عبد الله بن الزبير بمكة، فلم يُجِبْهُ أَحَدٌ إِلَى ذَلِكَ، وَكُنْتُ حَاضِرًا مَعَ الَّذِينَ حَضَرُوا هَذَا الْمَوْقِفَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ صِمْتَ الْحُضُورِ، قَمْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا لَهُ، وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ مَنَاقِبَ رَأْيْتُ فِيهِ، كَأَنِّي أَخَذْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزَّبِيرِ فَمَسَخْتُهُ؛ وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَبْعَثَ بِي إِلَى ابْنِ الزَّبِيرِ. ففعل، وبعثني في جيشٍ كَثِيفٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَكَتَبَ مَعَنَا أَمَانًا لِأَهْلِ مَكَّةَ إِنْ هُمْ أَطَاعُوا.⁽²⁾

(1) البداية والنهاية 166/12 وانظر تاريخ الطبري 177، 176/6 والكامل 4/345.

(2) البداية والنهاية 164/12 وانظر تاريخ الطبري 174/6.

الباحث: كيف تفسر يا حججاج صمت الناس عندما ندبهم عبد الملك بن مروان لحرب عبد الله بن الزبير.؟!

الحججاج: أكمل السؤال ولا تتخرج.. ولماذا استجبتُ أنا.؟! أقول لك: أولاً تخرج الناس من إجابة عبد الملك لحرب بن الزبير، لأن بن الزبير عائذٌ بالبيت ومعنى حربه يعني أن يدور قتالٌ في الحرم. ثانياً مكانة عبد الله بن الزبير فهو ابن الزبير بن العوام وأمه أسماء بنت أبي بكر، أخت السيدة عائشة أم المؤمنين عليها رضوان الله، ثالثاً اننا كنا في الطريق عائدين من حرب مصعب بن الزبير والجيش لم يسترح بعد.

ولكن عزم عبد الملك على قتال ابن الزبير كان شديداً، وكنت أرى رأيَه في أن ابن الزبير خارجٌ على إجماع الأمة على خليفتهم عبد الملك بن مروان، فحق قتاله. أما أن القتال في الحرم فإن الحرم في رأيي لا يمنع خارجاً عن طاعة الخليفة فخروجه عن الطاعة يُبَيِّحُ دمه، فليس له حينئذٍ حرمة. وأنت تعرف حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «من أتاكم وأمركم جميع على رجلٍ واحدٍ، يريد أن يشقَّ عصاكم، أو يفرِّق جماعتكم فاقتلوه»⁽¹⁾. وقد طلب مني عبد الملك أن أدعوه إلى الدخول في الطاعة وحقن الدماء ومبايعة الخليفة عبد الملك قبل إعلان الحرب عليه.

خرجتُ في جمادى من هذه السنة ومعني ألفا فارسٍ من أهل الشام، فسلكت طريق العراق، ولم أتعرض للمدينة حتى نزلت الطائف، وبعثتُ

(1) صحيح مسلم بشرح النووي 12/242 ورواية أخرى ص 241 يقول ﷺ: «أنه ستكون هنأت، وهنأت، فمن أراد أن يفرق أمره هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان». ويقول النووي: «فيه أمرٌ بقتال من خرج على الإمام، أو أراد تفريق كلمة المسلمين، ونحو ذلك، ويُنهى عن ذلك، فإن لم ينته قُتِل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل، كان هدرًا» المرجع السابق 12/241 راجع كتاب مرويات خلافة معاوية ص 435.

البعوث إلى عرفة، وكان ابن الزبير يرسل خيوله فيلتقيان فتنهزم خيلُ ابن الزبير، وتعود خيلي منتصرة.

ثم كتبتُ إلى عبد الملك أستأذنه في دخول الحرم ومحاصرة ابن الزبير؛ فإنه قد كَلَّتْ شوكتُهُ، وتَفَرَّقَ عنه عامةُ أصحابه، وسألتُهُ أن يَمُدَّنِي برجالٍ أيضاً، فكتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره أن يلحق بمن معه بي، وكان طارق يتولى المدينة لعبد الملك بعدما استخلصها من نائب ابن الزبير، وكان عبد الملك قد أمره أن يكون مقيماً بوادي القرى بمن معه من جيش المدينة وغيرها، وكان في نحو خمسة آلافٍ، منهم ثلاثة آلاف من الشام.

ثم ارتحلتُ من الطائف ونزلت بئر ميمونٍ، وحصرتُ ابن الزبير بالمسجد، ولما دخل ذو الحجة، حججتُ بالناس وكنت أنا وأصحابي وقوفاً بعرفاتٍ وعلينا السلاح، وكذلك الحال ماتلى عرفات من مشاعر إلا أننا لم نتمكن من الطواف بالحرم والتحلل من الإحرام لامتناع ابن الزبير بالحرم، كما لم يتمكن من مع ابن الزبير من أداء منسك عرفات وما بعدها لحصارنا لهم فبقوا في الحرم ونحروا بُدْنًا يوم النحر. واستمر الحال على هذا الوضع حتى دخلت السنة التالية.

سنة ثلاثٍ وسبعين من الهجرة

الحجاج ينصب المنجنيق لضرب ابن الزبير في الكعبة

الباحث: إذا فنحن الآن في سنة ثلاثٍ وسبعين هجرية وأنا الآن أقف معك على جبل أبي قبيس وأنت تستعد لضرب البيت الحرام بالمنجنيق!!

الحجاج: انتظر! لم يكن قصدي البيت الحرام قصدي عبدالله بن الزبير.

الباحث: ولكنك لكي تستهدفه لابد أن تقع قذائفك على الكعبة المشرفة البيت الحرام! فهو عائذٌ بالبيت.

الحجاج: ليتهُ يخرج إلى الصحراء ويقاتلني.. رجلٌ لرجلٍ..!

الباحث: ولكنه لم يفعل.. ولاذ بالبيت الحرام، وهأنت تحاصره من هلال ذي الحجة حتى الآن بل تستمر في حصاره خمسة أشهر وسبعة عشر يوماً..!

الحجاج: هل حدث هذا فعلاً...؟؟؟؟!!

الباحث: نعم.. والآن دعنا نتركُ جبلَ أبي قبيص، وتذهب معي عبْرَ الزمن كما جئتُك عبْرَ الزمن لنقفَ عند نهاية المطافِ بك سنة خمسٍ وتسعين هجرية... هيّا معاً..؟

الحجاج: كما تريد.. هيّا..! نعم ها أنا أرى معك الأحداث، فعلاً استُهلّت هذه السنة وأنا وجيشي نحاصر أهل مكة والحرم، حتى يخرجوا إلى الأمان والطاعة لعبد الملك بن مروان خليفة المسلمين الذي عليه إجماع الأمة.

الباحث: ولكن ما كل هذا يا حجاج خمس مجانيق...! هذا كثير...!!

الحجاج: ليس كثيرا بل هو المطلوب..

الباحث: إن المجانيق الخمسة يقذفون البيت الحرام معًا...!!

الحجاج: أنا أردت ذلك بل إنني حصرتهم وحبست عنهم الميرة حتى يجوعوا

فيضجرون من ابن الزبير فيخرجونه عن الحرم.

الباحث: لاشك أن ابن الزبير لديه مخزون من الطعام، ثم إنهم يشربون من زمزم.

الحجاج: وليكن سينفذ طعامهم حتما مع طول الحصار.

الباحث: يا حجاج إن الحجارة تقع على الكعبة..!

الحجاج: لا نستطيع تجنب هذا..

الباحث: هؤلاء الأحباش الذين يديرون المجانيق يبدو أنهم لا يتقنون استعماله، إن

القذائف تقع على الناس...! لقد قُتل خلق كثير من الناس...!

الحجاج: لكل معركة ضحايا. ثم ألا تلاحظ أن بعض أهل مكة انحازوا إلينا وتركوا

ابن الزبير...!

الباحث: إذا فأنت تقصد ذلك...؟!

الحجاج: نعم وقد يستسلم ابن الزبير فيعطينا من سفك دمه {الحجاج يصيح بصوت

مرتفع} {يا أهل الشام، الله الله في الطاعة!}

الباحث: انت تُحَمِّسُهم بصياحك فيهم بهذه الطريقة، وهاهم يكرون على ابن الزبير

ومن معه، وهاهو أيضا يحمل على جنودك ويطردهم من باب بني شيبه،

الحجاج: ألا تلاحظ...؟ لقد كادوا أن يفتكوا به.

الباحث: يا حجاج أدرك الكعبة إن الحجارة تسقط عليها وقد بدأ حائطها يتصدع!
الحجاج: لا تقلق، إن هذا الحائط الذي تصدع هو الحائط الي أضافه ابن الزبير
عندما هدم الكعبة وبنها، وادَّعى أن الرسول ﷺ كان يتمنى أن يضيفه إلى
الكعبة في حديثه لخالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

الباحث: ألم يصلك هذا الحديث؟

الحجاج: لا لم يصلني هذا الحديث. ثم لماذا لا يتركها كما تركها رسول الله ﷺ
لنا، لماذا يُضيف، لقد نصحه عبد الله بن عباس أن يترك الكعبة كما تركها
الرسول ﷺ ولكنه لم يسمع لنصيحته، وذهب وصلى كما قالوا صلاة
استخارة ثلاثة أيام ثم بدأ بهدم الكعبة وبنها كما تري..!

الباحث: ألا ترى؟! إن الكرَّ والفرَّ مستمرٌّ بين جنودك وجنود ابن الزبير وأنصاره.
ويسقط في كل مرة قتلى وجرحى.؟!

الحجاج: أتمنى أن يسقط ابن الزبير في إحدى هذه المرات، فنسترح جميعًا.

الباحث: ماهذه الأصوات يا حجاج؟! إن السماء ترعد وتبرق، إن الصواعق تكاد
تلامس الأرض..!! ونحن هنا على مكان مرتفع على الجبل..! الصواعق
تكاد تصيبنا.. هل هذا غضبٌ من السماء لما تفعله بالحرم..

الحجاج: لا لا تخف.. هذه البروق والرعود وحتى الصواعق من مظاهر الطبيعة
على جبال تهامة في هذه الفترة من السنة وأنا أخبرها جيدا..!

الباحث: أدرك جنودك يا حجاج إن الصواعق أصابت منهم عددًا.

الحجاج: (الحجاج يصيح) يا قوم هذه بُروق تهامة ورعودها وصواعقها، إني خير
بهذه البلاد، وإن القوم يُصيبهم مثل الذي أصابكم. هيا هيا إن أعبيء لكم
المنجنيق، لا شيء عليكم هيا يا رجال..!!

الباحث: يبدو يا حجاج أن الشاميين بعدما أُصيب منهم إثنا عشر رجلاً، قد ضعفت عزيمتهم عن الحصار، وأنت مازلت تصرُّ على الاستمرار!!

الحجاج: أقسم ليصيبينهم غداً مثل الذي أصابنا. سوف ترى..!

الباحث: ماذا حدث في الغد يا حجاج؟

الحجاج: لقد حدث ما توقعته، ونزلت صاعقة أصابت أنصار ابن الزبير، فتشجع الشاميون فقلت لهم: ألم أقل لكم إنهم يُصابون مثل الذي يصيبكم، وأنتم على الطاعة وهم على المعصية والمخالفة؟!

الباحث: ماذا حدث بعد ذلك؟

الحجاج: استمر أهل مكة يخرجون إلينا ويتركون ابن الزبير، بعدما أرسلتُ منادياً فيهم بالأمان لمن يخرج إلينا منهم، ونادى المنادي أيضاً أننا ما جئنا لقتال أحدٍ سوى ابن الزبير، وإن أميرنا الحجاج خيره بين ثلاث، إما أن يذهب في الأرض حيث يشاء، أو يبعثه مقيداً إلى عبد الملك بن مروان أو يقاتل حتى يُقتل فاختر الثالث بعد مشاورة أمه أسماء..

أما من حوله، فكلما جاء جماعةٌ منهم يطلبون الأمان أعطيهم، حتى خرج إلينا ما يقرب من عشرة آلاف، فأمنتهم جميعاً، وكان من بينهم حمزةٌ وخبيب؛ ابنا عبد الله بن الزبير. وطلبنا الأمان لهما فأمنتُهما وقُلَّ أصحابُ ابن الزبير جداً. وقد بلغنا أن عبدَ الله بن الزبير دخل إلى أمه، وشكا إليها خزلان الناس له، وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسيرُ، ولم يبق لهم صبرٌ ساعةٍ، وقال: إن القومُ يُعطونني ماشئتُ من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حقٍ وتدعو إلى حقٍ فاصبر عليه، فقد قُتِل عليه أصحابك،

ولا تُمكن من رقبته، يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت؛ أهلك نفسك وأهلك من قُتل معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين، وإلى كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن. فدنا منها وقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي. فلما دنا منها يودعها وقد كُفَّ بصرها، واحتضنته لتودعه ويودعها فوجدته لابسا درعا من حديد، فقالت: يا بني، ما هذا لباس من يريد ما تُريد من الشهادة فقال يا أماء إنما لبسته لأطيب خاطر وأسكن قلبك به. فقالت: لا يا بني، ولكن انزعه. فنزعه، وجعلت تذكره بأبيه الزبير وجده أبي بكر وجدته صفية بنت عبد المطلب وخالته عائشة زوج رسول الله ﷺ وتشجعه على الإقدام على الشهادة، فسوف يلقي هؤلاء جميعا إن غدا شهيدا. فخرج من عندها على ذلك.

الباحث: قالوا إن عبد الله بن الزبير كان شجاعا، فلم يتورع عن مهاجمة جمع من خمسمائة فارسٍ وراجلٍ فكان يُفرقهم فيفرقون عنه يميناً وشمالاً.

الحجاج: نعم هذا حق كان شجاعاً، وليته بايع عبد الملك ففغانا من دمه. ولقد وضعتُ على ابواب الكعبة من من يتولون حصارها؛ فكان أهل حمص يحاصرون الباب الذي يواجه باب الكعبة، ولأهل دمشق باب بني شيبه، ولأهل الأردن باب الصفا، ولأهل فلسطين باب بني جُمح، ولأهل قنسرين باب بني سهم، وعلى كل باب قائدٌ ومعه أهل تلك البلاد وكنت أنا وطارق بن عمرو في ناحية الأبطح. ورغم هذا كان ابن الزبير يستبسل في القتال، فيخرج إلى الجمع يفرقهم ثم يعود أدراجه إلى الداخل. فلما كان ليلة الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى من هذه السنة، بات مقيماً ليل ثم صلى الفجر بأصحابه، وقال لهم: ما أراني إلا مقتولا؛ فإني رأيت في منامي كأن السماء فِرَجَتْ لي، فدخلتها، وإني والله قد مللت الحياة

وجاوزت سني اثنتين وسبعين سنة، اللهم إني أُحِبُّ لقاءك فأحب لقاءني، ثم نهض بهم فحملَ وحملوا حتى كشفوا جنودنا إلى الحجون، فجاءت آجَرَةٌ فأصابته في وجهه، ثم رجع فجاءه حجرٌ منجنيق من ورائه فأصابه في قفاه فوقع على الأرض على وجهه، فابتدره الجنودُ بالسيوف فقتلوه.

ثم حجاءوا إليَّ يُخبرونني بما حدث فخررت ساجدا لله، ثم ذهبت أنا وطارق بن عمرو فوقفنا عليه وهو صريع، فما لبثنا حتى سمعنا عويل النساء في مكة وبكائهن على ابن الزبير، وكأن مكة تبكيه، فصعدتُ المنبر وخطبتُ الناس قائلاً: أيها الناس، إن عبد الله بن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة، ونازعها أهلها وألحد في الحرم، فأذاقه الله من عذابٍ أليم، وإنَّ آدمَ كان أكرم على الله من ابن الزبير، وكان في الجنة وهي أشرف من مكة، فلما خالف أمرَ الله وأكل من الشجرة التي نُهي عنها، أخرجه الله من الجنة، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.⁽¹⁾

وكتبت إلى عبد الملك بن مروان بما وقع، وبعثتُ إليه برأس عبد الله بن الزبير مع رأس عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم. وأمرت الرسل إذا مروا بالمدينة أن ينصبوا الرءوس بها، ثم يسيروا بها إلى الشام، ففعلوا ما أمرتهم به.

ثم أمرت بجثة ابن الزبير فُصِّلَت منكَسَّةً على ثنية كَدَاءٍ عند الحجون، وقد بلغني أن عبدَ الله بن عمر مرَّ به وهو مصلوب فقال: رحمةُ الله عليك يا أبا خُبَيْب، أما والله لقد كنت صَوَّاماً قَوَّاماً، ثم قال: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟! وقد جاءت أمُّه أسماءُ إليَّ وهي تدعو عليَّ وتقول: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ فقلت لها: ابنك المنافق؟ فقالت: والله ما كان منافقاً، إن

(1) البداية والنهاية 12 / 184 وانظر تاريخ الطبري 6 / 192 والكمال 4 / 356 وتاريخ دمشق 12 /

120. ووفيات الأعيان ج 2 / 41

كان لصوامًا قوامًا وَصُولًا للرحم. فقلت لها انصرفي يا عجوز، فإنك قد خرفت. فقالت: والله ما خرفت منذ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ» فأما الكذاب فقد رأيناه - تقصد المختار الثقفي - وأمّ المبير فأنت. فانصرفت عنها وأنا أقول في نفسي: وتطلين مني أن أنزله ليُدفن! فأبئت عليها، حتى كتبتُ إلى عبد الملك في ذلك، فكتب إليَّ أن أنزله ليُدفن، فبعثتُ فأُنزل عن الجذع ودُفن هناك. ولم تمض أشهرٌ قليلة حتى ماتت أسماء أم عبد الله بن الزبير.

الباحث: عليها رحمة الله. ثما ماذا حدث بعد ذلك؟.

الحجاج: دَخَلْتُ مَكَّةَ بعدما انتصر الجيش على عبد الله بن الزبير وأنصاره، فأخذتُ البيعةَ من أهلها لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عبد الملك بن مروان، ثم لم أزل مقيمًا بمكة حتى حَجَّجْتُ بالناس في هذا العام أيضًا، فكانت إمارتي في هذا العام على مكة واليمامة واليمن. ⁽¹⁾ وفي هذه السنة أقصد سنة ثلاثٍ وسبعين، عزل عبدُ الملك بن مروان خالد بن عبد الله عن البصرة، وأضافها إلى أخيه بشر بن مروان مع الكوفة، فارتحل إليها بشر واستخلف على الكوفة عمرو بن حُرَيْثٍ.

وفي هذه السنة وكانت كثيرة الأحداث غزا محمد بن مروان الصائفة فهزم الروم. وفي هذه السنة أيضا كانت وقعة عثمان بن الوليد بالروم من ناحية أرمينية، وهو في أربعة آلاف والروم في ستين ألفًا فهزَمَهُمْ، وأكثرَ فيهم القتل. ⁽²⁾

(1) البداية والنهاية 12 / 185، 186

(2) البداية والنهاية 12 / 224 وانظر تاريخ الطبري 6 / 194.

سنة أربع وسبعين من الهجرة الحجاج يتولى إمرة المدينة، ويبني مسجد بني سلمة ويختم بعض الصحابة بالرصاص

الباحث: وماذا عن هذه السنة الجديدة في حياة الحجاج؟

الحجاج: في مستهل هذه السنة عزل عبدُ الملك بن مروان طارق بن عمرو عن إمرة المدينة وأضافها إليَّ،⁽¹⁾ ولعله أراد أن يكافئني على انتصاري وقتلي لعبد الله بن الزبير الذي شكّل له صداعا كبيرا منذ أن تولّى الخلافة. فلما توليت إمرة المدينة أقمتُ بها شهراً، ثم خرجتُ معتمراً، ثم عدتُ إلى المدينة مرة أخرى في شهر صفر، فأقمتُ بها ثلاثة أشهر، فبنيت في بني سلمة مسجداً، واستدعيتُ جابر بن عبد الله، وسهل بن سعد، وقرعتهما واحداً واحداً؛ لمَ لم ينصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان، قال كلُّ منهما: قد فعلت قلتُ: كذبت وخاطبت كلاهما خطاباً غليظاً. ثم أمرت أن يُختما بالرصاص جابرٌ في يده وسهلٌ في عنقه إذ لا لهما ثم أطلقتهما.

(1) البداية والنهاية 12/228 وانظر تاريخ الطبري 6/195. ويقول الواقدي: إن الحجاج لما قدم المدينة صعد منبر رسول الله ﷺ، فخطب الناس وقال: يا أهل خبيثة يعني طيبة أأنتم شرُّ أمة وأخسُّ، ولولا أن أمير المؤمنين أوصاني بكم لجعلتها مثل جوف حمار، يا أهل خبيثة، تمنّون، هل تعودون إلا بأعوادٍ يابسةٍ يعني المنبر ورميةً باليةٍ، وأشار إلى قبر النبي ﷺ، ثم نزل وأرسل إلى سهل بن سعد الساعدي، فقال: ما منعك أن تنصر أمير المؤمنين عثمان؟ فقال: فعلت. فقال: كذبت. ثم أمر به فُخِّمَ في عنقه برصاص وكذلك فعل...المرجع السابق.

وكذلك فعلت مع أنس بن مالك وأمرت بختمه في عنقه، وقصدت إذلا لاهم بذلك، فقال أنس: إن أهل الذمة لا يجوز أن يفعل بهم هذا.⁽¹⁾

(1) وفيات الأعيان 2 / 41 - 43 يقول القاضي المعافي بن زكريا في كتاب "الجليس والأنيس":

حدث الزبير بن بكار عن الزهري قال: لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتل عبد الله بن الزبير استحضر إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقربه في المنزلة، فلم يزل على حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك زائراً له فخرج معه فعادله لا يترك في برّه وإجلاله وتعظيمه شيئاً، فلما حضر باب عبد الملك حضر به معه، فلما دخل على عبد الملك لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل من الحجاز لم أدع له والله فيها نظير في كمال المروءة والأدب والرياسة والديانة والستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القراة ووجوب الحق، إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله، وقد أحضرته ببابك ليسهل عليه إذنك وتلقاه بشرك وتفعل به ما يُفعل بمثله ممن كانت مذهباه مثل مذهباه، فقال عبد الملك: ذكرتنا حقاً واجبا ورحما قريبة؛ يا غلام ائذن لإبراهيم بن طلحة، فلما دخل قربه حتى أجلسه على فراشه ثم قال له: يا ابن طلحة إن أبا محمد أذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل والأدب وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق، فلا تدع حاجة من خاص أمرك ولا عامته إلا ذكرتها، قال يا أمير المؤمنين، إن أولى الأمور أن تفتح بها الحوائج وترجى بها الزلف ما كان لله عز وجل رضى ولحق نبيه ﷺ أداءً ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة، وإن عندي نصيحة لا أجد بُدّاً من ذكرها ولا يكون البوح بها إلا وأنا خالٍ فأخطني ترد لك نصيحتي، قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، قال: قم يا حجاج، فلما جاوز الستر قال: قل يا ابن طلحة نصيحتك، قال: الله يا أمير المؤمنين، قال: الله، قال: إنك عمدت إلى الحجاج مع غطرسته وتعجرفه وبُعد عن الحق وركونه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالي المنتسبة الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ وأبناء الصحابة، يسومهم الخسف ويقودهم العسف ويحكم فيهم بغير السنة ويطوهم بطغام من الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا إزاحة باطل، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله يُنجيك وبين رسول الله ﷺ يخلصك إذا جاثاك للخصومة في أمته؟ أما والله لا تنجو هناك إلا بحجة تضمن لك النجاة، فابق على نفسك أو دَعْ، فقد قال رسول الله ﷺ: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. فاستوى عبد الملك جالسا وكان متكئاً فقال: كذبت لعمر الله ومننت ولؤمت فيما جئت به، قد ظن بك الحجاج ما لم يجده فيك وربما ظن الخير لغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن الحاسد، قال: فقامت والله ما أبصر طريقاً؛ فلما خلفت الستر لحقني لاحق من قبله فقال للحاجب: احبس هذا الرجل وأدخل أبا محمد الحجاج، فلبثت ملياً وأنا لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الآذن فقال: قم يا ابن طلحة فادخل، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وأنا داخل وهو

وأرسلتُ أبا إدريس الخولاني قاضيا على اليمن.

الباحث: ألم تستوقفك كلمة أنس بن مالك رضي الله عنه وهو يقول: إن أهل الذمة لا يجوز أن يفعل بهم هذا؟!!

الحجاج: كان لا بد وأنا أُخمدُ فتناً قائمة وأمحو فتناً نائمة أن أتعرض لهؤلاء بالأذى وهم من يظنُّ الناس أن أحداً من الأمراء لا يستطيع أن يتعرض لأحدٍ منهم، فيردع الجميع الكبير والصغير.⁽¹⁾

الباحث: معنى هذا أن استدعاء موقفهم من مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، كان مُجرّد سببٍ، وهو سببٌ واهٍ، فقد مضت سنوات طويلة على هذا الحدث، لتوقع بهم العذاب.

الحجاج: كانت ضرورةً لجأتُ إليها لأنذر من قد تُخوّل له نفسه الخروج على الخليفة أو حتى المساعدة في ذلك، أنه لن يسلم من شرّي. ثم لا تنس ما فعلوه في بني أمية وحصارهم لهم وقد أوشكوا أن يهلكوهم وكان

خارج، فاعتنقني وقبّل ما بين عيني ثم قال: إذا جرى الله المتآخين بفضل توأصلهما فجزاك الله أفضل ما جرى به أخاً، فالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرَكَ ولأعلين كعبك ولأتبعن الرجال غبار قدميك، قال: فقلت: يهزأ بي، فلما وصلتُ إلى عبد الملك أدناني حتى أجلسني في مجلسي الأول ثم قال: يا ابن طلحة لعل أحداً من الناس شاركك في نصيحتك، قال: قلت: لا والله ولا أعلم أحداً كان أظهر عندي معروفاً ولا أوضح يداً من الحجاج، ولو كنت محايياً أحداً بديني لكان هو ولكني آثرت الله عز وجل ورسوله ﷺ والمسلمين، ولو أردت الدنيا لكان لي في الحجاج أمل، فقال: قد علمت ذلك، وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استصغاراً ووليته العراقيين لما هناك من الأمور التي لا يرحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى التولية له عليهما استزادةً له ليلزمه من ذمامك ما يؤدي به عني إليك أجر نصيحتك،، فخرج معه فإنك غير ذامٍ صحبته مع تقريظه إياك ويدك عنده، قال: فخرجت على هذه الجملة.

(1) تحليل الباحث للموقف، وليس كلام الحجاج.

من بينهم عبد الملك بن مروان ولم يك ولي شيئا من الإمارة بعد، وقد تحقق ما قصدت إليه فعلا. فاستقرت الأحوال كما يجب في الحرمين الشريفين.

الباحث: لقد أصابهم ما أصابهم من شرٍ بعد خروجهم على الخليفة حينئذٍ، وحصارهم بني أمية، ما كفَّروا به عن ذلك، أظنك كنت تبغي إرضاء الخليفة عبد الملك أكثر من أي شيء آخر.

الحجاج: وليكن أني قصدت إرضاء الخليفة، وكذلك قصدت إعلامه مباشرة أنني رجُلُهُ القويُّ الذي لا غنى عنه لاستتباب الأمن والاستقرار في كافة ربوع الخلافة، فأني تريب علي في ذلك. لا تنس أن ذلك له ردُّ فعلٍ لدى الناس، فاستقرت الأحوال، أحوال البلاد والعباد. أليس في ذلك خير؟!؟

الباحث: وماذا فعلت في الكعبة التي تصدَّعت؟!؟

الحجاج: لم أنقض البُيَّانَ جميعه، إنما هدمتُ الحائطَ الشاميَّ حتى أخرج الحجرَ من البيت ثم سدَّته وأدخلتُ في جَوْفِ الكعبة ما فَضَلَ من الأحجار، وأبقيتُ الحيطانَ الثلاثة بحالها؛ ولهذا بقي البابان الشرق والغربي وهما مُلصقان بالأرض، وسدَّتُ الباب الغربي بالكلية ورددتُ أسفل الشرقي حتى جعلته مرتفعا كما كان على عهده قبل ابن الزبير، ولم يكن قد بلغنا حديث أم المؤمنين عائشة لابن الزبير عن رسول الله ﷺ، قوله: «لولا أن قومك حديثٌ عهدٌم بكُفْرٍ (وفي رواية: بجاهلية) لنقضتُ الكعبة وأدخلتُ فيها الحجرَ، وجعلتُ لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا، ولألصقتُهما بالأرض، فإن قومك قصرتُ بهم النفقة فلم يُدْخِلُوا فيها الحجرَ ولم يُتِمُّوها على قواعد إبراهيم، ورفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا

مَنْ شَاءُوا» ⁽¹⁾ فلما بلغَ عبدَ الملك هذا الحديثُ الشريف قال: وددنا أَنَّا تركناه وما تولَّي من ذلك - يقصد ابن الزبير -

وفي هذه السنة وليَ المهلبُ بن أبي صُفْرةَ حربَ الأزارقة، عن أمر عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أن يُجَهِّزَ المهلبَ إلى الخوارج الأزارقة في جيوشٍ من أهل البصرة والكوفة. وَوَجَدَ بِشْرٌ عَلَى المهلبِ في نفسه، حيث عيَّنَه عبدُ الملك في كتابه، فلم يجد بُدًّا من طاعته في تأميره على الناس في هذه الغزوة، وما كان له من الأمر شيءٌ، غير أنه أوصى أميرَ الكوفيين عبدَ الرحمن بن مِخْنَفٍ أن يستبدَّ بالأمرِ دونه، وأن لا يقبل له رأيًا ولا مشورةً، فسار المهلبُ بأهل البصرة وأمراء الجيش حتى نزل برامهرْمُز، فلم يلبث عليها إلا عشرًا حتى جاء نعيُّ بشر بن مروان، وأنه مات بالبصرة، واستخلف عليها خالد بن عبد الله، فإِرْفَضَ ⁽²⁾ بعضُ الجيش ورجعوا إلى البصرة، فبعثوا في آثارهم من يَرُدُّهم، وكتب خالد بن عبد الله إلى الفارين يتوعدهم إن لم يرجعوا إلى أميرهم، ويتوَعَّدُهم بِسَطْوَةِ عبد الملك، فعدلوا يستأذنون عمرو بن حُرَيْثٍ في المصير إلى الكوفة وكان أميرها فكتب إليهم، إنكم تركتم أميركم وأقبلتم عاصين مخالفين، فليس لكم إذنٌ ولا إمامٌ ولا أمانٌ. فلما جاءهم ذلك أقبلوا إلى رحالهم فركبوها ثم ساروا إلى بعض البلاد، فلم يزلوا مختفين حتى قَدِمْتُ العراق واليا عليها مكان بشر بن مروان. ⁽³⁾

(1) أصل الحديث عند البخاري (1584، 1586، 7243) ومسلم (1333) وفي بعض ألفاظه اختلاف.

(2) اِرْفَضَ: ارفض الدمع: سال، وارفض العرق، ويقال ارفض المجلس: انفض. (الوجيز مادة رفض)

(3) البداية والنهاية 12 / 230 وانظر تاريخ الطبري 6 / 196.

الباحث: وفي هذه السنة عزل عبد الملك بن مروان بكير بن وشاح التميمي عن إمرة خراسان، فقد اختلف الناس عليه هناك اختلافا كثيرا ولم تكن الأمور مستقرة له، فولأها أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد القرشي، ليجتمع عليه الناس، فلقد كادت الفتنة ان تعصف بخراسان بعد عبد الله بن خازم.

الحجاج: نعم، وفي هذه السنة بعدما حججتُ بالناس؛ فقد كنت أميرهم في الحج هذا العام، علمت بمرض عبد الله بن عمر، وكان شيخاً مُسنّاً بلغ أربعاً وثمانين سنة، فذهبتُ لزيارته، وكان في أخريات أيامه، فدخلت عليه أُسلم عليه وأطمئنُ على صحته، فإذا به يُغمض عينيه، لا يرغب في محادثتي، فكأنه نائم؛⁽¹⁾ فأحزنني ذلك منه، فقد كان رجلاً صالحاً لم يدخل في شيءٍ من الفتنة التي وقعت بالأمصار شرقاً أو غرباً، وكان رحمة الله عليه آخر من مات من الصحابة بمكة.

(1) البداية والنهاية 237/ 12 وانظر تاريخ دمشق 37/ 109، 107.

سنة خمس وسبعين من الهجرة

الحجاج في العراق

الجارود أول الخارجين عليه

الباحث: وما هي أحداث هذا العام يا حجاج، وكيف حالك فيها؟؟

الحجاج: عزلني عبد الملك بن مروان عن نيابة المدينة، وولّاه يحيى بن الحكم بن أبي العاص، وهو عمّه، ولكنه ولّاني نيابة العراق كلّهُ البصرة والكوفة وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار، وذلك بعد موت أخيه بشر بن مروان، فقد رأى عبد الملك أنه لا يسدُّ عنه أهل العراق غيري، لسطوتي وقسوتي وشهامتي، فكتب إليّ وأنا في المدينة بولاية العراق، فسرتُ من المدينة إلى العراق، في اثني عشر ركبًا على النجائب، فنزلت قُرب الكوفة فاغتسلت واختضبتُ ولبست ثيابي وتقلدتُ سيفي وألقيتُ عَدَبَةَ العمامة الحمراء بين كتفي، ثم سرت فنزلت دار الإمارة، وكان الوقت ظهرًا، وقد أذن المؤذن فأمرته أن يجمع الناس لصلاة جامعة، وخرجت عليهم وهم لا يعلمون، فصعدتُ المنبر مثلثًا وجلست عليه وأنا كذلك، وأمسكتُ عن الكلام طويلا، حتى يجتمع أكثر الناس، فاجتمعوا، وقد شخصوا إليّ بأبصارهم وجثوا على الركب وتناول أحدهم الحصاء ليقدفني بها، وأخذ بعضهم يغمز بعضا وينظرون إليّ، وحَسَبَنِي الناسُ وأصحابي من الخوارج، وقد كانوا حصبوا الذي كان قبلي، فلما سكّتُ أبهتُهُم وأثرت فيهم حب الاستطلاع، فأحبوا أن يستمعوا إليّ ليعرفوني وينظروا ماذا

أقول، فكان أول كلامي ⁽¹⁾ بعدما وقفت متكئاً على سيفي وقد كشفت وجهي، ليعرفوني: ⁽²⁾

أنا ابن جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا متى أَضْعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي
ثم قُلْتُ: أما والله إني لأحمل الشَّرَّ بِحَمْلِهِ، وأحذوه بَعْلِهِ، وأجزيه بمثله، وإني
لأرى رُءُوسًا قد أِينَعْتُ وحنَ قِطَافَهَا وإني لصاحبها، وكأنِّي أنظرُ إلى الدماءِ بين
العمائمِ واللِّحَى:

شَمَرْتُ عَنْ سَاقِهَا فَشَمَّرِي

ثم أُنشَدْتُ أقول:

هذا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدِّي زَيْمٌ قد لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ
ليس براعي إِيْلٍ ولا غَنَمٍ ولا بَجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٍ
قد لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَضْلِيٍّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوِيِّ
مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ ⁽³⁾

(1) انظر خطبة الحججاج مع بعض الاختلاف، في عيون الأخبار 2/ 243، وتاريخ الطبري 202/ 6 فما بعدها والعقد الفريد 115/ 4 فما بعدها والكامل في التاريخ 4/ 374 فما بعدها وتاريخ الإسلام (حوادث ووفيات) 61 80 هـ ص 320 وصبح الأعشى 1/ 218. وفيات الأعيان 2/ 33.
(2) البيت من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحي، رواها الأصبغي في الأصبغيات، ص 17 (ط. شاكر، هارون) وهو في عيون الأخبار 2/ 243، وتاريخ الطبري 6/ 202 والعقد الفريد 17/ 120، 5/ 4 والبداية والنهاية 12/ 244.

(3) العقد الفريد 121، 120/ 4 وتاريخ الإسلام حوادث ووفيات 61 80 هـ ص 321، وهذه الأبيات لرشيد بن رميض يقولها في الحُطَم، وهو شريح بن ضبيعة، وكان شريح قد غزا اليمن في جموع من ربيعة، فغنم وسبى بعد حربٍ كانت بينه وبين كندة هلك فيها ناس كثير، وجعل الحطم يسوق بأصحابه سوقاً عنيفاً حتى نجى بمن بقي من أصحابه

ثم قلت: إني والله يا أهل العراق مأْغَمَزُ بِغِمَازٍ، ولا يُعَقِّعُ لي بالشَّنانِ، ولقد فِرَرْتُ عن ذكاءٍ، وجريتُ إلى الغايةِ القصوى، وإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثرَ كِنَانَتَهُ ثم عَجَمَ عِيدَانَهَا عَوْدًا عَوْدًا فوجدني أَمَرَهَا عَوْدًا وأصلبَها مَغَمَزًا، فَوَجَّهَنِي إليكم، فإنَّكم طالما أَوْضَعْتُمْ في أودِيَةِ الفِتَنِ، وَسَنَنْتُمْ سُنَنَ الغَيِّ، أما والله لألحونَّكم لحِيَّ العُودِ، ولأعصبنَّكم عَصَبَ السَّلَمَةِ، ولأضربنَّكم ضربَ غَرَائِبِ الإبل، وإنِّي والله لا أَعِدُّ إلا وَفَيْتُ، ولا أخلُقُ إلا فَرَيْتُ، فإياي وهذه الجماعات، وقيلاً وقالاً، والله لتستقيمَنَّ على سبيل الحقِّ أو لأدَعَنَّ لكلِّ رجلٍ منك شُغلاً في جسده. ⁽¹⁾

ثم قلت: من وجدتُ بعدَ ثالثةٍ من بعثِ المهلبِ -أقصدُ الذين كانوا قد رجعوا عنه لَمَّا سمعوا بموت بشر بن مروان - سفكتُ دمه وانتَهبتُ ماله. ثم نزلت ودخلت دار الإمارة ولم أزد على ذلك. ⁽²⁾

فلما كان اليوم الثالث سمعتُ تكبيراً في السوق، فخرجتُ حتى جلستُ على المنبر فقلت: يا أهل العراق يا أهل الشُّقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، إني سمعتُ تكبيراً في السوق ليس بالتكبير الذي يُراد به الترغيبُ، ولكنه تكبيرٌ يُرادُ به التهريبُ، وقد عَصَفْتُ عِجَاجَةً تحتها قَصْفٌ،

(1) وذكروا أنه قال في خطبته هذه: شأهت الوجوه، إن الله ضرب مثلاً (قريّةً كانت ءامنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) {النحل: 112} وأنتم أولئك فاستوقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تدروا، ولأعصبنكم عصبَ السلمة حتى تنقادوا، وأقسم بالله لتقبلنَّ على الإنصافِ ولتدعنَّ الإرجافَ، وكان وكان، وأخبرني فلان عن فلان، والخبر وما الخبر، أو لأهبرنكم بالسيف هبراً يدعُ النساءُ أيامي والأولاد يتامى، حتى تمشوا السُمَهَى وتقلعوا عن ها وها. (البداية والنهاية 12/247، وتاريخ الطبري 6/205)

(2) انظر تاريخ الطبري 6/204 والعقد الفريد 4/121 والبداية والنهاية 12/246.

يا بني اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الإماء والأياما، ألا يربح كل رجل منكم على ظلعه، ويحسن حَقْنَ دمه ويصبر موضع قدمه، وأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وادبا لما بعدها. ⁽¹⁾ فقام إليَّ عمير بن ضابئ التميمي، فقال: أصلح الله الأمير أنا في هذا البعث وأنا شيخ كبيرٌ وعليلٌ، وهذا ابني وهو أشبُّ مني. قلتُ ومن أنت؟ قال أنا عمير بن ضابئ التميمي. قلتُ: أسمعتَ كلامنا بالأمس؟ قال: نعم. قلتُ أأست الذي غزا عثمان بن عفان؟ قال بلى. قلتُ وما حملك على ذلك؟ قال: كان حبس أبي وكان شيخا كبيرا. قلتُ أو ليس هو الذي يقول: ⁽²⁾

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي
فَعَلْتُ وَوَلَيْتُ الْبُكَاءَ حَلَالُهُ

وقلت: إني لأحسب أن في قتلِكَ صلاحَ المَصْرَيْنِ. قم إليه يا حرسِي فاضرب عنقه، وأمرت رجالي فانتَهبت ماله. لم أمرُ بقتله مباشرة حتى بلغني أن هذا الرجل جاء إلى عثمان رضي الله عنه، وقد قُتِلَ فلطم وجهه فأمرتُ بقتله. ⁽³⁾ وأمرتُ مناديا فنادى في الناس: ألا إنَّ عمير بن ضابئ تأخر بعد سماعِ النداء ثلاثاً فأمرَ بقتله. فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر فعبر عليه في ساعةٍ واحدةٍ أربعةً آلاف من مُذَحِّجٍ، وخرجت معهم العرفاء حتى وصلوا إلى المهلب وأخذوا منه كتاباً بوصولهم إليه. وقد بلغني أن المهلب قال عندئذ: قَدِمَ العراقُ والله رجلٌ ذَكَرُ، اليوم قُوتِلَ العدوُّ.

(1) البداية والنهاية 12 / 248 تاريخ الطبري 206 / 6 والعقد الفريد 115 / 4.

(2) الخبر في تاريخ الطبري 6 / 207 والرواية عنده: تركتُ على عثمان تبكي حلالُهُ.

(3) البداية والنهاية 12 / 249 ويروى أن الحجَّاج لم يعرف عمير بن ضابئ حتى قال له عنبسة بن سعيد: أيها الأمير، إن هذا جاء إلى عثمان، رضي الله عنه وقد قُتِلَ فلطم وجهه. وفي رواية وطيء بطن عثمان بعد مقتله، فكسر له ضلعين فأمر الحجَّاج عند ذلك بقتله. راجع وفيات الأعيان

وبعثتُ الحَكَمَ بن أيوبَ الثَّقَفِيَّ نائِباً على البصرة من جهتي. وأقررت على قضاء الكوفة شريحاً. ثم ركبْتُ إلى البصرة، واستخلفتُ على الكوفة أبا يعفور. ووليت قضاء البصرة لزرارة بن أوفى.

الباحث: وكيف كان استقبال أهل البصرة لك بعدما سمعوا عنك وما فعلت من قبل في الكوفة!!؟

الحجاج: أقول لك ما حدث: وصلتُ البصرة وقمتُ فيهم خطيباً، بخطبةٍ مماثلةٍ لخطبتي في أهل الكوفة، وضممتُها الوعيدَ الشديدَ والتهديدَ الأكيدَ. فجيءَ برجلٍ من يَشْكُرُ، فقيل: هذا عاصٍ، فقلت: ماذا تقول يارجل؟ قال: إن بي فتقاً وقد عذرني بشرُّ بن مروانَ، وهذا عطائي مردودٌ على بيت المال، فلم أقبل منه، وأمرتُ بقتله فقتل، ففرغ أهل البصرة، وخرجوا من البصرة حتى اجتمعوا عند قنطرة رامهرمز، وعليهم عبد الله بن الجارود. كان ذلك في شعبان من هذه السنة فخرجت إليهم في أمراء الجيش من المِصْرِيِّينَ، فكانَ قتالاً شديداً ولكنني تمكنتُ من هزيمتهم وقتلتُ عبدَ الله بن الجارود أميرَهم ومعه رءوسٌ من تزعموا الخروجَ عليّ، وأمرتُ بقطع رءوسهم فنُصبت عند الجسر من رامهرمز، ثم بعثتُ بها إلى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف، وأمرتهم بمناهضة الأزارقة، فنهضوا معاً إلى الخوارج فأجلوهم عن أماكنهم من رامهرمز بأيسر قتال، فهربوا إلى أرض كازرون من إقليم سابور. ثم تبعهم الجنود حتى أدركوهم في العشر الأخير من رمضان، وكانت بينهم مسجلاتٌ قُتِلَ فيها عبد الرحمن بن مخنف، أخبرني المهلب بذلك، فكتبتُ إلى عبد الملك أنعيه مقتل بن مخنف، وأمرتُ عتاب بن ورقاء، لكنه لم يتوافق مع المهلب وكان يطيعه

في الظاهر ثم يعصاه من وراء ظهره فكتب إليّ عتاب بما بينه وبين المهلب من شقاق، فاستدعيت إليّ عتاب وكتبت إلى المهلب أن يولي غيره فولّي مكانه ابنه حبيب بن المهلب.

وعلى جانب آخر ونحن في هذا الصراع خرج عليّ داود بن النعمان المازنيّ بنواحي البصرة، ولكن كان أمره هيئاً فقد أرسلت إليه سريةً فقتلته.

الباحث: يُقال يا حجاج إنك ارتقيت المنبر يوماً تخطب الناس فقلت في خطبتك: أيها الناس، إن الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله، فقام إليك رجلٌ فقال: ويحك يا حجاج، ما أصفّق وجهك وأقلّ حيأك.!

الحجاج: نعم. كان وقحا مثله مثل غيره ممن فتكت بهم عند قدومي إلى العراق. أشرت إلى أحد حراسي بالمسجد فقبض عليه وأخذ إلى السجن، حتى أحفظ كرامتي أمام الناس فلا يتجرأ عليّ غيره،

الباحث: هل قتلته؟

الحجاج: لا لم أقتله، فبعدهما نزلت عن المنبر وانتهت الصلاة، دعوت به، فقلت له: لقد اجتأت عليّ، فقال لي: أتجتريء على الله فلا ننكره، ونجتراً عليك فتنكره؟! فكأن هذا الرجل قد سكّب على رأسي ذنوباً من ماءٍ بارد، لأنّي بالفعل قد أمرت بقتل بعض الناس لأسبابٍ تافهة لأردع غيرهم، لكنها أولاً وأخيراً دماء، فرجعت إلى نفسي وخلّيت سبيله.⁽¹⁾

الباحث: ثم ماذا؟

الحجاج: خرجت هذا العام إلى مكة للحج مع أمير المؤمنين، وقبل خروجي خطبت الناس وكنت بالبصرة فقلت: يا أهل البصرة، إنّي أريد الخروج

(1) وفيات الأعيان ج 2 / 31

إلى مكة، وقد استخلفتُ عليكم محمدًا ابني وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسولُ الله ﷺ في الأنصار، فإنه أوصى أن يُقبل من مُحسنهم ويُتجاوز عن مسيئهم، ألا وإنني قد أوصيته فيكم ألا يُقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم؛ ألا وإنكم قائلون بعدي كلمة ليس يمنعكم من إظهارها إلا الخوف: لا أحسن الله له الصحابه، وإنني معجلٌ لكم الجواب: لا أحسن الله عليكم الخلافة. ⁽¹⁾

الباحث: قالوا في هذه السنة تعرّض أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان وكان يحُجُّ بالناس في هذا العام لمحاولة اغتيال أثناء أداء المناسك؟

الحجاج: نعم وكان ذلك على يد بعض الخوارج وعلى رأسهم صالح بن مُسرّح، وكان يرى رأي الخوارج الصفريّة ومعه شبيب بن يزيد، والبُطين، وأشباههم، ولكن أمير المؤمنين نجا من هذه المحاولة وفرَّ هؤلاء الخوارج، ولكن عبد الملك بن مروان علم أن صالح بن مسرح هذا كثيرُ التردد على الكوفة والإقامة بها، فطلب الخليفةُ عبد الملك منِّي أن أتطلبَهم بهذه الجريمة، فضلا عن أنه يسبُّ الخليفةَ عثمان بن عفان في خطبِهِ. ⁽²⁾

(1) المرجع السابق 32 / 2

(2) البداية والنهاية 12 / 251 وتاريخ الطبري 215 / 6 وما بعدها.

سنة ست وسبعين من الهجرة. صراع الخوارج الصفرية وفتنة شبيب والحجاج يعلن النفير العام

الباحث: وهذا عام جديد في حياتك يا حجاج ماهي أهم أحداثه وما حدث لك فيه؟

الحجاج: أقول لك: في هذا العام كانت معاناتي شديدة مع الخوارج الصفرية، وأميرهم في مستهل هذه السنة هو صالح بن مُسَرِّح، ومعه شبيب بن يزيد، خرجوا على الخليفة عبد الملك بن مروان، ومالوا إلى دواب محمد بن مروان نائب الجزيرة لأخيه عبد الملك، فأخذوها وتقووا بها، وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة، فتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار، فبعث إليهم محمد بن مروان نائب الجزيرة خمسمائة فارس عليهم عدي بن عدي بن عُميرة، ثم زاده خمسمائة أخرى، فسار إلى الخوارج في ألف فارس، ولكنهم كانوا في غاية الخوف لما يعلموه من جلد الخوارج وقوتهم وشدة بأسهم رغم قلة عددهم، فلما التقى الجمعان هزم الخوارج فرسان محمد بن مروان واحتوا ما في معسكرهم، ورجعت فلولهم إلى محمد بن مروان بالجزيرة فغضب وبعث إليهم ألفاً وخمسمائة مع الحارث بن جعونة، والفا وخمسمائة مع خالد بن جزء السلمي فسارا إلى الخوارج في ثلاثة آلاف مقاتل، وكان الخوارج في نحو من مائة نفس وعشرة، فلما انتهوا إلى آمد اقتتل الناس في هذا اليوم قتالاً شديداً إلى الليل ثم انكفوا

كُلُّ فَرِيقٍ عَنِ الْآخِرِ، وَهَرَبَتِ الْخَوَارِجُ فِي اللَّيْلِ فَخَرَجُوا مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَمَضُوا حَتَّى قَطَعُوا الدَّسَكْرَةَ فَبَعَثْتُ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مَعَ الْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ حَتَّى لَحِقَهُمْ بِأَرْضِ الْمَوْصِلِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَ صَالِحٍ مِنَ الْخَوَارِجِ سِوَى تَسْعِينَ رَجُلًا، فَالتَقَى مَعَهُمْ، وَاقْتَتَلُوا مَعَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا وَصَبَرَ الْخَوَارِجُ عَلَى قِلَّتِهِمْ صَبْرًا شَدِيدًا، ثُمَّ قُتِلَ صَالِحُ بْنُ مَسْرَحٍ أَمِيرُهُمْ وَصُرِعَ شَيْبٌ عَنْ فَرَسِهِ، فَاحْتَمَلَهُ أَصْحَابُهُ مِنَ الْخَوَارِجِ وَدَخَلُوا بِهِ حَصْنًا هُنَاكَ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، فَأَحَاطَ بِهِمُ الْحَارِثُ بْنُ عَمِيرَةَ وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَحْرِقُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَيَأْخُذُوا الْخَوَارِجَ قَهْرًا عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مُجْبَرِينَ مِنَ الْحَصْنِ فَيَقْضُوا عَلَيْهِمْ، أَوْ يَمُوتُوا حَرْقًا بِدَاخِلِهِ، وَانْتَظَرُوا فِي مَعْسَرِهِمْ مَطْمَئِنِينَ. وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ خَرَجُوا حَيْثُ لَمْ يَتَوَقَّعْ أَحَدٌ خُرُوجَهُمْ، وَبَيَّتُوا جَيْشَ الْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، فَهَرَبَ النَّاسُ إِلَى الْمَدَائِنِ، وَاحْتَازَ شَيْبٌ وَأَصْحَابُهُ مَا فِي مَعْسَرِهِمْ، فَكَانَ جَيْشُ الْحَارِثِ بْنِ عَمِيرَةَ أَوَّلَ جَيْشٍ هَزَمَهُ شَيْبٌ.

وَاجْتَمَعَتِ الْخَوَارِجُ عَلَى شَيْبٍ وَبَايَعُوهُ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا آخَرَ فَقَاتَلُوهُ فَهَزَمُوهُ، ثُمَّ هَزَمَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ سَارَ شَيْبٌ فَحَاصَرَ الْمَدَائِنَ فَلَمْ يَنْلُ مِنْهَا شَيْئًا، فَسَارَ فَأَخَذَ دَوَابَّ كَانَتْ لِي مِنْ كَلَوَاذَا، وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يُيَيِّتَ أَهْلَ الْمَدَائِنِ، فَهَرَبَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْجُنْدِ إِلَى الْكُوفَةِ، فَلَمَّا عَلِمْتُ بِذَلِكَ جَهَّزْتُ جَيْشًا مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ مَقَاتِلٍ وَأَرْسَلْتُهُ إِلَى قِتَالِ شَيْبٍ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْخَوَارِجِ. فَكَانَ يَدَاوِرُهُمْ وَيَحَاوِرُهُمْ وَيَشْتَبِكُ مَعَ مَقْدَمَتِهِمْ فَيَقْتُلُ مِنْهُ مَا يَقْتُلُ ثُمَّ يَنْطَلِقُ يَدَاوِرُ مِنْ جَدِيدٍ، وَأَنَا أَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَالْمَدَدَ وَلَا يَتَلَقَّوْنَ بَعَثًا بَعْدَ بَعَثٍ إِلَّا الْهَزَائِمَ وَيَفِرُّونَ مِنْ وَجْهِ الْخَوَارِجِ وَأَتْبَاعِ شَيْبٍ، حَتَّى اقْتَرَبَ شَيْبٌ مِنَ الْكُوفَةِ يَرِيدُ دُخُولَهَا وَكُنْتُ حِينَئِذٍ بِالْبَصْرَةِ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ

الكوفة على عجلٍ وسبقته إليها فدخلتها قبله عصر ذلك اليوم ووصل هو إلى المربد عند الغروب، فلما كان الليل دخل شبيب الكوفة وقصد قصر الإمارة وضربه بعمودٍ من حديدٍ معه أثر فيه،

الباحث: يقال إن شبيباً سلك في طرق الكوفة، وقتل رجالاً من أشرافها ورؤسائها وطائفةً كثيرةً من أهلها.⁽¹⁾ وكان مع شبيب امرأته غزالة تقاتل معه، وكانت معروفة بالشجاعة، فدخلت مسجد الكوفة وجلست على منبره وجعلت تذمُّ بني مروان.

الحجاج: هذا صحيح، لذلك لم أجد بُدّاً مع هذه الكارثة وهذه الهزائم المتتالية إلا أن أنادي بالنفير العام، فأرسلت فناديتُ في الناس: يا خيل الله اركبي وأبشري. فخرج شبيب من الكوفة فجهَّزْتُ في إثره ستة آلاف مقاتل، فساروا وراءه، فأخذ يداورهم ويحمل على مقدمة الجيش فيقتل منه ويعود إلى جماعته حتى قتل من هذا الجيش الكثير وتناوب القادة على هذا الجيش، واستفحل أمرُ شبيب حتى إن عبد الملك بن مروان تزلزل له، وقد شعرتُ بالخطر الشديد، فما واجه شبيب جيشاً أرسلناه إلا غلبه شبيب، وإن ما معه إلا شِرْزَمَةٌ قليلة، فكان هذا أمراً عجباً، لقد ملأ قلوبَ الناسِ رُعباً. فلم يجد عبدُ الملك بُدّاً من أن يرسل لنا جيشاً من أهل الشام.

(1) البداية والنهاية 262/12 وانظر تاريخ الطبري 241/6 وتاريخ الاسلام حوادث ووفيات 80 61 هـ ص 328

سنة سبع وسبعين من الهجرة جيوش الحجاج تتلقى الهزائم على يد الخوارج بقيادة شبيب وامراته غزالة الحجاج يستنجد بعبد الملك بن مروان

الباحث: هاهو عامٌ جديد هلّ عليك يا حجاج وقد فعل شبيبُ بكم الأفاعيل، ماذا تقول؟!
الحجاج: لم يكن بدٌّ من النفير العام كما ذكرت لك، واجتمع لدي من أهل الكوفة
أربعون ألفاً وانضاف إليهم عشرة آلاف، فصاروا خمسين ألفاً، وأمرتُ
عليهم عتّاب بن ورقاء، وأمرته أن يقصد لشبيب بن يزيد أين كان، وأن
يُصمّم عليه ومن معه، وكانوا قد تجمّعوا ألف رجلٍ.

الباحث: ذكر المؤرخون يا حجاج أنه لما بلغ شبيباً ما بعثت به إليه من الجنود،
لم يعبأ بهم شيئاً بل قام في أصحابه خطيباً فوعظهم وذكرهم، وحثهم
على الصبر عند اللقاء ومناجزة الأعداء، وسار بأصحابه ناحية عتاب
بن ورقاء فالتقيا في آخر النهار، فوجد بن ورقاء قد خندق حول جيشه،
فصلى بأصحابه وانتظر حتى دخل الليل وطلع القمر وأضاء، فهجم على
الجيش وقتل أمراءه وفرّق شمل الميمنة والميسرة واختلط الحابل بالنابل
ثم قصد القلب، فقتل الأمير عتّاب بن ورقاء. ⁽¹⁾ وزهرة بن حوية، وولّى
عامة الجيش مدبرين، وانهزم هذا الجيش الكبير الذي أعدته عن بكرة

(1) البداية والنهاية 12 / 269 وانظر تاريخ الطبري 6 / 265.

أبيهم وفروا راجعين إلى الكوفة. أمر شبيب أصحابه ألا يتبعوا الفارين المنهزمين وأخذ البيعة ممن بقي من الجيش له بالإمارة فباعوه.

كيف ترى الموقف بعد هذه الهزيمة المدوية، خمسون ألفاً إنماعوا كما ينماع الملح في الماء!!

الحجاج: فعلاً كانت هزيمة مدوية، وكنت في موقف لا أحسدُ عليه، خاصة مع نية شبيب أن يقصد إلى الكوفة وقد احتوى ما تركه الجيش المهزوم من مالٍ وعتاد وخيلٍ وسلاح.

الباحث: بلغك فعلاً أنه يقصد الكوفة؟!، وأنت في هذه الظروف؟! إنها النهاية يا حجاج!.

الحجاج: لا لا ليس بعد. لقد وفد إلينا سُفَيان بن الأبرد الكلي، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج في ستة آلاف فارسٍ ومعهم خلقٌ كثير من أهل الشام ممن بعثهم عبد الملك بعدما وقف على حال شبيب. فاستغنيت بهؤلاء وهؤلاء عن نصرة أهل الكوفة، وقمت في الناس خطيباً فقلت: أما بعد يا أهل الكوفة، لأعزَّ الله من أراد بكم العزَّ، ولا نصرَ من أراد بكم النصر، اخرجوا عنّا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى، فلا يقاتلنَّ إلا من كان لنا عاملاً، ومن لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء.

الباحث: غريب هذا القرار! لماذا تمنع الذين عادوا من جيش ابن ورقاء أن يشتركوا معك في القتال، وهم يملكون الخبرة ويعرفون أحوال أصحاب شبيب؟

الحجاج: الأسباب كثيرة، هؤلاء الجنود هم جندٌ مهزومون، سوف ينقلون شعورهم بالهزيمة لمن يخالطونهم من جند الشام وغيرهم، فتسري في الجيش كالنار في الهشيم، ثانياً الروح المعنوية التي جاء بها جند الشام عالية بما

يحملون من سمعة طيبة وقوة لا يُستهان بها، فلم أشأ أن يخالطهم خش من جنودٍ منهزمة. كما أردتُ أن يقاتل جند الشام ومن معهم من جند مذحج وغيرهم بروح جديدة عازمة على الثأر واسترداد للكرامة على أيديهم، من شرذمة قليلة لا وزن لها في عداد الجيوش الحقيقية. ثم إنني عزمت على قتال شبيبٍ مع الجيشِ بنفسِي، وفي ذلك رفعٌ لمعنويات الجيش في السماء، لقد حارب من حارب شبيباً من قبل بنفوسٍ خاوية وخوفٍ لا أساس له. وقصدتُ بما معي من جند إلى شبيب، فلما تواجه الفريقان وكان شبيبٌ في ستمائة من أصحابه، قمت خطيباً في الجند من أهل الشام ومن غيرهم قائلاً: يا أهل الشام، أنتم أهل الطاعة والصبر واليقين، لا يغلبن باطلٌ هؤلاء الأرجاسِ حَقَّكم، غَضُّوا الأبصار، واجثوا على الرُّكب، واستقبلوا بأطراف الأسيَّة، ففعلوا ذلك، وأقبل شبيبٌ في أصحابه ودار القتال وكنت أدير القتال من قلب الجيش وأتقدَّم بهم مرحلة مرحلة، وأشحذ هِمَمَ الرجال حتى كُسِرَ أتباعُ شبيب، فكَبَّرْتُ وكَبَّرَ الناس، وتفرق ما بقي من أصحاب شبيبٍ فأمرت باتباعهم هاربين فقتلوا منهم الكثير فلم يبق مع شبيب إلا أقل القليل، ليس لهم حيلة فقلت للجنودِ دعوه في حَرِّ النار. فتركه الجنود هارباً في الأرض ورجعوا. ثم عدتُ إلى الكوفة وأنا أعتقد أنني استرحت من هذا الكابوس المسمى شبيب، فقد رأيت هزيمته وأصحابه بعيني رأسي، فإذا به ولم تمض أيام على هذه المعركة، فإذا به في قوة من أصحابه يقصد الكوفة! فخرجت إليه سريةً من الجيش، فهزَّمته وأصحابه وفرُّوا هاربين، ثم صار شبيبٌ ومن معه إلى السواد، فمروا بعاملي عليها فقتلوه واستحوزوا على ما عنده من مال وعتاد وتقووا به ثم صار بأصحابه فافتتح بلاداً كثيرة في

طريقه ولا يبرز له أحد في قتالٍ إلا قتله شبيب! والحق إنني قد أنفقت أموالاً كثيرةً على الجيوش والعساكر في طلب شبيب فلم يُطيقوه ولم يقدروا عليه، وإنما سلطَ الله عليه الموت قدراً.

الباحث: كيف كان ذلك يا حجاج؟

الحجاج: أقول لك: كنت قد كتبتُ إلى نائبي على البصرة؛ الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبي عقيل وهو زوج ابنتي، أمرته أن يُجهزَ جيشاً أربعة آلاف يطلبون شبيبا وقد استفحل أمره من جديد، بحيث يكون هذا الجيشُ تبعاً لسُفَيَّان بن الأبرد، ففعل فالتقوا بشبيب وأصحابه واقتتلوا قتالاً شديداً ثم حمل جيش بن الأبرد على الخوارج ففروا بين أيديهم حتى اضطروهم إلى جسرٍ هنالك على نهر دُجَيْل، ثم دار قتالٌ بالنبال ثم دخل الليل بظلامه فكف الفريقان عن القتال، وفيما كان شبيبٌ على حصانه على الجسر إذ نَزَّ هذا الحصان على فرسٍ إنثى أمامه فسقط شبيبٌ في الماء فغرق ولم يستطع أحدٌ إنقاذه من الغرق، فلما تحقق أصحابه من ذلك تفرقوا في البلاد ولم تقم لهم قائمة.

الباحث: قل لي يا حجاج، ماهذه القوة والصلابة التي تحلَّى بها شبيبٌ فهزت أركان الخلافة وهزَّتْكَ أنت شخصياً؟! حتى خشيته وخشيت حتى زوجته؟

الحجاج: الحق إن شبيباً كان من طرازٍ فريد وكانت لديه قدرة خارقة على استمالة قلوب وعقول الناس فيتبعوه عن إيمان شديد به وبما يهدف إليه أنه الحق وما سواه باطل، فكانوا يُقاتلون عن يقين لا يشوبه شك، ويبدوا أيضاً أنها الوراثة فقد قالوا إن أمّه جَهِيزَةٌ كانت امرأةً شجاعةً وكانت تُقاتل معه وتشهد معه الحروب وقالوا كانت جميلة وقد قُتِلَت في هذه المعركة

الأخيرة، وكذلك زوجته غزالة كانت ذات شخصية قوية، وكانت تُقاتل معه أيضا واعتلت المنبر في المسجد الجامع بالكوفة ولم تتهيب أن تسب عليه بني أمية أو مثل هذه يُحسب لها حساب فلا يُستهان بها.

الباحث: قالوا كنت تخاف هذه المرأة زوجة شبيب حتى قال الشاعر يهجوك: ⁽¹⁾

أَسَدٌ عَلِيٌّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزَتْ إِلَى غَزَالَةٍ فِي الْوَعْيِ بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ

الحجاج: دعك من أقوال الشعراء وتعالى بنا إلى الأحداث بعد ذلك.

الباحث: نعم ليكن ما تريد أنت في مستهل سنة جديدة في تاريخك.

(1) البيتان لعمران بن حطان، وهما في الأغاني 116 / 18 ووفيات الأعيان 455 / 2. والفتخاء: الناقة ونحوها ترتفع أخلافها قبلاً بطنها.

سنة ثمانٍ وسبعين من الهجرة

الحجاج بعد غرق شبيب وانقضاء فتنته،

يتولى إمرة ساجستان وما وراءها ويرتب نوابها

الباحث: ماهي أخبارك في هذه السنة يا حجاج وقد تخلصت من هم شبيب وأصحابه؟
الحجاج: وأيُّ همٍّ لقد كان كابوسًا مُزعجًا. نعم تخلصتُ من شبيب وتخلصت
أيضًا من هم الأزارقة فقد قدم عليَّ المهلب، وكنتُ حيتنًا في البصرة،
وقد استخلفت على الكوفة المغيرة بن عامر الحضرمي، بعدما أضاف
عبدُ الملك بن مروان لي إمرة خراسان مع سجستان أيضًا، أقول: قدِمَ إليَّ
المهلب بن أبي صُفرة وقد أبلى بلاءً حسنًا مع الأزارقة وكسر شوكتهم،
فأثنتُ عليه وعلى أصحابه وأجزلت لهم العطاء. ثم وليتُ المهلب إمرة
سجستان نيابة عني ووليتُ عُبيد الله بن أبي بكر الثَّقَفِي إمرة خراسان⁽¹⁾.
ووليت قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك الأنصاري، وكان على
قضاء الكوفة كما تعلم شُريح، وقد مات رحمه الله في هذا العام، وكان
قد استعفى من القضاء فاعفيته لكبر سنه، توفي بالكوفة وقد بلغ من العمر
مائة وثمانين سنوات. وقد اشتغل بالقضاء نحوًا من سبعين سنة، عليه
رحمة الله. وقد وليتُ القضاء بعده أبا بُردة بن أبي موسى الأشعري.

وفي هذه السنة كانت غزوةً عظيمةً لبلاد الروم ففتح جيشُ المسلمين إريقية،
وولى عبدُ الملك بن مروان موسى بن نُصير غزو بلاد المغرب، فسار إلى
طنجة، وقَدَّم على مقدمته طارق بن زياد فانتصروا على ملوك تلك البلاد.

(1) البداية والنهاية 289 / 12 وانظر سير أعلام النبلاء 4 / 138.

سنة تسع وسبعين من الهجرة

الطاعون يجتاح الشام ويشتد الصراع مع رتبيل ملك الترك

الباحث: وهذا عام جديد في حياتك يا حجاج ماذا تذكر من أحداثه؟
الحجاج: نعم، في هذه السنة وقع طاعونٌ عظيمٌ ببلاد الشام، مات منه خلقٌ كثير، حتى إنهم ما استطاعوا غزو الروم في هذا العام، وعلم الروم بذلك وما عليه الناس في بلاد الشام من ضعف ومرض، فتجراً الروم عليهم ودخلوا بلاد الشام حتى وصلوا أنطاكية، وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها.

وفي هذا العام أيضاً قتل عبد الملك بن مروان الحارث بن سعيد المتنبئ الكذاب، وهو الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي يُقال إنه مولى الحكم بن مروان⁽¹⁾، ادّعى النبوة فقد عرض له إبليس، وكان رجلاً متعبداً ناسكاً زاهداً لم يسمع السامعون مثل تحميده ولا أحسن من كلامه، وتبعه في غيّه بشرٌ كثير، وكثر أتباعه وأصحابه حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مُخَيَّمرة، فعرض عليه أمره وأخذ عليه الميثاق والعهد؛ إن هو رضي أمراً قبله، وإن كرهه كتم عليه. وقال له: إني نبيٌّ، فقال القاسم: كذبت يا عدو الله، ما أنت نبي. ولكنك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ قال: «إن الساعة لا تقوم حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون، كلهم يزعم أنه نبيٌّ». وأنت أحدهم ثم بلغ الخبر أبا إدريس

(1) وقيل بل مولى أبي الجلاس العبدي.

(2) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق 11 / 427 من طريق الوليد بن مسلم.

القاضي بدمشق فأعلم به عبد الملك بن مروان ⁽¹⁾ وأرسل إليه من قبض عليه وحبسه حتى يُستتاب فلم يرجع فقتله.

كما قُتِلَ في هذا العام أيضًا قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ التِّمِيمِيُّ، الْخَارِجِيُّ، سَلَّمَ عَلَيْهِ الْخَوَارِجُ عَشْرِينَ سَنَةً بِالْخِلَافَةِ مِنْ عَهْدِ مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ، حَتَّى تَوَجَّهَ إِلَى قِتَالِهِ سَفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ الْكَلْبِيُّ فِي جَيْشٍ كَبِيرٍ فَاقْتَتَلُوا فِي طَبْرَسْتَانَ وَقُتِلَ قَطْرِيٌّ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ وَبَعَثُوا أَلِيَّ بَرَأْسِهِ.

الباحث: يقولون يا حجاج إن قَطْرِيَّ بْنَ الْفُجَاءَةِ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَكَانَ شَاعِرًا أَيْضًا؟

الحجاج: كان كذلك وكان له شعر حسن، أذكر منه قوله: ⁽²⁾

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا	مِنَ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ	عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا	فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعٍ
وَلَا ثَوْبُ الْحَيَاةِ بِثَوْبٍ عَزْزٍ	فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْيَرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةً كُلُّ حَيٍّ	وَتُسَلَّمُهُ الْمَنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ	إِذَا مَا عُذَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

وفي هذه السنة كان عليٌّ أَنْ اتَّخَذَ مَوْقِفًا مِنْ رُتَيْبِ بْنِ مَلِكِ التُّرْكِ الَّذِي كَانَ يُصَانِعُ الْمُسْلِمِينَ تَارَةً، وَيَتَمَرَّدُ عَلَيْهِمْ تَارَةً أُخْرَى، فَكَتَبْتُ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، أَنْ يُنَاجِزَهُ بِمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْمَعَ مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَغَيْرِهَا،

(1) البداية والنهاية 12 / 288 وانظر تاريخ دمشق 428 / 11.

(2) البداية والنهاية 12 / 294 وانظر ديوان الحماسة 161 / 1، ووفيات الأعيان 4 / 94، ونهاية الأرب 227 / 3.

وقد فعل والتقى رُتبيل فكسره ابن عبيد الله، وهدم أركانه وجاس خلال ديارهم واستحوذ على كثير من أقاليمهم ومدنهم وأمصارهم فتقهقر رُتبيل منهزماً أمام بن عبيد الله، حتى كانوا قريباً من أكبر مدنها فخاف الأتراك على مدينتهم فلم يجدوا بُداً من أن يُضيقوا على جيش المسلمين الطرق والمسالك، وأراد ابن عبد الله الخروج من الموقف وقد حصر الترك الجيش، بأن يُفاوض رُتبيل على التصالح، على أن يدفع رُتبيل للمسلمين سبعمائة ألف، ويفتحوا للجيش طريقاً يخرجون منه إلى بلادهم. لقد قاسى الجنود أسوأ الأحوال من الحصار والجوع، حتى إن عدداً كبيراً مات بسبب الجوع، ولكن شريح بن هانئ الحارثي لم يرض بهذا الحل بل ندب الناس للقتال والمصابرة والنزال والجلاد بالسيوف والرماح والنبال، واستجاب له شردمة من الناس من الشجعان، فما زال يُقاتل بهم حتى فني أكثر المسلمين، وقُتل رضي الله عنه في هذه المعركة وقُتل معه خلقٌ من أصحابه، ثم خرج من خرج من الناس صحبة عبيد الله بن أبي بكره من أرض رُتبيل، وهم قليل. ولم يلبث عبيد الله بن أبي بكره وقتاً طويلاً بعد هذه المعركة حتى توفي رحمه الله في هذا العام، وقد قُتل من المسلمين في هذه المعركة ثلاثون ألفاً، وإن كان هذا الجيش قد قُتل من الترك أضعاف هذا العدد.

الباحث: وماذا فعلت في هذا الموقف يا حجاج؟

الحجاج: كان عليّ أن أخبر الخليفة بما حدث وأستشيرَه في بعث جيشٍ كثيفٍ إلى بلاد رُتبيل، لينتقموا منه بسبب ما حلَّ بالمسلمين في بلاده، فوافقني عبد الملك بن مروان لما رأي في ذلك من مصلحة بل واستعجلني في ذلك، فأخذت في جمع الجيوش وجهّزت جيشاً كثيفاً لغزو الترك وتأديب رُتبيل.

سنة ثمانين من الهجرة

جيش الطواويس، واستمرار الصراع مع الترك

الباحث: ما أحداث هذه السنة في حياتك يا حجاج؟

الحجاج: في هذه السنة كان سيلٌ جَحَافٌ بمكة، ذلك أنه جَحَفَ على كل شيءٍ مرَّ به، وحمل الحُجَّاجَ من بطنِ مكة والجمال بما عليها، والرجال والنساء لا يستطيع أحدٌ أني يُنقذهم منه، وبلغ الماءُ إلى الحُجُونِ، وغرق خلقٌ كثيرٌ: وكادَ أن يُعْطِيَ البيت الحرام.⁽¹⁾

وفي هذه السنة جَهَّزْتُ جيشًا من جند الكوفة والبصرة وغيرهما بلغ عددهم أربعين ألفًا أنفقت عليهم ألفي ألفٍ سوى أعطياتهم، وكان هذا الجيشُ يُسَمَّى جيشَ الطواويس،⁽²⁾ ليقْتَصُّوا من رُتيل ملك الترك، بعدما هزم الترك جيشَ عُبيد الله بن أبي بكر في السنة الماضية، وأمرتُ عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، رغم أني كنت أبغضُهُ وما رأيته قط إلا هممتُ بقتله، لكنه كان جديرًا بهذا الجيش فقد كان داهية في الحرب. وكان قد دخل عليَّ يومًا وعندي عامرُ الشَّعْبِيِّ، فقلت انظر إلى مشيته، والله لقد هممتُ أن أضرب عنقه. فأسرَّها الشَّعْبِيُّ إلى ابن الأشعث، فقال ابن الأشعث: وأنا والله لأجهدنَّ أن أزيله عن سُلْطانه إن طال بي وبه البقاء.⁽³⁾

(1) البداية والنهاية 12 / 296 وانظر تاريخ الطبري 6 / 325 والكمال 4 / 435 والمتنظم 6 / 211.

(2) البداية والنهاية 12 / 299

(3) البداية والنهاية 12 / 297 وانظر تاريخ الطبري 6 / 327.

لقد أخذتُ في استعراض الجيش وبذلتُ فيهم العطاء، وكنت مترددا فيمن يتولى إمرة هذا الجيش، ثم وقع اختياري على ابن الأشعث رغم بغضِي له، فأتى عُمُه أسماعيل بن الأشعث فقال لي: إني أخافُ أن تؤمِّره فلا يرى لك طاعةً إذا جاوزَ جسرَ الفرات. فقلتُ: ليس هو هنالك، هو لي أهيِّبٌ ومنِّي أرهَبُ أن يُخالفَ أمري، أو يخرجَ عن طاعتي، وأمضيتهُ على إمرة الجيش فمضى إلى أرض رُتَيبِل، فلما بلغَ رُتَيبِلَ خبرَ الجيشِ كتبَ إلى ابن الأشعث يعتذر مما أصاب جيش المسلمين في بلاده العام الفائت، وأنه كان لذلك كارهاً، وأنهم ألجئوه إلى قتالهم، وسأل من ابن الأشعث أن يُصالحه، وأن يبذل للمسلمين الخراج، فلم يُجبههُ ابن الأشعث إلى ذلك، وصمَّمَ على دخول بلاده، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلدًا أو مدينةً أو قلعةً من بلاد رُتَيبِل استعمل عليها نائبًا من جهته، وجعل معه من يحفظها له وترك قوةً مسلحةً في كل أرضٍ يُتَخَوَّفُ منها، فاستحوذ على بلادٍ كثيرة من أرض رُتَيبِل وغنم أموالاً كثيرةً جزيلاً وسبا خلقاً كثيرةً، ثم حبسَ الناسَ عن التوغُّلِ حتى يُصلحوا ما بأيديهم من البلاد، بما فيها من المُغَلَّاتِ والحواصل، ثم يتقدموا في العام المقبل إلى أعدائهم، فلا يزالون يجوزون الأراضي والأقاليم حتى يُحاصروهم في مدينتهم الكبرى مدينة العظماء. وعزموا على ذلك.

كتب ابن الأشعث إليَّ بذلك يخبرني بما وقع، وما يقصد في قابل الأيام من هذا الفتح.

سنة إحدى وثمانين من الهجرة الصراع بين ابن الأشعث والحجاج ابن الأشعث يهزُّ أركان دولة بني أمية

الباحث: هاهي سنة إحدى وثمانين، فما هي أهم أحداثها يا حجاج؟

الحجاج: في هذه السنة فَتَحَ عُبيد الله بن عبد الملك بن مروان مدينةَ قَالِقَلَا، وَغَنِمَ المسلمون منها غنائم كثيرةً. وفيها أيضا غزا موسى بن نُصير أمير بلاد المغرب من جهة عبد الملك بلادَ الأندلس، فافتتح مدناً كثيرةً، وأراضيَ عامرةً، وأوغل في بلاد المغرب إلى أن وصل إلى الزُّقاق المنبثق من البحر الأخضر المحيط.

أما أنا فقد واجهتني كارثة مُزَلِّلة، وفتنةٌ عارمة. هذا العام.!

الباحث: ماذا حدث؟ أيُّ فتنةٍ يا حجاج؟!

الحجاج: فتنةُ ابن الأشعث.! كنتُ كما ذكرتُ لك أبغضُ ابن الأشعث وكان هو يفهم ذلك ويُضمرُّ لي السوءَ وزوال الملك عني فلما أَمَرْتُه على هذا الجيش، وأمرتهُ بدخول أرض رتبيل وحدث ما حدث، وأرسل إليَّ برأيه في أن يبقى في البلد التي فتحها يتقوَّى بحواصلها إلى العام التالي فيواصل الغزو، حتى يصل إلى مدينتهم العظمى فيدخلها بما تقوى به عبر توغله على مهل في أرض الترك. فكتبتُ إليه أستهجِنُ رأيه وأستضعف

عقله وأقرَّعه بالجُبْنِ والنكول عن الحرب، وأمره بالدخول حتماً إلى باقي البلاد لإحراز النصر على رُتَيْيل. وتوالت كُتُيبِي إليه بهذا الخصوص.

الباحث: ذكر المؤرخون أن ابن الأشعث عندما توالت كتبك عليه وفيها ما فيها من الزجر والشتم والتقريع، غضب وقال: يكتب إليّ بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جُنْدِي ولا من بعض خدمي؛ لخوره وضعف قوته؟ أما يذكرُ أباه من ثقيف، هذا الجبانَ صاحبَ غزاله، يعني أن غزاله، وهي زوجة شبيب، حملت عليك وعلى جيشك فانهزمت منها، وهي امرأة، لَمَّا دَخَلَت الكوفة.

الحجاج: لقد بلغه مني ما لا يُطاق من الهمز واللمز والزجر، فليقل ما يقول، المهم في الأمر ما بلغني أنه جمع من حوله وقام فيهم خطيباً وأعلمهم بما رأي وما بلغه من رأيي، فثار الناس وقالوا: بل نأبي على عدو الله الحجاج، ولا نسمع له ولا نطيع، وبلغني أيضاً أن عامر بن واثلة الكنانيّ قال: إن مثل الحجاج في هذا الرأي ومثلنا كما قال الأول لأخيه: احمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. إنكم إن ظفرتم كان ذلك زيادةً في سلطانه، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء، اخلعوا عدو الله الحجاج ولم يذكر خلع عبد الملك وبايعوا أميركم عبد الرحمن بن الأشعث، فإن أُشهدكم أني أول خالع للحجاج. فقال الناس من كل جانب: خلعنا عدو الله.

ووثبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضاً عني.⁽¹⁾

(1) البداية والنهاية 306/12 يذكر ابن كثير أن ابن الأشعث جمع رءوس أهل العراق ممن هم معه، وقال لهم: إن الحجاج قد ألح عليكم في الإيغال في بلد العدو، وهي البلد التي هلك فيها إخوانكم بالأمس، وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد، فانظروا في امركم أما أنا فإني لست بمطيعه ولا أنقض رأياً رايته بالأمس. ثم قام فيهم خطيباً فأعلمهم بما كان رأي من الرأي له ولهم في ذلك من إصلاح البلاد التي فتحوها، وأن يقيموا بها حتى يتقوا بغلاتها وأموالها، ويخرج عنهم فصل

الباحث: ولكنك أرسلت إليه خطاباً غاية في القسوة، تقول له: يا بن الحائك الغادر المرتدّ، امض لما أمرتك به من الإيغال في أرض العدو، وإلا حلّ بك ما لا يُطاق.!

الحجاج: هو أحمق حסود، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقتله، ودلّ عبید الله بن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله، وجده الأشعث ارتدّ عن الإسلام، وما رأيته قط إلا هممتُ بقتله.!

الباحث: كأنك اخترته على رأس الجيش، ليقا تل الترك على أرضهم، ليكون في صدارة القتلى وربما انكسر كما انكسر سابقه في العام الفائت، وتخوّف منه الخيانة والارتداد عليك، إن أحرز النصر أو تمكّن في أرض الترك، فكان ذلك سبباً توترك وسبب ردودك الحادة المؤلمة ورسائلك النارية إليه، والتي للأسف أتت بنتائج عكسية. فأثارت نفوره ودفعته إلى الخروج عليك ثم على الخليفة. وإلا ما علّة تولّيته قيادة جيشٍ في بعثٍ خطير مثل هذا البعث، بهدف إعادة كرامة المسلمين التي أهدرها جيش ابن أبي بكره في العام الفائت، وأنت تعلم عنه كل هذه المثالب وأعظمها وصفك له بالغادر في رسالتك إليه. وكأنك تُوقظ فيه صفة الغدر، لا أرى سبباً في بعثه إلا أن يُقتل في أرض رُبَيْل.! لتخلص منه بيد عدوك لا بيدك أنت.

الحجاج: لا أحد عاقلاً يودّ أن ينكسر جيشه الذي أرسله لقتال عدو له، ولكنني أعترف أنني أبغض هذا الرجل، وأعلم عنه وعن أبيه وجده كلّ هذه المثالب، وتمنيتُ لو قتلته بيدي، ولكنني أعلم أيضاً أنه رجل حربٍ داهية، ويستطيع مداورة رُبَيْل كما كان رُبَيْل يداورنا، ويستطيع النصر عليه، وكانت رغبتني أن يأتي النصر سريعاً، فلا تتمدد الأيام بابن الأشعث

الشتاء والبرد، ثم يسبّرون في بلاد العدو فيفتحوها بلدًا بلدًا إلى أن يحصروا رُبَيْل ملك الترك في مدينته العظماء.

طويلاً في بلاد الترك، فتأخذه نشوة النصر في كل مرحلة يريد أن يقطعها إلى النصر الكبير الحاسم، فتدور هذه النشوى برأسه فيفكر في الاستقلال عناً بما تحت يده من قوة وبلاد وأمصار، يستطيع بها مناهضة الخليفة و الانقلاب علينا. لهذا كان حثي العنيف له على الاستمرار دون توقُّف أو راحة، ثم لا تنس أن هذا الجيش جيش الطواويس كلفنا تكاليف باهظة أضعفت بيت المال، وأردت أن أجني ثمار النصر من الغنائم والأسلاب من أرض الترك لأعوّض ما أنفقته على هذا الجيش. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن⁽¹⁾.

وبعث ابن الأشعث إلى رُتبيل فصالحه على أنه إن ظفر بي فلا خراج على رُتبيل أبداً، ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلاً من سجستان إليّ في العراق ليقاتلني ويأخذ العراق مني، وأثناء الطريق توافقوا على أن خلعهما لي هو خلعٌ كذلك لعبد الملك بن مروان، فخلعوه هو أيضاً، وجددوا البيعة لابن الأشعث فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلال وجهاد المحلّين حتى يبايعوا لابن الأشعث.

الباحث: هذه كارثة يا حجاج! وكيف تصرّفت في هذا الموقف؟!

الحجاج: كتبتُ إلى عبد الملك بن مروان أخبره بآخر المستجدات وأن ابن الأشعث يتجه بجيشه صوب العراق وأستعجلته في إرسال جُند الشام، وبلغ المهلبَ خبرُ ابن الأشعث فقد كتب إليه يدعوه إلى مبايعته والانضمام إليه فأبى عليه ذلك وبعث بكتاب ابن الأشعث إليّ وقد كتب المهلب إلى ابن الأشعث يقول له: إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب

(1) هذه وجهة نظري في الموقف ذكرتها على لسان الحجاج لتبرير اختياره لابن الأشعث لقيادة هذا الجيش رغم ما فيه من مثالب.

طويل، أَتَّقِ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ، الله الله، انظر إلى نفسك فلا تُهلكها،
ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها،
فإن قلت: أخاف الناس على نفسي. فالله أحق أن تخافه من الناس، فلا
تعرضها لله في سفك دم، أو ستحلال مُحَرَّم، والسلام عليك.

الباحث: هل تراجع ابن الأشعث عن موقفه بعد هذا؟

الحجاج: لا لا... لم يتراجع بل استمر في غيّه، وقد كتب إليّ المهلب: أما بعد، فإن
أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علٍ ليس شيء يردُّه
حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل العراق شرّاً في أول مخرجهم، وصباةً
إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردُّهم حتى يصلوا إلى أهلهم، ويشمُّوا
أولادهم، ثم واقفهم عندها لأن الله ناصرٌك عليهم إن شاء الله.⁽¹⁾

أما عبدُ الملك بن مروان لما قرأ كتابي هاله ما وصل إليه الوضع فأسرع
في تجهيز جيش الشام ليتوجه إلى العراق لنصرتي، وقد تجهّزت بكل ما
لدي من قوة لأواجه جيش ابن الأشعث، ولم تنقطع كتبي إلى الخليفة في
كل صغيرة وكبير من تحركات ابن الأشعث وهو في طريقه إلى العراق.
المصيبة الكبرى أن الناس جعلوا يلتفون حوله يريدون خلعي حتى قيل
إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل.

وخرجت بجنود الشام ومن اجتمع معي من جندٍ من البصرة قاصداً ابن
الأشعث، فنزلت تُسْتَر، وأرسلت مقدمة من الجيش فالتقت مقدمة ابن
الأشعث عند نهر دُجَيْل، فانهزمت مقدمة الجيش التي أرسلتها، وقتل ابنُ
الأشعث منهم ما يقرب من ألفٍ وخمسمائة. واحتازوا ما في معسكرهم.
وكنت حين جاءني الخبرُ بذلك أخطب الناس، فأمرتهم أن يرجعوا إلى

(1) البداية والنهاية 308/12 وانظر تاريخ الطبري 6/338،339.

البصرة، فإن ذلك أرفق للجند، فرجع الناس واتبعهم خيول ابن الأشعث لا يُدركون منهم شاذاً إلا قتلوه، وتراجعتُ إلى الزاوية فعسكرتُ عندها، وندمتُ أني لم آخذُ برأي المهلب. وخذقنا حول الجيش في هذا المكان وجاء أهل العراق فدخلوا البصرة واجتمعوا بأهاليهم وشمّوا أولادهم، ودخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بها، وبايعهم وبايعوه على خلع عبد الملك ونائبه؛ يقصدونني وقال لهم ابن الأشعث، إن الحجاج ليس بشيء، لكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله. ووافقه على خلعنا جميع من بالبصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ، والشباب، ثم أقام هو الآخرُ خندقاً حول البصرة، وكان ذلك في ذي الحجة من هذه السنة.

سنة ثنتين وثمانين من الهجرة

تفاقم أزمة ابن الأشعث واتساع نفوذه

عبد الملك بن مروان يساوم ابن الأشعث ويضع مصير الحجاج بين يديه

الباحث: ماذا حدث لك في هذا العام يا حجاج؟

الحجاج: أقول لك: في شهر المحرم من هذه السنة كانت وقعة الزاوية بيني وبين ابن الأشعث، فلما التقى الجيشان جعل جيشنا يحمل عليهم مرةً بعد مرة، فقال القراء وكان عليهم جبلةٌ بن زحر: أيها الناس ليس الفرار من أحدٍ بأقبحَ منه منكم، فقاتلوا عن دينكم ودنياكم، وقال سعيدُ بن جُبَيْر نحو ذلك، وقال الشعبي: قاتلوهم على جورهم واستذلّالهم الضعفاء، وإماتتهم الصلاة. ثم حملت القراء وهم العلماء على جيشنا حملةً قويةً فأوغلوا وقتلوا، ثم رجعوا فإذا هم بمقدمهم جبلةٌ بن زحر صريعاً، فهذهم ذلك، فناديناهم يا أعداء الله، قد قتلنا طاغيتكم. ثم حمل سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ وكان على الخيل من جيشنا حمل على ميسرة ابن الأشعث، وكان عليها الأبرد بن قُرّة التميمي، فانهزموا، ولم يُقاتلوا كثير قتال، ثم حدث هرج ومرج في صفوف ابن الأشعث فانقضت وركب الناس بعضهم بعضاً، وكان ابن الأشعث يُحرّض الناس على القتال، فلما رأى ما الناس فيه أخذ من اتبعه وذهب إلى الكوفة، فبايعه أهلها.

الباحث: لم ينته الأمر بعد؟

الحجاج: نعم لم ينته. فعندما قصد ابن الأشعث الكوفة، خرج إليه أهلها، فتلقوه وحفوا به ودخلوا بين يديه، ثم قصد إلى قصر الإمارة فأمر بالسلام فُنُصبت على القصر فأخذه واستنزل مطر بن ناجية وأراد قتله ولكنه في النهاية بايعه، فاستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة وانضم إليه من جاء من أهل البصرة، وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب، وأمر ابن الأشعث بالمسالح في كل جانب فحفظت له الثغور والمسالك والطرق من كل جانب.⁽¹⁾

الباحث: ماذا فعلت وقد تحصّن ابن الأشعث في الكوفة على هذا الحال؟

الحجاج: ركبْتُ مع من معي من الجيوش الشامية من البصرة في البر، فمررتُ بالقادسية والعُذيب، فوجدت خيلاً عظيمة أرسلها ابن الأشعث وعلى رأسها عبد الرحمن بن العباس، فمنعوا جيشنا من نزول القادسية فسرتُ بالجيش حتى وصلتُ دَيْرَ قُرَّة، وجاء ابن الأشعث بما معه من جيوش الكوفة والبصرة فنزل دَيْرَ الجماجم، ومعه جنودٌ كثيرة، وفيهم القراء من المصْرَيْن. وكان جملةً من اجتمع مع ابن الأشعث مائة ألفٍ مقاتل ممن يأخذ العطاءَ ومعهم مثلهم من مواليهم، وفي هذه الأثناء قدِمَ علينا أمدادٌ كثيرةٌ من الشام، وخندقْتُ حول الجيش وخندق ابن الأشعث حول جيشه أيضاً، وكان كلُّ جيشٍ يبرزُ للآخر فيقتتلان قتالاً شديداً ثم يعود كل جيشٍ إلى ثُكنته حتى أُصيب من رءوس الناس خلقٌ من قريش وغيرهم، واستمر هذا الحال مدةً طويلةً.

الباحث: يذكر المؤرخون أن الأمراء من أهل المشورة اجتمعوا عند عبد الملك بن مروان فقالوا له: إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج

(1) البداية والنهاية 318 / 12 وانظر تاريخ الطبري 346 / 6.

فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان، وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ومعهما جنودٌ كثيرةٌ جدًّا، وكتب معهما كتابا إلى أهل العراق يقول لهم: إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم، عزلته، وأبقيتُ عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام، وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء، يكون عليه أميرا ماعاش وعشتُ، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان. وقال في عهده هذا: فإن لم يُجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاجُ على ما هو عليه، وإليه إمرة الحرب، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه في الحرب وغيره.

كيف ترى هذا يا حجاج لقد جعل عبد الملك بن مروان مصيرك في الإمارة في الشرق كله العراق وما وراءها في يد عدوك ابن الأشعث...؟! او على أقل تقدير في يد أهل العراق الذين وضعوا أيديهم في يد ابن الأشعث، والنتيجة واحدة؛ مصيرك في أيديهم؟

الحجاج: لقد كان هذا الموقف أصعب موقفٍ مرَّ بي في حياتي، بعد كل ما قدمت من خدمات لبني أمية وخاصة عبد الملك بن مروان، يجعل تقرير مصيري في يد عدويّ! لقد عظم هذا الأمر في عيني وكان شاقا عليّ تحمُّله، فكتبتُ إلى عبد الملك بن مروان أقول: يا أمير المؤمنين، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي عنهم لا يلبثون إلا قليلا حتى يُخالفوك ويسيروا إليك، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأةً عليك، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشر النخعي على ابن عفان، فلما سألهم: ما يريدون؟ قالوا: نزع سعيد بن العاص. فلما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه؟ وإن الحديد بالحديد يُفلح، كان الله لك فيما ارتأيت، والسلام عليك.

الباحث: ولكن عبد الملك لم يستجب لرسالتك وأنفذ ما أمر به وأمر بعرض الخيار على أهل العراق، ليروا فيه رأيهم، فتقدم عبد الله ومحمد، فنادى عبد الله: يا معشر أهل العراق، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإنه يعرض عليكم. كذا وكذا وكذا فذكر ما أمر به عبد الملك، وقال محمد بن مروان: وأنا رسول أخي أمير المؤمنين إليكم بذلك. فقالوا: ننظر في أمرنا غداً ونرد عليك الخبر عشية. ثم انصرفوا، فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث، فقام فيهم خطيباً، وندبهم إلى قبول ما عرض عليهم من عزل الحجاج عنهم، وبيعة عبد الملك وإبقاء الأعطيات، وإمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج. ففر الناس من كل جانب، وقالوا لا والله لا نقبل ذلك، نحن أكثر عدداً وعدداً وهم في ضيق من الحال، وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً، ثم جدّدوا خلع عبد الملك بن مروان ثانية واتفقوا على ذلك كلهم.

الحجاج: حدث هذا بالفعل ولمّا بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمّه محمد بن مروان ذلك قالوا لي: شأنك بهم إذاً، فنحن في طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين، وكانا إذا لقياني سلّما علي بالإمرة، وكنت أسلم عليهم كذلك بالإمرة، وتوليت أمر الحرب وإدارتها من جديد بعد هذه الأزمة التي وضعتني على المحكّ وكادت أن تدمرني وتدمر كلّ شيء بنيته.

الباحث: ماذا لو كنت أنت يا حجاج مكان ابن الأشعث وعرض عليك عبد الملك هذا العرض. أكنت تقبل؟

الحجاج: كنت أفكر في الأمر كما فعلوا...! لأن القوة التي كانت تحت يدي لا يستهان بها، والتأييد لي جارف وطموحي عريض، فلست أكتفي بالعراق، فأظنني

كنت أرفض، لأن عرض عبد الملك بهذا الشكل يُنمُّ عن ضعفٍ وقلة حيلةٍ منه، تدفعه أن يُصَحِّي بأقوى أمير عنده. لا لا.. كنتُ أرفض.!

الباحث: ماذا فعلت بعد ذلك يا حجاج؟

الحجاج: أعدتُ تنظيم الصفوف ورتبت الجيش من جديد ووضعت كل أمير من أمراء الجيش في ناحيته، ويدوا أن ابن الأشعث قد فعل ذلك مثلي، وكان الجيشان يلتقيان فيقتاتلان قتالا شديدا، جولةً بعد جولة في حربٍ لا تُريد أن تنتهي، وكانت المشكلة التي تواجهني ان الجنود عندي في ضيق شديد من قلة الطعام واللحم عكس ما يجدُ أنصارُ ابن الأشعث، فقد كانت تأتيهم الميرة من الرساتق والأقاليم من علفٍ وطعام ولحم وغيره. واستمرت الحرب على هذا الحال حتى انقضت هذه السنة. وقبل أن تنتهي هذه السنة جاءني خبرُ وفاة المهلب بن أبي صفرة، توفي رحمه الله غازيا بمرورِ الرُّوز وقد بلغ من العمر ستَّة وسبعين سنَّة، وكانت له مواقف مشهودة من التُّرك والأزارقة وغيرهم من الخوارج، وقد جعل الأمر من بعده لولده يزيد بن المهلب على إمرة خراسان، فأُمضيت له ذلك، وكذلك وافق عبد الملك بن مروان. وكانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة

سنة ثلاثٍ وثمانين من الهجرة دير الجماجم المعركة الفاصلة وهروب بن الأشعث الحجاج والانتقام الكبير بناء مدينة واسط ومسجدها

الباحث: ما أخبار الحرب الدائرة بينك وبين ابن الأشعث يا حجاج؟
الحجاج: استُهلّت هذه السنة ونحن متواقفون للقتال بدير قُرّة، وابن الأشعث وأصحابه بدير الجماجم والمبارزة بيننا وبينهم في كل يومٍ واقعة، ويسقط فيها القتلى من كل جانب، إلا أنه للحق كانت الدائرة لهم في معظم الجولات. لما نحن فيه من ضيقٍ وما هم فيه من سعةٍ، وكان لثباتنا وجلدنا أثرٌ بالغٌ في نفوس أصحاب ابن الأشعث، فكنا إذا سنحت لنا جولة نصر تقدمنا ولم نرتد خطوة ونكسب أرضاً في كل مرةٍ نتصر فيها. ثم تأملت الحال فوجدتُ أن القُرّاء هم عنصرُ القوة في جيش بن الأشعث وهم من يحمسون جنوده ويحرضونهم على القتال والناس يقتدون بهم، وكان لا بد من استخدام مكائد الحروب، وإلا فإن هذه الحرب بهذا الوضع لن تنتهي قبل أن تقضي علينا جميعاً. فبعثت كميناً يأتون جيش ابن الأشعث من ورائه، ثم تواقف الجيشان وبدأت جولةٌ من جولات القتال فأظهرت انهزاماً وتراجعاً، وهربت بمن معي من الجنود، وفرح جنود ابن الأشعث واقتحموا معسكرنا واحتازوا ما فيه وباتوا فيه بعد جهد

القتال طوال اليوم ووضعوا أسلحتهم فجاءت السرية التي أرسلتها ليلاً فمالت عليهم ميلاً واحدة وجمعت الرُّمّة من جيشي وحملت بهم على القراء حملة طاحنة فقتل منهم خلقٌ كثير، ثم حملت على بقية الجيش فانهزم أصحابُ ابن الأشعث، وذهبوا في كل وجهٍ وغرق كثيرٌ منهم في دجلة ودُجِل، ودخلت معسكرهم فقتلت من وجدته منهم فقتل منهم هذه الليلة نحوًا من أربعة آلاف، منهم جماعةٌ من الرؤساء والأعيان، واحتاز جنودي ما في معسكرهم بكماله، وانطلق ابن الأشعث بين أيديهم هاربًا، ومعه فلٌ قليلٌ من الناس لم يبلغ الثلاثمائة، فركبوا دُجِل في السفن وعقروا دوابهم وجازوا إلى البصرة ثم ساروا من هنالك، فأمرت أن يتبعوهم بجيشٍ كثيفٍ مع عمارة بن تميم اللخمي ومعه محمد بن الحجّاج، والإمرة لعمارة⁽¹⁾ فساقوا وراءهم يطردونهم لعلهم يدركوه فيقتلوه، فمازالوا وراءه حتى دخل كرمان، ثم دخلوا بلاد رُتَيْيل ملك التُّرك فأكرمهُ وأنزلهُ عنده وأمنه وعظّمه.

وتمكن عمالي على الأقاليم التي مر بها فلول جيش ابن الأشعث من قتالهم وأسر الكثير منهم وأرسلوا بهم إليّ فقتلت بعضهم ممن يستحق القتل وعفوت عن البعض الآخر، وكنت يوم ظهرت على ابن الأشعث بدير الجماجم ناديت في الناس: من رجع فهو آمن، ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالرّي فهو آمن⁽²⁾، فلحق به خلقٌ كثير ممن كان مع ابن الأشعث،

(1) البداية والنهاية 12/337

(2) البداية والنهاية 12/341، وانظر تاريخ الطبري 6/374. وكان الشعبي من جملة من صار إلى قُتيبة بن مسلم، فذكره الحجّاج، فقل: إن صار إلى قُتيبة. فكتب إليه: أن ابعث إلي بالشعبي. قال الشعبي: فلما دخلت عليه سلّمت عليه بالإمرة، ثم قلت: يا أيها الأمير، إن الناس قد أمروني أن اعتذر لك بغير ما يعلم الله أنه الحق، وإيم الله لأقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله تمردنا

فَأَمَّتُهُمْ أُمَّا مِنْ لَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ فَقَدْ أُرْسِلَتْ فِي اثَرِهِمْ مِنْ يَقْتُلُهُمْ فُقُتِلَ مِنْهُمْ خَلْقٌ كَثِيرٌ. ⁽¹⁾

الباحث: ولكن قل لي يا حجاج لماذا احتشد أهل الكوفة والبصرة عليك كل هذا الاحتشاد، حتى إنهم أيدوا وناصروا وبايعوا أول خارج عليك، فتجاوز جيش ابن الأشعث المائة ألف فارس ومائة ألف راجل؟! كنت جباراً في الأرض؟!

الحجاج: تعلم أنني أخذتهم بالشدة من أول يوم دخلت فيه العراق، وهم لا يصلح معهم غير ذلك وتاريخهم معروف مع الخليفة عثمان بن عفان الذي طأوعهم فقتلوه، وعلى بن أبي طالب الذي لجأ إليهم ليساندوه فقتلوه، والحسين بن علي الذي دعوه إليهم فلما أجابهم تخلوا عنه وتركوه لمن يقتله، ولم يرمش لهم جفن. كنت أحكمهم بالحديد والنار ولا أهأب كبيراً فيهم ولا شيخاً، فمن استحق القتل قُتِلَ ولا أقبل فيه شفاعاً، فشعروا أنه لا مفر من سطوتي إلا بطاعتي، فجاءهم الأشعث بجيشه وكأنه القشة

عليك، وحرّضنا وجهدنا كل الجهد فما ألونا، فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا وما جرّت إليك أيدينا، وإن عفوت عنا فبحلمك، وبعد فالحجة لك علينا. فقال الحجاج: أنت والله يا شعبي أحب إليّ ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت. قد أمنت عندنا يا شعبي، فلما مشيت قليلاً، قال: هلم يا شعبي قال: فوجل لذلك قلبي، ثم ذكرت قوله قد أمنت يا شعبي. فاطمانت نفسي، فقال: كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي؟ قال: وكان لي مكر ما فقلت: أصلح الله الأمير، قد اكتحلت بعدك السهر، واستوعرت السهولة واستوخمت الجنب، واستحلست الخوف، واستحليت الهم، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً. قال: انصرف يا شعبي. فانصرف. ويقول الشعبي: سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، يقول: أما بعد فإن الله كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، فلا يغرنك شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا طول الأمل بقصر الأجل. وانظر وفيات الأعيان 2/39.

(1) البداية والنهاية 12/344 وانظر تاريخ خليفة 1/373 وتاريخ الاسلام حوادث ووفيات 81100 ص 16 وتاريخ الطبري 6/375.

التي يتعلقون بها لينجوا من غرقٍ محققٍ معي، فخلعونني. بل وانضووا
تحت لواء ابن الأشعث علَّهم يتخلصوا مني قتلاً أو عزلاً. فما تم لهم
المراد، وكانوا قد أوشكوا! ⁽¹⁾

(1) يذكر صاحب وفيات الأعيان 2 / 44، 45 أن الحجاج وفد على الوليد بن عبد الملك في خلافته فوجده في بعض نَزْهه فاستقبله، فلما رآه ترجل له وقبَّل يده وجعل يمشي وعليه درع وكنانة وقوس عربية، فقال له الوليد: اركب أبا محمد، فقال: يا أمير المؤمنين دعني أستكثر من الجهاد في خدمتك، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلاني عنه، فعزم عليه الوليد حتى ركب، ودخل الوليد داره فتغلغل في غلالة ثم أذن للحجاج فدخل في حاله تلك وأطال الجلوس عنده إذ جاءت جاريةٌ فساررتَه وانصرفت، فقال الوليد للحجاج: أتدري ما هذا أبا محمد؟ قال: لا والله، قال: بعثت ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز تقول: ما مجالستك هذا الأعرابي المستلثم في السلاح وأنت في غلالة، فأرسل إليها إنه الحجاج، فراعها ذلك وقالت: والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق، فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعهن على شرك ولا مكايده عدوك ولا تُطمعنهن في غير أنفسهن ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن وإياك ومشاورتهن، وأكثر من ذلك. ثم نهض الحجاج فخرج ودخل الوليد على أم المؤمنين فأخبرها بمقالة الحجاج فقالت: أحب أن تأمره غداً بالتسليم عليّ، قال: أفعل، فلما غدا الحجاج على الوليد قال له: يا أبا محمد صر إلى أم البنين فسلم عليها، فقال اعفني من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: لا بد منه؛ فمضى الحجاج إليها فحجبتة طويلاً ثم أذنت له وتركته قائماً ولم تأذن له في الجلوس ثم قالت: إيه يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خليفته ما ابتلاك برمي الكعبة وقتل ابن ذات النطاقين؛ فاما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم، حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام وأنت في أضيق من القرن، فأظلتك رماحهم ولطالما نفص نساء أمير المؤمنين المسك عن غدائرهن وبعنه في الأسواق حتى أُخرج في أرزاق البعوث إليك، ولولا ذلك لكنت أذل من البَقَّة، وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع عن بلوغ أوطاره من نسائه فإنه غير قابل منك ولا مصغٍ إلى نصيحتك، فإن كُن يُفَرِّجَنَّ من مثلك فما أولاه بالقبول منك؛ ثم قالت لجواريتها: أخرجوه عني، فدخل على الوليد من فوره فقال: يا أبا محمد، ما كنت فيه؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما سكنت حتى كان بطن الأرض أحب إلي من ظهرها، فضحك الوليد حتى فحص برجليه ثم قال: يا أبا محمد إنها ابنة عبد العزيز.

الباحث: يا حجاج، كنت مثار رعب وهلع في قلوب الناس، فها هو ابراهيم النخعي ظل هاربا منك طول حياتك فلما توفاك الله ظهر من جديد، فقيل له: أين كنت؟ قال: بحيث يقول الشاعر:

عوى الذئب فاستانست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطر

الحجاج: أعلم أن الكثير منهم كان يكرهني لقسوتي وشراستي في أمور الحكم، وكان ما يغضبني أن بعض ردودهم عليّ كانت تؤلمني! فقد جيء بامرأة من الخوارج، فجعلت أكلمها وهي لا تنظر إلي، فقال لها الحرس إن الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه، قالت: إني أستحي أن أنظر إلى من لا ينظر إليه الله. فكانت مثل هذه الردود تردني إلى نفسي ردًا عنيفا وتتركني في هم التفكير في ما أفعل بهؤلاء الخوارج، وتمنيت لو عفاني الله من دمائهم. بأن يتوبوا ويرجعوا عن غيهم. ورغم هذا كان لبعضهم شأن غير هذا، ففي يوم أردت أن انفرد بنفسي بعيدا عن الحرس وأخذت أتجول في الحقول، فمررت برجل يسقي ضيعة له، فقلت له: كيف حالكم مع أميركم؟ فقال لعنه الله / المبيد المغير الحقود، عجل الله له الانتقام منه، فقلت له: تعرفني؟ قال: لا والله، قلت أنا الحجاج، فرأي أن دمه قد طاح فرفع عصا كانت معه وقال: أتعرفني؟ أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي، وأزبد وأرغى وهاج وأراد أن يضرب رأسه بالعصا، فضحكت منه وانصرفت.⁽¹⁾

الباحث: قتلت الكثير بعد هذه المعركة فضلا عن قتل في المعركة فيذكر المؤرخون أن من قتل في هذه المعركة بلغ مائة وثلاثين ألفاً!⁽²⁾ وفي موقف واحد

(1) وفيات الأعيان 2 / 39، 40.

(2) البداية والنهاية 345 / 12 وانظر تاريخ الطبري 381، 382 / 6.

قتلت خمسة آلاف أسير ممن أرسلهم إليك يزيد بن المهلب، ثم عدت إلى الكوفة لتجدد البيعة لك ولعبد الملك بن مروان بعد أن نكثها الكوفيون والبصريون على السواء.

الحجاج: كانت رقبتني على المحك، ماذا كنت تريدني أن أفعل، ولو تمكنوا مني لقطَّعوني إربا إربا! كان هذا هو الرد العادل على هؤلاء المارقين الذين نكثوا أيمانهم وعهدهم لي ولعبد الملك بن مروان خليفة المسلمين، وعليه إجماع الأمة، وكنت لا أقبل بيعه أحد من أهل الكوفة حتى يشهد على نفسه بالكفر، حينئذ أقبل منه البيعة، وإلا قتلته صبرا أمامي. إنهم هم خارجون على الإجماع، يشقون عصا الطاعة فقتلهم حلال.

ولو تمكنوا من قتلنا لقتلونا، إنما جزاؤهم أن يُقتلوا أو يُصلَّبوا أو يُنفوا من الأرض، وأنا رأيت أن يقتلوا أو يُصلَّبوا عبرة لغيرهم أما النفي من الأرض فإنه بالنسبة لهم نجاة من الهلاك وسيتجمعون ويعودون من جديد كما يفعل الخوارج دائما.

الباحث: تذكرُ حد الحراية وهو يطبق على قُطَاع الطرق وليس المعارضين للنظام؟
الحجاج: هؤلاء الخارجون عن الإجماع أشد خطرا على الناس من قُطَاع الطرق وليتهم عارضوا بالقول فقط، بل عارضوا بالفعل وحملوا السلاح ونظموا الجيوش وشقوا عصا الطاعة يسعون لكرسي الخلافة.

الباحث: وقتلت أعشى همدان الشاعر المعروف؟!.

الحجاج: أراد أن يُخاعني وصنع لي قصيدة يتمدح فيها عبد الملك وأهل بيته، وأنا أعلم أنه كاذب مخادع، لقد كان في حزب ابن الأشعث وكان بوق الدعاية المجلجل له وصنع له قصيدة يمدحه فيها ويحسنه في عيون

الناس، فطبقت الآفاق، لقد كان تأثيره في الناس أقوى من تأثير الجيوش، فلم ينظلي عليّ مكرّه فقتلته.

الباحث: كانت شهيتك في سفك الدماء في هذه الفترة لا يحدها حدٌ، فقتلت جماعاتٍ من الأشراف والكبراء والفقهاء من أهل الكوفة⁽¹⁾، فكان منهم، مالك بن دينار، وسعيد بن أبي الحسن⁽²⁾، محمد بن سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن شداد، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود، وأبو البختريّ، وعطاء بن السائب، وعمران بن عصام الضُّبعيّ وكان من علماء أهل

(1) وذكر صاحب وفيات الأعيان ج 2 ص 38 قال القاضي: لما حمل الأسرى إلى الحجاج وهو حينئذٍ بواسط القصب قبل أن يبنى مدينة واسط قال لحاجبه: قدّم إليّ سيدهم فيروز بن الحصين، فقال: اكتب لي أموالك، قال ثمّ ماذا؟ قال اكتبها أولاً، قال: ثم أنا آمن على دمي؟ قال اكتبها ثم أنظر، قال: اكتب يا غلام، ألف، ألفي، ألف، ثم ذكر ما لا كثيراً، فقال الحجاج: أين هي وعند من هي؟ قال: لا والله لا جمعت بين مالي ودمي، فأمر الحجاج فعُذّب بأنواع العذاب، وكان من جملة ما عُدّب به أن يُسَدَّ عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يُجرّج حتى يجرح جسده، ثم يُضْحَ عليه الخل والملح؛ فلما أحس بالموت قال: إن الناس لا تشكّن أني قُتِلت ولي ودائع وأموال عند الناس لا تُؤدّي إليكم أبداً فأظهروني للناس ليعلموا أني حيّ فيؤدوا المال، فأخرج فصاح في الناس: من عرفني فقد عرفني؛ أنا فيروز، إن لي عند أقوام مالا، فمن كان لي عنده شيء فهو له وهو منه في حل، فلا يؤدّين أحدٌ منه درهما، ليبلغ الشاهد الغائب؛ فأمر به الحجاج فقتل. وجلس الحجاج يوماً لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس، فقام رجلٌ منهم فقال: أصلح الله الأمير، إن لي عليك حقاً، قال وما حقك؟ قال: سبّك عبد الرحمن يوماً فرددت عليه، فقال من يعلم ذلك؟ فقال: أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلا شهد به، فقام رجلٌ من الأسرى فقال: قد كان ذلك أيها الأمير، قال خلّوا عنه، ثم قال للشاهد: فما منعك أن تنكر كما أنكّر؟ قال: لقد يم بغضي إياك، قال: ولنخلّ عنه لصدقه. ج 2 / 38 وقال أبو الحسن المدائني: لما ظفر الحجاج بأصحاب ابن الأشعث، جلس لضرب أعناقهم عامة النهار، فأثنى آخرهم برجل من بني تميم قال له: والله يا حجاج لئن كنّا قد أسأنا في الذنب لما أحسنت في العقوبة، فقال الحجاج: أفٍ لهذه الجيف أما فيها رجل يحسن مثل هذا؟! وعفا عنه.

(2) البداية والنهاية 12 / 347 وانظر تاريخ الإسلام حوادث ووفيات (1008 هـ) ص 15.

البصرة، وعبد الرحمن بن أبي ليلى وكان من حفظة القرآن حفظه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان آخرهم سعيد بن جبير! ⁽¹⁾

الحجاج: كانت رغبتني في الانتقام من هؤلاء الخونة الغادرين ناقضي البيعة، لا حدود لها فعلا. وبعضهم كان يستفزني ولا يريد أن يُهادِنني ويعترف بذنبه، ويأخذه الكِبَرُ بعدم الاعتراف بذنبه وغدره، فيدفعني دفعا إلى قتله، وقد ندمت على قتل بعضهم، لمكانته العظيمة في الفقه والعلم مثل سعيد بن جبير، فقد كان من أعلم أهل زمانه فاعتزازه بعلمه وفقهه ومكانته بين الناس كانت تنحو به بعيدا فلا يرضى أن يُدَلَّ نفسه أمامي أو أمام الناس، وفي وقت الغضب تفقد الصواب!

وكنت أحب حَفَظَةَ القرآن الكريم وأتودد إليهم وأقدرهم، وأحب إذا رأيت أحدهم أن أختبره في الحفظ، ودخل عليَّ أحدهم يوما فسألت: ما قبل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قِنْتُءَآئَاءَ اللَّيْلِ﴾ ⁽²⁾ قال: ﴿قُلْ نَمَتَّ بِكَفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فتشاءمت وقلت في نفسي لن أسأل أحدا بعدها أبداً.

الباحث: لم يكن يهرب منك فقط أعداؤك من الخوارج، بل أقرباؤك من بني ثقيف، فهذا محمد بن نمير الثقفي، يهرب منك، وكان يشبُّ بأختك زينب، وهو الذي يقول:

تضوُّع مسكاً بطن نَعْمَانُ أن مشت به زينبُ في نسوةٍ عِطْرَاتِ

الحجاج: نعم وأرسلت في طلبه فلما أُتِيَ به قال: واللله يا أيها الأمير إن قلت إلا خيراً، إنما قلت:

(1) البداية والنهاية 12/ 345 وانظر تاريخ الطبري 382، 381/6، وانظر تاريخ خليفة 1/371

(2) الزمر: 9 راجع وفيات الأعيان 2/40

يُخَضِّن أطرافَ البنان من التقى
قلت له: فاخبرني عن قولك:
ويخرجن شطر الليل معتجراتٍ

ولما رأت ركب التُمَيْرِيَّ أَعْرَضَتْ
وكنَّ من أن يلقَيْنَه حذراتٍ
ما كنتم؟! قال: كنت على حمارٍ هزيلٍ ومعِي صاحبٌ على أتان مثله. فغفوت عنه.⁽¹⁾

الباحث: أرسل عبد الملك بن مروان يعاتبك ويلومك على إسرافك في القتل وإسرافك في الأموال؟! يقول لك: أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذير الأموال، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين لأحدٍ من الناس، وقد حكم عليك في الدماء في الخطأ بالدية وفي العمد بالقود وفي الأموال بردها إلى موضعها ثم العمل فيها برأيه، وإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيان عنده منع حقٍ وإعطاءً باطل، فإن كنت أردت الناس لك فما أغناهم عنك وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك من أمير المؤمنين لينٌ وشدةٌ، فلا يؤنسك إلا الطاعة ولا يوحشك إلا المعصية، وظن بأمر المؤمنين كل شيءٍ إلا احتمالك على الخطأ، وإذا أعطاك الله الظفر بقوم فلا تقتلن جانحًا ولا أسيرًا؛ وكتب في أسفل هذا الكتاب:

إذا أنت لم تترك أمورًا كرهتها	طلبت رضايي بالذي أنت طالبه
وتخشى الذي يخشاه مثلك هاربًا	إليَّ فها قد ضيَّع الدَّرَّ حالبه
وإن تر مني غفلةً قرشيةً	فيا ربما قد غصَّ بالماء شاربه
وإن تر مني وثبةً أمويةً	فهذا وهذا كله أنا صاحبه
فلا تأمنني والحوادثُ جمةٌ	فإنك مجزى بالذي أنت كاسبه
ولا تعدُّ ما يأتيك مني وإن تعد	يقوم بها يوم عليك نوابه

(1) وفيات الأعيان 2 / 40

ولا ترفعن للناس حقاً علمته ولا تغضبن، فاللين للناس جانبه

الحجاج: نعم ولقد أجبته: أما بعد، فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء وتبذيري للأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهلها، وما قضيت في أهل الطاعة ما استحقوه، فإن كان قتلي أولئك العصاة سرفاً وإعطائي أولئك المطيعين تبذيراً فليسوغني أمير المؤمنين ما سلف وليحدّ لي حدّاً أنتهي إليه إن شاء الله تعالى، ولا قوة إلا بالله، ووالله ما سُلِبَتِ نعمة إلا بكفرها ولا تمت إلا بشكرها، ولا أصبت القوم خطأً فأديهم ولا ظلمتهم فأقاد بهم، ولا أعطيتُ إلا لك ولا قتلتُ إلا فيك، وأما ما أتاني من أمرئك فأبينهما عزة أعظمهما محنة، وقد عبأتُ للعة الجلاذ وللمحنة الصبر؛ وكتبتُ في أسفله:

إذا أنا لم أبلغ رضاك وأتقي	أذاك فيومي لا تزول كواكبه
وما لامريء بعد الخليفة جنة	تقيه من الأمر الذي هو كاسبه
أسالم من سألت من ذي هواده	ومن لم تسالنه فإني محاربه
غذا قارف الحجاج منك خطيئة	فقامت عليه في الصباح نوادبه
إذا أنا لم أدن الشفيق لصنعه	وأقصى الذي تسري إلي عقاربه
فقف لي على حد الرضى لا أجوزه	مدى الدهر حتى يرجع الدّرّ حاله
وإلا فدعني والأمور فإنني	شفيقٌ رقيقٌ أهله تجاربه

وقد بلغني أنه قال بعدما قرأ كتابي قال: خاف أبو محمد صولتي، ولن أعود إلى ما يكره.⁽¹⁾

(1) وفيات الأعيان 2 / 35، 36.

الباحث: قالوا يا حجاج إنك في هذه السنة بنيت مدينة واسط.⁽¹⁾

الحجاج: نعم وكان سبب ذلك أنني رأيت راهباً على أتانٍ قد أجاز دجلة، فلما مرَّ بموضع واسطٍ وقفت أتانهُ فبالت، فنزل عنها، وعمدَ إلى موضعٍ بولها فاحتفرهُ ورمى به في دجلة، فقلت له: لم صنعتَ هذا؟ قال: إنا نجدُ في كُتُبنا أنه يُبنى في هذا الموضع مسجدٌ يُعبدُ فيه الله مادام في الأرض أحدٌ يُوحِّدُه، عند ذلك أمرتُ رجالي فاختطُّوا مدينة واسطٍ في هذا الموضع. وبنيت المسجدَ هنالك.

(1) البداية والنهاية 12 / 345 وانظر تاريخ الطبري 384، 383 / 6.

سنة أربع وثمانين من الهجرة

تهديد الحجاج لرتبيل ملك الترك لحمايته ابن الأشعث

مقتل ابن الأشعث في أرض الترك

الباحث: ما أخبارك في هذه السنة يا حجاج؟

الحجاج: هل تذكر روح بن زنباع الجزامي؟

الباحث: أذكره، وزير عبد الملك بن مروان وهو الذي رشحك عنده لتولي شرطة الجيش.!

الحجاج: نعم هو كذلك، لقد توفي في هذه السنة عليه رحمة الله.

الباحث: ولكن ما أخبار ابن الأشعث؟ أما زال هاربا منك؟!

الحجاج: أقول لك: لقد كتبتُ إلى رُتبيل ملك الترك الذي لجأ إليه ابن الأشعث أقول له: والله الذي لا إله إلا هو لئن لم تبعث إليّ بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتل؛ ولأُخربَنَّها. فلما تأكَّد أني جادُّ فيما أقول، استشار في ذلك بعضُ الأمراء فأشار عليه بتسليم ابن الأشعث إليه، قبل أن أُخربَّ عليهم ديارهم وأُخذَ عامَّةُ الأمصار، فأرسل إليّ رُتبيل يشترط عليّ أن لا يُقاتلَ عشرَ سنين، وأن لا يؤديَ في كل سنةٍ منها إلا مائة ألفٍ من الخراج، فأجبته لطلبه.⁽¹⁾ عند ذلك غَدَرَ رُتبيل بابن الأشعث، فقبض

(1) وقالوا بل أطلق له خراج أرضه سبع سنين. راجع البداية والنهاية 354 / 12.

عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم في الأصفاذ وبعث بهم مع رُسُلِي إليه فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يُقال له الرَّخَجُ. صعد ابن الأشعث وهو مقيدٌ بالحديد إلى سطح قصرٍ، ومعه رجلٌ موكَّلٌ به لئلا يفرَّ، وألقى نفسه من ذلك القصر وسقط معه الموكَّلُ به فماتا جميعاً، فعمد الرسولُ إلى رأس ابن الأشعث فاحتزَّهُ، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث، وبعث برءوسهم إليَّ فأمرتُ فطيف برأسه في العراق، ثم بعثتها إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فطيف بها في الشام، ثم بعثها إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هناك، ثم دفنوها هناك بمصر، وجُثَّتْه بالرَّخَجِ.⁽¹⁾ وفي ذلك قال بعض الشعراء: ⁽²⁾

هيهاتَ موضعُ جُثَّةٍ من رأسها رأسٌ بمصرَ وجُثَّةٌ بالرَّخَجِ

(1) قالوا إن رُتِيلَ أمر بضرب عنقه صبرا بين يديه وأرسل رأسه إلى الحجاج، وقيل بل كان ابن الأشعث قد مرض مرضاً شديداً فقتله وهو بآخر رمقٍ.

(2) راجع تاريخ الطبري 6/391 ونهاية الأرب 21/259، والرَّخَجُ: مدينة من نواحي كابل، معجم البلدان 2/770.

سنة خمس وثمانين من الهجرة الحجاج يخشى آل المهلب ويسجنهم وانفاذ البيعة للوليد بن عبد الملك في الأمصار

الباحث: ما هي أحداث هذه السنة يا حجاج؟
الحجاج: في هذه السنة عزلتُ يزيدَ بن المهلب، عن إمرة خراسان، ووليت بدلا منه أخاه المفَضَّلَ بن المهلب. فقد توجستُ أن ينقلب عليّ.
الباحث: يبدو أن تجربة ابن الأشعث تركت في نفسك شيئا فلم تعد تثق في أحد!؟
الحجاج: قد يكون كلامك صحيحا، ولكن كاهنا أخبرني أنه يلي العراق بعدي رجل يُسمى يزيد. فتوجست أن يكون يزيد بن المهلب، فعزلته بعدما رجعت في ذلك لعبد الملك بن مروان، فلم يرفض لي طلب.
وفي هذه السنة عزم عبد الملك بن مروان على عزل أخيه عبد العزيز بن مروان عن إمرة الديار المصرية، وقد حسَّن له ذلك روح بن زنباع الجُزامي قبل أن يتوفى فبينما هو في ذلك إذ دخل عليه قُيُصَّةُ بن ذُئيب في الليل، يُعزِّيه في أخيه عبد العزيز، فندم عبد الملك على ما كان منه من العزم على عزله، وإنما حملهُ على إرادة عزله أنه أراد أن يعهد بالأمر من بعده لأولاده؛ الوليد، ثم سليمان، ثم يزيد، ثم هشام: وكان كل ذلك برأي مني وترتيب. ⁽¹⁾ وكان أبوه مروان عهد بالأمر إلى عبد الملك، ثم من بعده

(1) البداية والنهاية 362/12 وانظر تاريخ الطبري 412/6.

إلى عبد العزيز، فأراد عبد الملك أن يُنَحِّيَه عن الإمرة من بعده بالكلية،
ويجعل الأمر في أولاده وعقبه، وأن تكون الخلافة باقيةً فيهم.

وفي هذه السنة بايع عبد الملك لولده الوليد، ثم من بعده لأخيه سليمان
بن عبد الملك وكان ذلك بعد موت عبد العزيز بن مروان، ببيع له بدمشق،
ثم سائر الأقاليم، ثم لسليمان من بعده، ثم لما انتهت البيعة إلى المدينة،
امتنع سعيد بن المسيب أن يُبايع في حياة عبد الملك لأحد، فأمر به هشام
بن اسماعيل نائب المدينة، فَضْرَبَ ستينَ سوطاً، وألبسه ثياباً من شعر،
وأركبه جملاً وطاف به في المدينة، ثم أمر به فذهبوا به إلى ثنية ذباب
وهي الثنية التي كانوا يُصلبون عندها ويُقتلون فلما وصلوا هناك ردُّوه إلى
المدينة، فأودعوه السجن.

ثم كتب هشام بن اسماعيل المخزومي إلى عبد الملك يُعلمه بمخالفة
سعيد بن المسيب في ذلك وما فعله به ليُبايع، كتب إليه عبد الملك يُعَنِّفه
في ذلك، ويأمره بإخراجه من السجن، ويقول له: إن سعيداً كان أحق منك
بصلة الرِّحم مما فعلت به، وإنَّا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاقٌ ولا خلاف.

سنة ست وثمانين من الهجرة

الحجاج يغزو بلاد الترك من جديد بجيش قتيبة

ظهور الطاعون بالشام والبصرة وواسط

وفاة عبد الملك بن مروان

الباحث: ماهي أخبراك في هذه السنة يا حجاج؟

الحجاج: أرسلت إلى قتيبة نائبي على مرو وخراسان بأن يغزو بلاد الترك، فغزا بلادًا كثيرة من أرض الترك وغيرهم من أرض الكفر، وسبى وغنم وسلم، وتسلم قلاعًا وحصونًا وممالك، ثم قفل فسبق الجيش، فكتبتُ إليه ألومه على ذلك وأقول له: إذا كنت قاصدا بلاد العدو فكن في مقدمة الجيش، وإذا قفلت راجعًا، فكن في ساقية الجيش، أقصد ليكون ردًا لهم من أن ينالهم أحدٌ من العدو وغيرهم بكيد.

الباحث: وما هي أخبار الشام؟

الحجاج: ظهر الطاعون بالشام والبصرة وواسط، وسمأه الناس طاعون الفتيات؛ لأنه أول ما أصاب بدأ بالفتيات. فسُمي بذلك.

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم، فقتل وسبى وغنم وسلم، وافتتح حصن بولق، وحصن الأخرم من أرض الروم. وفيها عقد عبد الملك بن مروان لابنه عبد الله على مصر، وذلك بعد موت أخيه عبد العزيز، فدخلها في جمادى الآخرة، وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة.

الباحث: وقالوا إنك في هذه السنة، حبست يزيد بن المهلب.!

الحجاج: نعم فقد رأيت أنه يستحق هذا.

وفي النصف من شوال من هذه السنة تُوفي أمير المؤمنين الخليفة عبد الملك بن مروان والد الخلفاء الأمويين. وهو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الوليد الأموي أمير المؤمنين، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية

الباحث: قال المؤرخون: كان فقهاء المدينة أربعة؛ سعيد بن المسيب، وعروة، وقبيصة، وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الإمارة.

الحجاج: نعم وقد عُرف في المدينة أن ما فيها أشدُّ تشميرًا، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان. ⁽¹⁾ وذكروا عنه أنه قال: كنتُ أجالسُ بريرةً بالمدينة قبل أن أليَ هذا الأمر، فكانت تقول: يا عبد الملك، إن فيك خصالا، وإنك لجديرٌ أن تليَ أمر هذه الأمة، فاحذر الدماء؛ فإنني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجلَ ليدفعُ عن باب الجنة أن ينظرَ إليها، على محجمةٍ من دمٍ يريقه من مسلمٍ بغير حقٍّ». ⁽²⁾

الباحث: وورد عن الشعبي أنه قال: ما جالستُ أحداً إلا وجدتُ لي الفضلَ عليه إلا عبدَ الملك ابن مروان؛ فإني ما ذاكرتهُ حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه.

(1) البداية والنهاية 12/379 وانظر طبقات ابن سعد 5/234، وتاريخ دمشق 43/247.

(2) أخرجه الطبراني في الكبير 24/205 (526) عن علي بن عبد العزيز، وابن عساكر في تاريخ دمشق 43/241 بسنده من طريقين عن علي بن عبد العزيز عن عبد الملك بن مروان عن بريرة. راجع البداية والنهاية 12/379.

الحججاج: عليه رحمةُ الله وكان حازماً فهماً فطناً سائساً لأُمُور الدنيا، لا يكلُّ أمر دنياه إلى غيره.

كانت مدَّةُ خلافته إحدى وعشرين سنةً؛ منها تسعُ سنين مشاركاً لابن الزبير، وثلاث عشرة سنةً، وثلاثة أشهرٍ ونصفٍ مستقلاً بالخلافةِ وحدهُ. وكان عمره يوم مات ستين سنةً.⁽¹⁾

الباحث: ماذا فعل الوليد بن عبد الملك بعد موت أبيه؟

الحججاج: لما رجع من دفن أبيه خارج باب الجابية الصغير وكان ذلك يوم الخميس للنصف من شوال من هذ السنة، أعني سنة ستٍ وثمانين لم يدخل المنزل حتى صعد المنبر في المسجد الكبير بدمشق، فخطب الناس فكان مما قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعانُ على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة، قوموا فبايعوا، فقام الناس يبايعونه وكان أولهم عبد الله بن همام السَّلُولِيُّ.⁽²⁾

وفي هذه السنة شرع الوليد بن عبد الملك في بناء جامع دمشق الذي لا يُعرف في الآفاق أحسنَ بناءً منه، وقد شرع في بنائه في ذي القعدة من هذه السنة فلم يزل في بنائه وتحسينه مدة خلافته.

(1) البداية والنهاية 12/396 وقيل: ثلاثا وستين سنة. قاله المدائني. وقيل: ثمانٍ وخمسين سنةً. ودُفِنَ بباب الجابية الصغير. راجع تاريخ الطبري 6/419.

(2) البداية والنهاية 12/402 وانظر تاريخ الطبري 6/423 والكمال 4/522.

سنة سبع وثمانين من الهجرة

عمر بن عبد العزيز يتولى إمرة المدينة

تكاثر الأتراك على جيش قتيبة، والحجاج يدعو لهم على المنابر

الباحث: وما أخبار الخليفة الجديد الوليد بن عبد الملك، وأخبارك في هذه السنة؟.

الحجاج: أقول لك: في هذه السنة عزل الوليد بن عبد الملك هشام بن اسماعيل عن إمرة المدينة، وولى عليها ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت عبد الملك عمر بن عبد العزيز، فدخلها في ثلاثين بعيرا، في ربيع الأول منها، فنزل دار مروان، وجاء الناس للسلام عليه وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة ⁽¹⁾ فلما دخلوا عليه جلسوا. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إني إنما دعوتكم لأمرٍ تؤجرون عليه، تكونون فيه أعوانا على الحق، إني لا أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم، فإن رأيتم أحدا يتعدى، أو بلغكم عن عاملٍ لي ظلامه، فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني. فخرجوا من عنده يجزونه خيرا، وافترقوا على ذلك.

(1) وهم عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت. راجع البداية والنهاية 405/12 وانظر تهذيب الكمال 93/33 وتاريخ الطبري 427/6.

ثم كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بأن يُوقِفَ هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان، وكان سيء الرأي فيه، لأنه أساء إلى الناس في المدينة في مدة ولايته عليهم، وكانت نحوًا من أربع سنين، ولا سيما إلى سعيد بن المسيب وإلى علي بن الحسين وأهل بيته، فلما أُوقِفَ للناس قال هشام: ما أخافُ إلا من سعيدٍ وعلي بن الحسين. فقال سعيد لابنه ومواليه: لا يعرض منكم أحدٌ لهذا الرجل، فإني تركت ذلك لله وللرحم، وأما كلامه فلا أكلمه أبدًا. وأما علي بن الحسين فإنه مرَّ به وهو موقوفٌ عند دار مروان فلم يتعرض له، وكان قد تقدَّم إلى خاصته أن لا يعرض له أحدٌ منهم، فلما اجتاز به علي بن الحسين، وتجاوزهُ، ناداه هشام بن إسماعيل، قائلاً: «الله أعلم حيث يجعل رسالته».⁽¹⁾

وفي هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وفتح حصونًا كثيرةً وغنم غنائم جمَّة.⁽²⁾ وفي هذه السنة أيضًا غزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك، وصالحه ملكهم نيزك على مالٍ جزيل، وعلى أن يُطلق كلَّ من في بلاده من أسارى المسلمين، ثم غزا قتيبة بيكند، فاجتمع له من الأتراك عندها بشرٌ كثيرٌ وجَمٌّ غفير، وهي من أعمال بُخَارَا، فلما نزل بأرضهم استنجدوا بأهل الصُّغْدِ ومن حولهم من الأتراك، فاتوهم في جمعٍ عظيم، فأخذو على قتيبة الطرق والمضايق، فتواقف هو وهم، قريبًا من شهرين، وهو لا يقدر على أن يبعث إليهم رسولًا، ولا ياتيه من جهتهم رسولًا، وأبطأ خبره علينا فخفت عليه وأشفقت على من معه من

(1) الأنعام (124)

(2) البداية والنهاية 406/12 ويقال إن الذي غزا الروم في هذه السنة هشام بن عبد الملك، ففتح حصن بولق، وحصن الأخرم، وبحيرة الفرسان، وحصن بولس وقميقم وسبى سبيا كثيرًا. راجع الطبري 6/429 والكامل 4/528.

المسلمين من كثرة أعداد الترك، فأمرت الناس بالدعاء له على المنابر وكتبت بذلك إلى الأمصار.

وكان قُتيبةٌ ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الترك كلَّ يوم، ثم نهَضَ قُتيبة فحرَّضَ الناس على الحرب، ووقف على أصحاب الرايات يُحرِّضهم، فاقتتل الناس قتالا شديدا، وانزل الله على المسلمين الصبر، فما انتصف النهار حتى أنزل الله عليهم النصر، فهُزمت الترك هزيمةً عظيمةً، واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون ماشاءوا، واعتصم الناس بالمدينة، فأمر قُتيبةُ الفعلةَ بهدمها، فسألوه الصلح على مالٍ عظيم فصالحهم، وجعل عليها رجلا من أهله وعنده طائفةٌ من الجيش ثم سار راجعا، فلما كان منهم على خمسةٍ مراحل نقضوا العهد، وقتلوا الأمير ومن معه، فرجع إليهم، وحاصرهم شهرا، وأمر النقبائين والفعلّة فعلقوا سورها على الخشب، وهو يريد أن يُضرم النار فيها فسقط السور فقتل من الفعلّة أربعين نفسا، فسألوه الصلح، فأبى ولم يزل حتى افتتحها، فقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم الأموال الكثيرة.

الباحث: قيل إن الغنائم كانت من الذهب والفضة والأموال شيئا كثيرا؟

الحجاج: حقا لقد غنم المسلمون من بيكند شيئا كثيرا من أنية الذهب والفضة والأصنام من الذهب، وكان فيها صنمٌ سُبِكٌ فخرج منه مائة ألف وخمسون ألفَ دينارٍ من الذهب، ووجدوا في خزائن الملك أموالا كثيرةً وسلاحا كثيرا وعدداً متنوعاً وجواهر نفيسة، وأخذوا من السبي شيئا كثيرا، فكتب إليّ قُتيبةٌ في أن يعطي ذلك للجند، فاذنْتُ له فتموّل المسلمون، مالا كثيرا جدّا، وصارت لهم أسلحةٌ وعددٌ وخيولٌ، وتقوّوا على الأعداء قوةً عظيمةً.⁽¹⁾

(1) البداية والنهاية 12 / 408 وتاريخ الطبري 431 / 6 والكمال 529 / 4. ولعل هذا الموقف من الحجاج تجاه جيشه المنتصر بعد جهدٍ جهيد، مما يجب التوقف عنده والتأمل، لم له من تأثير رائع

سنة ثمانٍ وثمانين من الهجرة الوليد بن عبد الملك يأمر بهدم المسجد النبوي الشريف وتوسعته بإضافة الحجرات النبوية وقتيبة يغزو الترك من جديد

الباحث: ماهي أخبارك وأخبار الخلافة في هذه السنة يا حجاج؟
الحجاج: في هذه السنة غزا في الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك فافتتحا معاً بمن معهما من المسلمين حصناً طُوَانَةً وكان ذلك في جمادى من هذه السنة وكان حصناً منيعاً اقتتل الناس عنده قتالاً عظيماً، وحملوا على النصارى حتى لجئوا إلى الحصن، فحاصروهم حتى فتحوه.

وفي شهر ربيع الأول من هذه السنة قَدِمَ كتابُ الوليد على عمر بن عبد العزيز بالمدينة، يأمره بهدم المسجد النبوي، وإضافة حُجَرِ أزواج النبي ﷺ فيه وأن يوسع من قِبَلَتِهِ وسائر النواحي.، حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع، وقال له من باعك ملكه فاشتر منه، وإلا فقومه له قيمة عدل، ثم اهدم وادفع إليهم أثمان بيوتهم، فإن لك في ذلك سلف صدق؛ عمر وعثمان، فجمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة أهل المدينة، وقرأ عليهم كتاب الوليد، فشقَّ عليهم ذلك، وقالوا: هذه حُجْرٌ قصيرة السقوف،

على معنويات الجنود والقادة فضلاً عن التغيُّر النوعي في مستوى قواتهم وأسلحتهم. في مواجهة العدو على بعد الديار.

وسقوفها من جريد النخل، وحيطانها من اللبن، وعلى ابوابها المسوخ، وتركها على حالها أولى، لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون، وإلى بيوت النبي ﷺ، فيعتبرون بذلك ويكون أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا. فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه فقهاء المدينة العشرة، فأرسل إليهم يأمره بالهدم وبناء المسجد على ما ذكر وان يُعلِّي سقوفه. فلم يجد عمر بُدًا من الهدم، ولما شرعوا في الهدم صاح الأشراف ووجوه الناس من بني هاشم وغيرهم، وتباكوا مثل يوم مات النبي ﷺ، وقد أنكر سعيد بن المسيب إدخال حجرة عائشة رضي الله عنها في المسجد، لعله كان يخشى أن يتخذ القبر مسجدًا.

وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفؤارة بالمدينة، وأن يُجري ماءها ففعل، وأمره بحفر الآبار، وأن يُسهّل الطرق والشايات في المدينة. وفي هذه السنة أيضًا غزا قتيبة بن مسلم ملك الترك كورمغانون ابن أخت ملك الصين ومعه مئتا ألف مقاتل من أهل الصغد وفرغانة وغيرهم، فاقتتلوا قتالا عظيما فكسرهم قتيبة بن مسلم وغنم من أموالهم الكثير وقتل منهم الكثير وسبى وأسر الكثير.

سنة تسع وثمانين من الهجرة قتيبة يفتح بلاد الترك ويقف عند بخارا الحجاج في الكوفة يرسم خطة الاقتحام

الباحث: وهذه سنة جديدة في حياتك يا حجاج ماذا بها؟

الحجاج: أقول لك: في هذه السنة أيضًا غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بلاد الروم، فقتلا كثيرا، فتحا حصونًا كثيرةً منها حصنٌ سوريَّة وعمورية وهرقلة وقمودية، وغنما شيئًا كثيرًا وأسرًا جمعًا غفيرًا.

وفي هذه السنة كذلك غزا قُتيبة بن مسلم بلاد الصغد، ونسف، وكس، وقد لقيه هنال خلقٌ كثيرٌ من الأتراك فظفر بهم فقتلهم، وسار إلى بُخارا فلقية دونها خلقٌ كثيرٌ من الترك فقاتلهم يومين وليلتين عند مكان يُقالُ له: خرقان. فظفر بهم. ثم قصد قُتيبة وردان خُذاه، ملك بُخارا، فقاتله وردان قتالا شديدا فلم يظفر به قُتيبة، فرجع عنه إلى مرو، فأرسلتُ إليه أعنقه على الفرار والنكول عن أعداء الإسلام، وكتبْتُ إليه أن يبعثَ إليَّ بصورة هذا البلد، أقصد بُخارا فبعثَ إليَّ بصورتها، فكتبْتُ إليه أن ارجع إليها وتُبَّ إلى الله من ذنبك وائتها من مكان كذا وكذا، وإياك والتحويط.

الباحث: ما هذه الحياة يا حجاج؟! حروبٌ في حروبٍ في حروب. أما كنت تملك وقتا للراحة أو الاسترخاء؟

الحجاج: كان ذلك قليلا جدا، فكما ترى بنفسك نخرج من حرب ندخل في أخرى وبينهما نتابع ونخطط ونجهز، أما إذا سنحت فرصة للاسترخاء أو الراحة فتكون مع القرآن ومع الشعراء وكنت أقدرهم تقديرا وأجزئهم جزئيا. وأذكر لك يوما - كان ذلك أيام عبد الملك بن مروان - كنت في مجلسي مع بعض الجلساء، فجاء الحاجب فقال: امرأةً بالباب، فقلت: أدخلها، فدخلت فلما رأيتهما طأطأت رأسي، فجاءت حتى قعدت بين يدي وكانت حسنة الخلق ومعها جاريتان لها، كانت هذه المرأة هي ليلي الأخيلىة،⁽¹⁾ فسألتهما عن نسبها فانتسبت، فقلت لها يا ليلي ما الذي أتى بك؟ قالت: إخلاف النجوم وقلة الغيوم وقلب البرد وشدة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرفد، فقلت لها: صفي لنا الفجاج، فقالت، الفجاج مغبرة والأرض مقشعة والمبرك معتل وذو العيال مختل والهالك للقل والناس مستنون، رحمة الله يرجون، قد أصابتنا سنونٌ مجحفة مبلطة لم تدع لنا هُبعا ولا رُبعا ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال ومزقت الرجال وأهلكت العيال؛ ثم قالت: إنيي قلت في الأمير قولا، قلت: هاتي، فأنشدت تقول:

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما ال	منايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعطي العداة مناهم	ولا الله يعطي للعداة منها
إذا نزل الحجاج أرضا مريضة	تتبع أقصى داءها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها	غلامٌ إذا هزَّ القناة سقاها
سقاها فرواها بشرب سجاله	دماء رجالٍ حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج ذكر كتيبة	أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية	بأيدي رجالٍ يجلبون صراها

(1) وفيات الأعيان 2 / 47 وما بعدها.

فما ولد الأ Bakar والعون مثله ببحر ولا أرض يحف تراها
عندئذ همست لمن بجواري: قاتلها الله، والله ما أصاب صفتي شاعرٌ منذ
دخلت العراق غيرها، ثم التفتُ إليها فقلت: حسبك ويحك، ثم ناديت
الحاجب وقلت له: اذهب بها إلى فلان فقل له: اقطع لسانها، فأمر بإحضار
حجام، فقالت: ثكلتك أمك، أما سمعت ما قال؟ إنما أمر بقطع لساني بالبر
والصلة، فبعث إليه فاستشاط الحجاج غضباً، وهم بقطع لسانه فقال: أرددها،
فلما دجلت عليه قال: كاد والله أيها الأمير يقطع مقولي، ثم أنشدت تقول:
حجاج أنت الذي ما فوقه أحدٌ إلا الخليفة والمستغفر الصمدُ
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقحت وأنت للناس نور في الدجى يقدُ
ثم أقبلتُ على جلسائي قلت: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير، إلا
أننا لم نر امرأة قط أفصح منها لساناً ولا أحسن محاورة ولا أملح وجهاً ولا
أرصن شعراً منها، قلت: هذه ليلى الأخيلية التي ماتت توبة الخفاجي من حبها،
ثم التفتُ إليها فقلت: انشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة، فقالت: نعم أيها
الأمير، هو الذي يقول:

سقاك من الغر الغواذي مطيرها	حمامة بطن الوادين ترنمي
ولا زلت في خضراء غصن نصيرها	أبيني لنا لا زال ريشك ناعما
فقد رابني منها الغداة سفورها	وكنت إذا ما جئت ليلي تبرعت
بلى، كل ما شف النفوس يُضيرها	يقول رجال: لا يضرك نايها
ويمنع منها نومها وسرورها	بلى قد يُضير العين أن تكثر البكا
لنفسى تُقاها أو عليها فُجرها	وقد زعمت ليلي بأي فاجر

قلت: وما رابه من سفورك يا ليلي؟ قالت: أيها الأمير كان يلم بي كثيرا فأرسل إلي: آتيك، ففطن الحي به فترصدوا له، فلما أتاني سفرت، فعلم أن ذلك لشراً فلم يزد على التسليم والرجوع، فقلت: لله درك هل رأيت منه شيئاً تكرهينه؟ قالت: لا والذي أسأله أن يصلحك، غير أنه قال لي مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر فأنشأت أقول:

وذي حاجة قلنا لا تبح بها فليس إليها ما حيت سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ و خليلُ

لا والذي أسأله أن يصلحك ما رأيت منه شيئاً حتى فرّق الموت بيننا؛ قلت: مه؟ قالت: ثم لم يلبث أن خرج في غزاة فأوصى ابن عمه: إذا آتيت الحاضر من بني عبادة فنادِ بأعلى صوتك:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلةً من الدهر لا يسري إليّ خيالها
ففعل، فخرجت وأنا أقول:

وعنه عفا ربي وأحسن حاله فعزّ علينا حاجة لا ينالها
قلت: ثم مه؟ قالت: ثم لم يلبث أن مات، فأتى ناعيه؛ قلت: فأنشدنا بعض مرثيك فيه، قالت:

لتبك العذارى من خفاجة نسوةً بماء شؤون العبرة المتحدرِ
قلت: فأنشدنا قولك فيه:

كأنّ فتى الفتيان توبةً لم يُنخ قلانص يفحصن الحصى بالكرارِ
فأنشدت قصيدتها في توبة فلما فرغت قال محصن الفقعي وكان من جلسائي: من هذا الذي يُقال فيه هذا الشعر؟ فوالله إني لأظنها كاذبه، فنظرت إليه ثم

قالت: والله يا أيها الأمير إن هذا القائل لو رأى توبةً لسره ألا يكون في داره عذراء إلا وهي حاملٌ منه، فقلت لمحصن: هذا وأبيك الجواب، وقد كنت غنياً عنه، ثم قلت لها: سلي يا ليلي تُعْطِيْ قالت: أعطِ فمثلك أعطى فأحسن، قال: لك عشرون، قالت: زد فمثلك زاد فأجمل، قلت: لك أربعون، قالت زد فمثلك زاد فأفضل، قلت: لك ستون، قالت: زد فمثلك زاد فأكمل، قلت: لك ثمانون، قالت: زد فمثلك زاد فتمم، قلت: لك مائة واعلمي يا ليلي أنها غنم، قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جوداً وأمجد مجداً وأورى زنداً من أن تجعلها غنماً، قلت: فما هي ويحك يا ليلي؟ قالت: مائة ناقة برعائها، فأمرت لها بها، ثم قلت: ألك حاجة بعدها؟ قالت: نعم أيها الأمير، تدفع إلي النابغة الجعدي في قيد، قلت: قد فعلت، وقد كان يهجوها وتهجوه، فبلغ ذلك النابغ فخرج هارباً عائداً بعبد الملك بن مروان فاتبعته إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان فاتبعته على البريد بكتابي إلى قتيبة، فلم تدركه حتى مات بحلوان.⁽¹⁾

الباحث: نعود إلى أحداث التاريخ.

الحجاج: نعم، وفي هذه السنة سنة تسع وثمانين هجرية، ولَّى الوليدُ بن عبد الملك إمرةً مكةَ لخالد بن عبد الله القسري، فحضر بئراً بأمر الوليد عند ثنية طوى وثنية الحجون، فجاءت عذبة الماء طيبةً وكان يستقي الناس منها.

وفي هذه السنة غزا مسلمةُ الترك حتى بلغ البابَ من ناحية أذربيجان، وفتح حصوناً ومدائنَ هنالك. وفي هذه السنة فُتحت صقلية وميوقة وهما في البحر بين جزيرة صقلية وحدارّه من بلاد الأندلس، وفيها سیر موسى بن نصير ولدهُ إلى النقريس ملك الفرنج فافتتح بلاداً كثيرةً.

(1) وفيات الأعيان ج 2 / 47 - 50

سنةُ تسعين من الهجرة

خريطة الحجاج سبب انتصار قتيبة

جيوش الحجاج تغزو بلاد السند

فرار آل المهلب من سجن الحجاج

الباحث: هل عمل قتيبةُ بن مسلم بما أمرت به في كتابك إليه لفتح بُخارا؟

الحجاج: نعم وتمكن بفضل الله من فتح بُخارا وهزم جميع العدو من الترك بها، وفي هذه السنة، طلب طرخون ملك الصُّغد بعد فتح بخارا من قُتيبة أن يُصالحه على مال يبدله في كل عام، فأجابه قتيبةُ إلى ذلك وأخذ منه رهناً على ذلك.

وفي هذه السنة غزا مسلمةُ بن عبد الملك والعباس بن الوليد بلاد الروم، ففتحا حصوناً وقتلا خلقاً كثيراً من الروم، وغنما وأسرا خلقاً كثيراً. وفي هذه السنة عزل الوليدُ بن عبد الملك أخاه عبد الله بن عبد الملك عن إمرة مصر وولى عليها قُرة بن شريك.

وكنْتُ قد أرسلتُ جيشاً بقيادة محمد بن القاسم الثقفي إلى ملك السُّند داهر بن صصة، فقتله ابن القاسم.

الباحث: لكن المؤرخون ذكروا أن وردان خذاه صاحب بخارا استجمع جيشاً من الترك من جميع النواحي وحمل على جيش قتيبة وكسره، في هذه السنة.؟

الحجاج: نعم كانت هذه مجرد جولة من الجولات، ولكن قتيبة جمّع جيشه وعاد إليهم فقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، وصالح قتبة ملك الصغد، وفتح بخارا وحصونها، ورجع قتيبة بالجند إلى بلاده بعدما أذنت له.

الباحث: قالوا يا حجاج إن يزيد بن المهلب وأخواه المفضل وعبد الملك فروا من سجنك فلحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمنّهم منك. هل كنت قد سجنت أبناء المهلب وقد كان أبوهم نعم العون لك.

الحجاج: نعم، ولكنني كنت قد ارتبّت فيهم، ويبدوا أن نبوءة الراهب كانت تشغل فكري من ناحية يزيد بن المهلب وإخوته، فوضعتُه وإخوته تحت عيني، ثم غرّمتهم ستة آلاف ألف وسجنتهم، وكان مما يغيظني أن أضبرهم على الأذى والسجن هو يزيد. ولكنهم تمكنوا من الهرب، فالأمر لا يسلم من خائن مدسوس! أغروه لا شك بالمال الكثير حتى يُساعدَهم على الهرب.

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين أخبره بهروبهم، وأني لا أراهم إلا هربوا إلى خراسان، وإنني أخافُ أن يفعلوا مثل ما فعل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من الخروج عليه وجمع الناس لهم. ولكنني علمت بعد ذلك أنهم سلكوا طريقهم إلى الشام فكتبتُ إلى الوليد أعلمه بذلك.

ووصل يزيد ومن معه من آل المهلب إلى سليمان بن عبد الملك فأمنّهم بواسطة وهيب بن عبد الرحمن الأزدي، وكان كريما على سليمان، وكتب سليمان إلى أخيه الوليد بن عبد الملك: إن آل المهلب قد أمنتهم، وإنما بقي للحجاج عندهم ثلاثة آلاف ألف، وهي عندي. فكتب الوليد إليه لا

والله لا يؤمنه حتى تبعث به إليّ، فكتب إليه: لا والله لا أبعثه حتى أجيء معه، فأشددك الله يا أمير المؤمنين أن تفضحني أو تخفرنني في جواربي.

فكتب إليه لا والله لا تجيء معه وابعث به إلي في وثاق. فقال يزيد: ابعثني إليه، فما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوةً وحرَبًا، فابعثني إليه وابعث معي ابنك، واكتب إليه بالطف عبارةً تقدّر عليها، فبعثه وبعث معه ابنه أيوب، وقال لابنه: إذا دخلت في الدهليز فادخل مع يزيد في السلسلة، وادخلا عليه كذلك.

فلما رأى الوليد ابن أخيه في السلسلة، قال: والله لقد بلغنا من سليمان. ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه وقال يا أمير المؤمنين، نفسي فداؤك، لا تُخفّر جوارنا لمكاننا منك ولا تُذل من رجا العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك.

فلما قرأ الوليد كتاب أخيه سليمان قال: لقد اشققنا على سليمان، ثما دعا ابن أخيه فأدناه منه، وتكلم يزيد بن المهلب فأحسن الكلام. ⁽¹⁾ فأجلسه الوليد فأمنه وكف عنه وردّه إلى سليمان وكتب الوليد إليّ: إني لم أصِلْ إلى يزيد بن المهلب، وأهل بيته مع أخي سليمان، فاكفف عنهم واله عن الكتابة إليّ فيهم. فكففت عن ذلك وتركت ما كنت أطالبهم به من الأموال وتركت لأبي عيينة ابن المهلب الف الف درهم.

الباحث: هل تعلم أن يزيد بن المهلب بعد وفاتك ولي العراق.

الحجاج: إذا ما كنت أتوجس منه حدث. وكان ما وجده الراهب في كتبه حق.

الباحث: وما يضرّك إن حدث هذا بعد وفاتك يا حجاج!

(1) البداية والنهاية 426 / 12 وانظر الطبري 451 / 6، 452.

الحجاج: عندك حق. كنتُ أظنُّه يُزيحني عن العراق ويضعُ يده عليه في حياتي!. وفي هذه السنة تُوفي أخى محمد بن يوسف الثقفي، عليه رحمةُ الله وكان أميرًا على اليمن.⁽¹⁾ وتوفي ولدي محمد في اليوم الذي جاءني خبر وفاة أخى فكانت مصيبتى مصيبتين وكنت قد رأيت أن عينان قُلعتا،⁽²⁾ فجاء تفسير رؤيائي موت محمدائي. عليهما رحمة الله.

(1) البداية والنهاية 12 / 428 وانظر ترجمته في المعارف 396، وثمار القلوب 649، وتاريخ دمشق 16 / 143 وتاريخ الاسلام حوادث ووفيات 100 81 هـ ص 470 والوافي بالوفيات 5 / 242. وقيل كان يلعن عليًا على المنابر ويأمرُ بذلك. ويذكر صاحبُ الوفيات أنه مات سنة إحدى وتسعين من الهجرة. راجع الوفيات 2 / 54

(2) وفيات الأعيان 54، 53 / 2

سنة إحدى وتسعين من الهجرة تجدد الصراع في بلاد الترك مع جيوش الحجاج قتيبة يكسر الترك بعد نقضهم العهد

الباحث: وما هي اخبارك يا حجاج في هذه السنة؟

الحجاج: في الصائفة تكرر غزو مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد، كما غزا مسلمة بلاد الترك حتى بلغ الباب من ناحية اذربيجان، ففتح مدائن كثيرةً وحصوناً

وعزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان، وولاهما أخاه مسلمة بن عبد الملك. وفيها غزا موسى بن نصير بلاد المغرب، ففتح مدناً كثيرة ودخل في تلك البلاد وتوغل فيها.

أما قتيبة بن مسلم فقد كان الترك قد نقضوا عهدهم معه، وتجمعوا ضده وكان اجتماعهم هائل لم يتجمعوا مثله من قبل، فرجع إليهم قتيبة بجيشه ودار قتالاً شديداً وحرباً يشيب لها الولدان، ولكن قتيبة كسرهم، وقتل منهم أمماً كثيرة، وردّ الأمور إلى ما كانت عليه، وصلب منهم في بعض المواضع سباطين طولهما أربعة فراسخ من هاهنا وهاهنا، واتبع نيزك ملك الترك الأعظم من إقليم إلى إقليم حتى حصّره في قلعة هنالك شهرين متتابعين، حتى نفذ ما عنده من أطعمة وأشرف على الهلاك،

فقبض عليه قُتَيْبَةُ فَسَجَنَهُ عِنْدَهُ وَبَعَثَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِ فَارَسَلَتْ إِلَى قُتَيْبَةَ بِقَتْلِهِ
لَخِيَانَتِهِ وَنَقْضِهِ لِلْعَهْدِ.

فَقَتَلَهُ قُتَيْبَةُ وَمَعَهُ سَبْعُمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَخَذَ قُتَيْبَةُ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ وَخِيُولِهِمْ وَثِيَابِهِمْ وَابْنَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ شَيْئًا كَثِيرًا، وَفَتَحَ فِي هَذِهِ
السَّنَةِ مُدُنًا كَثِيرَةً، وَقَرَّرَ مَمَالِكَ كَثِيرَةً.

سنة ثنتين وتسعين من الهجرة قتيبة يتوسع في الفتوحات الإسلامية ويعقد صلحا مع رتبيل ملك الترك

الباحث: هاهي السنون تمضي يا حجاج ما أخبارك في هذه السنة؟
الحجاج: أقول لك: في هذه السنة غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم،
ففتحا حصونا كثيرة، منها حصن سوسنة، وبلغا إلى خليج القسطنطينية،
وغنما شيئا كثيرا، وهربت منهم الروم إلى أقصى بلادهم.
وفي هذه السنة أيضا غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بلاد الأندلس
في اثني عشر ألفا فهزمهم طارق وغنم ما في معسكرهم، وتملك بلاد
الأندلس بكاملها.
وفتح كذلك قتيبة بن مسلم شومان، وكيس، ونسف، وامتنع عليه أهل
فرياب فأحرقها، وجهاز أخاه عبد الرحمن إلى الصغد فقصد إلى طرخون
خان ملك تلك البلاد، فصالحه طرخون خان على أموال كثيرة. ثم غزا
قتيبة سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم، فلما انتهى إلى أول مملكة
رتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة؛ خيول ورقيق
ونساء من بنات الملوك، يحمل ذلك إليه فصالحه.

سنة ثلاث وتسعين من الهجرة قتيبة ينتصر انتصارات عظيمة ويبني مسجداً بسمرقند

الباحث: هذه سنة جديدة يا حجاج ما أخبارك فيها؟

الحجاج: افتتح مسلمة بن عبد الملك في هذه السنة حصوناً جديدةً منها حصن الحديد، وغزاةً، وماسةً، وغير ذلك، وفيها غزا العباس بن الوليد ففتح سبسطية، وفيها غزا مروان بن الوليد الروم فبلغ خنجره.

وفي هذه السنة كتب خوارزم شاه إلى قتيبة يدعوه إلى الصلح، وأن يُعطيه من بلاده مدائن، وأن يدفع إليه أموالاً وريقاً كثيراً على أن يُقاتل أخاه، ويسلمه إليه؛ فإنه قد أفسد في الأرض وبغى على الناس وعسفهم.

وكان أخوه هذا لا يسمع بشيء حسن عند أحدٍ إلا بعث إليه فأخذه منه، سواءً كان مالا، أو نساءً، أو صبياناً أو دواب، أو غيره، فأقبل قتيبة في الجيوش، فسلم إليه خوارزم شاه ما صالحه عليه، وبعث قتيبة إلى بلاد أخي خوارزم شاه جيشاً، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسرُوا أخاه ومعه أربعة آلاف أسير، فدفع أخاه إليه، وأمر قتيبة بالأسارى فضربت أعناقهم بحضرته، ليرهب بذلك الأعداء من الأتراك وغيرهم.⁽¹⁾ ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بين يديه في عشرين ألفاً فسبقه إلى سمرقند،

(1) البداية والنهاية 439 / 12.

ولحقه قتيبة في بقية الجيش، فلما سمع الأتراك بهم أرسلوا مقدمتهم من الأبطال والأمراء الأشداء، فجرّد قتيبة أخاه صالحاً في ستمائة فارس من الأبطال، فالتقوهم فاقتتلوا قتالا شديداً، فلم يُفلت من هؤلاء الأتراك إلا نفر اليسير واحتزوا رءوسهم، وغنموا ما كان معهم من الأسلحة المحلاة بالذهب والأمتعة، فلما رأى قتيبة من بطولة رجاله نفلهم ما غنموه من ذهب وسلاح.

واقترب قتيبة من المدينة العظمى التي بالصغد وهي سمرقند، فنصب عليها المجانيق فرماها ومازال بها حتى ارتقى الجنود أسوارها واقتتلوا وأهلها وتراموا بالنشاب فقالت الترك لقتيبة: ارجع عنا، ونحن نُصالحك، ثم صالحوه على ألفي ألف ومائتي ألفٍ يحملونها إليه كل عام، على أن يُعطوه في هذه السنة ثلاثين ألف من الرقيق، ليس فيهم صغير ولا شيخ ولا عيب. على أن يأخذ حلية الأصنام وما في بيوت النيران، على أن يُخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبني فيها قتيبةً مسجداً، ويوضع له فيه منبر يخطب عليه، ويتغذى ويخرج، فأجابوه إلى ذلك. ⁽¹⁾ فلما دخلها قتيبة دخلها ومعه أربعة آلاف من الأبطال، وذلك بعد أن بنى المسجد ووضع فيه المنبر، فصلى في المسجد وخطب وتغذى، وأتى الأصنام التي لهم فسلبت بين يديه، وألقيت بعضها فوق بعض، حتى صارت كالقصر العظيم، ثم أمر بتحريقها فحذره بعض المجوس، فبدأ بتحريقها بنفسه وهو يكبر الله عز وجل / فاحترقت، فوجد من بقايا ماكان فيها من الذهب خمسين ألف مثقال من ذهب.

(1) البداية والنهاية 441/12 وانظر تاريخ الطبري 475/6 والكامل 573/4.

وكان من جملة ما أصاب قتيبةً من السبي جاريةً من ولد يزجرد، فأهداها إليّ، فوجتها تليق بأمر المؤمنين فأهديتها إلى الوليد بن عبد الملك، فولدت له يزيد بن الوليد.

وترك قتيبةً في سمرقند جنداً من جنوده يقيمون فيه دائماً، واستخلف على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم.

وفي هذه السنة عزل موسى بن نصير نائب بلاد المغرب مولاه طارق بن زياد عن الأندلس، وكان قد بعثه إلى مدينة طليطلة ففتحها، فوجد فيها مائدة سليمان ابن داوود عليهما السلام، وفيها من الذهب والجواهر شيءٌ كثيرٌ جداً. ومع ذلك عزله. ويبدو أن موسى كان يجد في نفسه من طارق، رغم أنه مولاه.

واستعمل موسى مكان طارق ولده عبد العزيز بن موسى بن نصير. وفتح هو بنفسه مدناً كثيرة من مدن الأندلس منها قرطبة وطنجة، ثم سار جهة الغرب ففتح كبريات المدن بها، ورجع موسى بأموالٍ وسبايا وذراري وغنائم لا تُعد ولا تُحصى كثرةً.

وفي هذه السنة ضربَ عمرُ بن عبد العزيز خُبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له بذلك، وصبَّ فوق رأسه قربةً ماءً باردٍ في يومٍ شاتٍ، وأقامه على باب المسجد يوم ذاك فمات. فكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خُباب شديد الخوف لا يأمن، وكان إذا بُشِّرَ بشيءٍ من أمر الآخرة يقول: وكيف وخُبيب لي بالطريق؟ ثم يصيح صياح المرأة الثكلى، وكان إذا أثني عليه قال: خبيبٌ وما خُبيب، إن نجوتُ منه فأنا

بخير. وما زال عمر بن عبد العزيز على المدينة إلى أن ضرب خبيبا فمات؛ فاستقال، وركبه الحزن من حينئذ⁽¹⁾.

وفي هذه السنة ولَّى الوليدُ بن عبد الملك على المدينة عثمان بن حيان، وعلى مكة خالد بن عبد الله القسري، وكان ذلك في شوال من هذه السنة. وفي هذه السنة افتتح محمد بن القاسم وهو ابن عمِّي مدينة الدَّيْل، وغيرها من مُدُن بلاد الهند، وكنتُ قد ولَّيته غزو الهند، وعمره سبع عشرة سنة، فسار في الجيوش فلقوا الملك داهر ملك الهند، في جمعٍ عظيم، ومعه سبعة وعشرون فيلاً منتخبةً، فاقتتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر، وكانت جولة أخرى قُتِل فيها الملك داهر وغالب من معه، وتبعهم المسلمون فقتلوا منهم خلقٌ كثير، ثم سار محمد فافتتح مدينة الكِيرَج، وبرَّها، ورجع بغنائم كثيرة وأموالٍ لا تُحصى كثرةً من الجواهر والذهب وغير ذلك.

(1) البداية والنهاية 444/12 وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص 43 وسير أعلام النبلاء 5/120.

سنة أربع وتسعين من الهجرة امتداد الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً وتوغل القاسم بن محمد الثقفي في بلاد الهند يفتحها الحجاج يقتل سعيد بن جبير

الباحث: هاهي سنة أربع وتسعين قد هلّت ماذا بها يا حجاج؟

الحجاج: في هذه السنة غزا العباس بن الوليد أرض الروم، ففتح أنطالية وغزا أخوه عبد العزيز بن الوليد فبلغ غزاة، وبلغ الوليد بن هشام المعيطي أرض برج الحمام، وبلغ يزيد بن أبي كبشة أرض سورية،

وفي هذه السنة افتتح مسلمة بن عبد الملك سندرة من أرض الروم.

الباحث: ألا تلاحظ أن الله فتح على الإسلام والمسلمين فتوحاتٍ عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك، على أيدي أولاده وأقربائه وأمرائه، حتى عاد الجهادُ شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الحجاج: بلا، كانت الفتوحات في فترة ولاية الوليد ممتدة شرقاً وغرباً، قد بلغت مبلغاً عظيماً وعادت على ديار الإسلام بمغانم لا حدود لها. وانتشر الإسلام في هذه الأمصار. بل امتدت الفتوحات على يد القاسم بن محمد الثقفي في أرض الهند، وغنم أموالاً لا تُعد ولا تُحصى، فغزا الشاش وفرغانة حتى بلغ خجندة، وكاشان وذلك بعدما فتح سمرقند، وخاض في هذه البلاد حتى وصل كابل فحاصرها وافتتحها.

الباحث: وفي هذه السنة قتلت سعيد بن جُبَيْر يا حجاج؟

الحجاج: نعم وليتني ما فعلت.!

الباحث: لماذا قتلت سعيد بن جُبَيْر؟

الحجاج: كنت قد جعلته على نفقات الجند حين بعثته مع عبد الرحمن بن الأشعث إلى قتال رُبَيْل، فلما حدث مع ابن الأشعث ما حدث وخلعني، خلعني سعيد بن جُبَيْر أيضا معه، ثم توالى الأحداث وظفرتُ بابن الأشعث وأصحابه، ولكن سعيد بن جُبَيْر هرب إلى أصبهان فبعثتُ إلى نائب أصبهان أن يبعث إليَّ بسعيد، فلما علم سعيد بذلك هرب منها وقيل إن نائب أصبهان تحرَّج من ابن جُبَيْر قال له تنحَّ عنَّا فخرج إلى أذربيجان وكان أناسٌ ممن فعلوا مثله يستخفون فلا يخبرون بأسمائهم⁽¹⁾.

ثم إنه كان يعتمرُ في كل سنة ويحج، ثم إنه لجأ إلى مكة وأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القسري، فأشار بعضُ أصحاب سعيد عليه بالهرب منها، فقال سعيد: والله لقد استحييت من الله، ممَّ أفرُّ ولا مفرَّ من قدره؟!⁽²⁾.

وعندما تولى عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز المدينة، فجعل يأخذ من أصحاب ابن الأشعث المقيمين بالمدينة يقتل بعضهم ويبعث إليَّ في العراق بالبعض الآخر في جوامع. ونادي: برئت الذمة ممن آوى عراقيًا⁽³⁾. وكنتُ قد كتبتُ إلى الوليد بن عبد الملك أخبره أن بمكة أقوامًا من أهل

(1) المنظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1992 ج 6 ص 318

(2) البداية والنهاية 12 / 462 وانظر تاريخ الطبري 487 / 491 6 وانظر الكامل 579 / 4، 580.

(3) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج 6 ص 317 وانظر الطبري 485 / 6.

الشِّقَاقِ وَالنِّفَاقِ فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِيهِمْ. فَكُتِبَ إِلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ نَائِبِهَا، فَأَخَذَ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رِبَاحٍ، وَسَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدَ بْنَ جَبْرِ، وَعَمْرُو بْنَ دِينَارٍ، وَطَلْقَ بْنَ حَبِيبٍ. فَأَرْسَلَ عَطَاءَ بْنَ أَبِي رِبَاحٍ، وَعَمْرُو بْنَ دِينَارٍ، لِأَنْهُمَا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَبَعَثَ إِلَيَّ بِالْبَاقِينَ.

الباحث: ماذا فعلت بهم؟

الحجاج: فأما طَلْقُ فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ، وَأما مُجَاهِدُ فَحُبِسَ، وَأما سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فَإِنَّهُ لَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: لَعَنَ اللَّهُ ابْنَ النُّصْرَانِيَّةِ اقْصِدْ خَالِدَ بْنَ الْقَسْرِيِّ أَمَا كُنْتُ أَعْرِفُ مَكَانَهُ؟! بَلَى وَاللَّهِ، وَالْبَيْتَ الَّذِي هُوَ فِيهِ بِمَكَّةَ. ثُمَّ إِنَّهُ ظَلَّ مُخْتَفِيًّا عَنِّي مَا يَقْرُبُ مِنْ ثِنْتِي عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى أَرْسَلَهُ خَالِدُ الْقَسْرِيِّ، وَكُنْتُ أَوْدُّ أَلَّا يَرْسِلَهُ إِلَيَّ. ثُمَّ أَقْبَلْتُ عَلَى سَعِيدٍ، قُلْتُ لَهُ: يَا سَعِيدُ، مَا أَخْرَجَكَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، أَنَا أَمْرُؤُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُخْطِئُ مَرَّةً وَيُصِيبُ أُخْرَى. فَطَابَتْ نَفْسِي، وَرَجَوْتُ أَنْ أَتَخْلَصَ مِنْ أَمْرِهِ، فَعَاوَدْتُهُ مَعَاتِبًا: أَلَمْ أَشْرِكْ فِي أَمَانَتِي؟ أَلَمْ أَسْتَعْمَلْكَ؟ أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا وَكَذَا؟ يَقُولُ سَعِيدُ بَلَا بَلَا. فَقُلْتُ لَهُ مَا حَمَلَكَ عَلَيَّ أَنْ خَرَجْتَ عَلَيَّ، وَخَلَعْتَ بَيْعَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ سَعِيدُ: إِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ ابْنِ الْأَشْعَثِ فِي عُنْقِي وَعِزْمَ عَلَيَّ. فَغَضِبْتُ غَضَبًا شَدِيدًا. وَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ، أَلَمْ أَقْدِمْ مَكَّةَ، فَقَتَلْتُ ابْنَ الزَّيْبِرِ، وَأَخَذْتُ الْبَيْعَةَ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَخَذْتُ بَيْعَتَكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ؟ فَقَالَ سَعِيدُ: بَلَى. قُلْتُ ثُمَّ قَدِمْتُ الْكُوفَةَ وَالْيَا عَلَيَّ الْعِرَاقَ فَجَدَدْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَيْعَةَ فَأَخَذْتُ بَيْعَتَكَ لَهُ ثَانِيَةً؟ قَالَ بَلَى. قُلْتُ: فَتَنَكْتُ بَيْعَتَيْنِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَفِي بَوَاحِدَةٍ لِلْحَائِكِ بْنِ الْحَائِكِ؟ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَكْفَرْتَ إِذْ خَرَجْتَ عَلَيَّ؟ قَالَ: مَا كَفَرْتُ مِنْذُ أَمَنْتُ. قُلْتُ اخْتَرْتُ أَيَّ قَتْلَةٍ أَقْتُلُكَ. فَقَالَ: اخْتَرْنَا أَنْتَ، فَإِنْ

القصاص أمامك. فقلت: يا حَرَسِيّ اضرب عنقه. فضرب حَرَسِيّ عنقه⁽¹⁾، فسرى منه دمٌ كثيرٌ لم أر مثله من قبل.

لقد أفرعني هذا الدّم الغزير، وهزني وراعني هذا المنظر كأنني لم أقتل أحداً من قبل، فاستدعيت بالطبيب، أسأله عن هذا الكم الكبير من الدم الذي خرج من ابن جبير ماسراً ذلك، فقال: إنك قتلتَهُ ونفسُهُ معه، وقلْبُهُ حاضرٌ.

أخذني هذا الرد وشعرتُ أن سعيد بن جبير لم يكن كسابقيه ممن ضربتُ أعناقهم، وأنا أعلم للحق مكانته في العلم والفقه.

الباحث: لماذا قتلتَهُ إذاً، كان يمكنك العفو عنه.؟!

الحجاج: أنت تعلم، كما أعلم تأثيره وأمثاله في العامة من الناس عندما يرون انضمامه لابن الأشعث، بل كان يخطب فيهم مؤيداً، ذلك شَجَعَهُمْ على عصيان الخليفة الذي عليه الاجماع وله البيعة، فأهدروها وبايعوا ابن الأشعث، وقد حدث هذا بالفعل، لذلك كان غضبي الشديد عليه، ولكن مشهد مقتله ظل يطاردني يقظةً ومناماً.

الباحث: هل كان يأتيك سعيد بن جبير في المنام؟

الحجاج: نعم كانت كوابيس مفزعة، كنتُ أراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبي ويقول لي: يا عدو الله فيم قتلتني؟! فأقوم مفزوعاً من نومي، أقول: مالي وسعيد

(1) يذكر الواقدي ان ذلك كان في رمضان من سنة خمس وتسعين من الهجرة راجع البداية والنهاية 12 / 464 وتاريخ الاسلام حوادث ووفيات 100 81 هـ ص 369 وسير أعلام النبلاء 4 / 338.

بن جبير. مالي وسعيد بن جبير؟! ثم إني لم أقتص بعده من أحد أبدا حتى
فارقْتُ الحياة. ⁽¹⁾ وما بقيتُ بعده أكثر من ستة أشهر ⁽²⁾

الباحث: قالوا مرضتَ في آخر أيامك.؟

الحجاج: نعم، بعم مقتل سعيد بن جبير، ركبني الهم والغم، وكنت أقول مالي
وسعيد بن جبير كلما أردتُ النوم أخذ برجلي ⁽³⁾، ووقعت الأكلة في
بطني، وجاء الطبيب فأخذ لحمًا وجعله في خيطٍ وأرسله في حلقي، ثم
استخرج به بعد ساعةٍ وقد لصق الدود به ⁽⁴⁾،

فبدا على وجه الطبيب الحزن، فعلمتُ أنني غيرُ ناجٍ من هذا.

(1) البداية والنهاية 470 / 12 وقال سفيان بل قتل بعد سعيد رجلا واحداً يقال له ماهان، وقيل أحصوا ما قتل الحجاج صبرا فبلغ مائة ألفٍ وعشرين ألفاً وعرضت السجون بعد وفاة الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثون ألفاً، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب، راجع ص 545 نفس المرجع.
(2) البداية والنهاية 470 / 12 وانظر وفيات الأعيان 347 / 2، وتهذيب الكمال 376 / 10.

(3) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ج 7 ص 4.

(4) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ج 7 من 95 هـ 136 هـ ص 3. يقولون إن الحجاج رُئي في المنام فقبل له: ماذا فعل الله بك؟ قال: قتلني بكل رجلٍ قتلته قتلته وقاتلني بسعيد بن جبير اثنتين وسبعين قتلته. ويقولون كذلك على لسان الإمام أحمد بن حنبل إنه قال: قُتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ أو مفتقرٌ إلي علمه، وذكروا أنه لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال: ما أراني إلا مقتولا وسأخبركم أنني كنت أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا الشهادة، فكلا صاحبي رزقها، وأنا أنتظرها.

وذكروا أن رجلاً حلف بالطلاق أن الحجاج في النار، فسأل الحسن البصري، فقال للرجل: لا عليك يا بن أخي فإن لم يكن الحجاج في النار، فما بضرُك أن تكون مع امرأتك في زنا.

سنة خمس وتسعين من الهجرة الفتوحات الإسلامية ما زالت تمتد شرقا وغربا ثمرات الفتوح تندفق على دار الخلافة بدمشق وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي

الباحث: هل حدث شيء في هذه السنة تريد أن تذكره قبل وفاتك يا حجاج؟
الحجاج: نعم، غزا العباس بن الوليد بلاد الروم، وافتتح حصونا كثيرة. وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب من أرمينية، وخرَّبها ثم بناها بعد ذلك. وفيها افتتح محمد بن القاسم الثقفي مدينة المولتان من أرض الهند، وأخذ منها أموالا جزيلة. وفيها قدم موسى بن نصير من بلاد الأندلس إلى إفريقية، ومعه الأموال على العجل تحمّل من كثرتها، ومعه ثلاثون ألفا من السبي. وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الشاش، ففتح مدنا وأقاليم كثيرة، فلما كان هناك... جاءه الخبر بموتي.....

فقمعه ذلك، ورجع بالناس إلى مدينة مرو، وتمثّل بقول الشعراء: ⁽¹⁾

لعمري لنعم المرء من آل جعفر	بحوران أسمى أعقلته الحبائل
فإن تحي لا أملل حياتي وإن تمت	فما في حياتي بعد موتك طائل

(1) البداية والنهاية 505/12 البيتان للحطّيب، وهما في ديوانه ص 24، وانظر الطبري 492/6،
والكامل 4/583.

الباحث: هذه آخر سنة في حياتك يا حجاج وقالوا وفاتك كانت في أواخر رمضان من هذه السنة

هل تريد أن تقول شيئاً؟

الحجاج: تباً للإمارة. لم تأتني لنا بخير..!

فكما رأيت ما مرَّ عامٌ إلا وفيه شقاءٌ وبلاءٌ ومعاركٌ ودماءٌ تسيل هنا وهناك، آلافٌ من القتلى ومن كل جانب هنا وهناك، كُرٌّ وفر، همٌّ بالليل وهمٌّ بالنهار، وأموالٌ نجمعها ثم ننفقها؛ في الحروب والمعارك والسلاح والعتاد، جيشٌ هناك وجيشٌ هنالك وأسرى وقتلى ویتامى وأرامل، وفتوحٌ وتأمين للفتوح وجيوشٌ تنكسر وجيوشٌ تنتصر، وشُكْرٌك على الانتصار قليلٌ فهذا واجبك، وذمُّك على الانكسار كثيرٌ فهذا همُّك. وروحك على كفِّك في كل حين...

يتجنبك الصالحون ويتحوطك المنافقون، فأی حياة كانت هذه الحياة؟! أي متعة كانت وقد مضت كالحلم؟! ثم نحاسب على الصغير والكبير والقتيل والقطمير!. ليتني بقيت في الطائف أعلم الصبية هنالك، وما قصدت باب الأمراء والوزراء سعياً للمناصب والجاه والسلطان.

ولكن ليت لا تُعيد الزمان.

الباحث: يقولون إن عمر ابن عبد العزيز قال بعد وفاتك: ما حسدتُ الحجاجَ عدوَّ الله على شيءٍ، حسدي إياه على حُبِّه القرآنَ، وإعطائه أهله، وقوله حين حضرته الوفاة: اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل⁽¹⁾.

الحجاج: الحمد لله الذي جعل لي شيئاً أحسدُ عليه.

(1) البداية والنهاية 549 / 12 وما بعدها وانظر تاريخ دمشق 12 / 194 وسير أعلام النبلاء 459 / 10

يارب قد حلف الأعداء واجتهدوا
أخلفون على عمياء ويحهم
إن الموالى إذا شابت عبيدهم
وأنت يا خالقي أولى بذا كرماً
الحجاج بن يوسف الثقفي.

الختم

لطفي عبد الفتاح شمعون

عضو اتحاد كتاب مصر

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. أسد الغابة في معرفة الصحابة، للإمام عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري المعروف بابن الأثير، نشر إلكتروني مكتبة المصطفى.
3. الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني ثم المصري (الشافعي) المعروف بابن حجر المولود سنة 773 والمتوفى سنة 801 هجرية. المطبعة الشرقية 1325 هـ 1907 م نشر إلكتروني مكتبة المصطفى.
4. البداية والنهاية، لابن كثير، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر الطبعة الأولى 1998 م نشر إلكتروني.
5. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، تحقيق حسن السندوبي، الطبعة الأولى المطبعة التجارية الكبرى مصر 1345 هـ 1926 م.
6. تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة 748 هـ، دار الغد العربي الطبعة الأولى 1996 م.

7. تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية بيروت، نشر إلكتروني، الإعداد بواسطة المكتبة الشاملة، مكتبة المصطفى.
8. تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر بن جرير الطبري المتوفى 310 هـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف بمصر 1975.
9. تاريخ يعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، المكتبة المرتضوية النجف 1358 نشر الكتروني مكتبة المصطفى.
10. تهذيب التهذيب، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني ت 852، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان الطبعة الثانية 1413 هـ 1993 م.
11. الحجاج ابن يوسف الثقفي د. محمود زيادة دار السلام الطبعة السابعة 2010 م 1431 هـ.
12. دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة، د. عمر فروج، رقم 1 الحجاج، مطبعة الكشاف بيروت 1941 نشر إلكتروني.
13. ديوان الحماسة، لأبي تمام تحقيق د. عبد المنعم أحمد صالح، سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة 1996.
14. ديوان الفرزدق، تحقيق وشرح كرم البستاني، دار صادر بيروت، بدون تاريخ.
15. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1431 هـ 2001 م.

16. سير أعلام النبلاء للذهبي، نشر إلكتروني مكتبة المصطفى، بدون تاريخ.
17. سيرة عمر بن عبد العزيز، تصنيف الحافظ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي، محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد مصر. نشر إلكتروني مكتبة المصطفى.
18. الشعر والشعراء، أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المتوفى 276هـ - 899م، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1405 هـ 1985م.
19. صبح الأعشى أبو العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية 1340 هـ 1922 م. نشر إلكتروني مكتبة المصطفى.
20. الطبقات الكبير طبقات محمد بن سعد بن منيع الزهري تحقيق دكتور على محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) 2002 م.
21. العقد الثمين في فضائل البلد الأمين، أحمد بن محمد الخضراوي، طبعة أولى، مطبعة وادي النيل المصرية 1289 هـ.
22. العقد الفريد، لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي تحقيق د. عبد المجيد الترحيني دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1404 هـ 1983 م نشر إلكتروني. مكتبة المصطفى.
23. فتح الباري بشرح صحيح أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، لابن حجر العسقلاني. ت. 852 المكتبة التوفيقية 2008 م.
24. الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب

بعض الدين. المتوفى سنة 630 هـ مراجعة دكتور محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت لبنان طبعة 1407 هـ 1987 م.

25. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.

26. لسان العرب لابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711) تحقيق على عبد الله الكبير وآخرين، دار المعارف بدون تاريخ.

27. مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، خالد بن محمد الغيث، دار الإيمان الإسكندرية 2004 م.

28. المستطرف في كل فن مستظرف، محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي المحلي المتوفى 850 هـ مكتبة الجمهورية العربية بدون تاريخ نشر الكتروني.

29. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ط اولى 1992.

30. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية لبنان بيروت 1413 هـ 1992 م.

31. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب النويري، دار الكتب المصرية 1342هـ 1924 م نشر الكتروني مكتبة المصطفى.
32. الوافي بالوفيات، للصفدي. نشر إلكتروني مكتبة المصطفى. بدون تاريخ.
33. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان تحقيق، إحسان عباس دار صادر بيروت 1969.

المؤلف في سطور

* لطفي عبد الفتاح شمعون

من مواليد قرية سنديون بمحافظة القليوبية عام 1956

ومقيم بالمقطم محافظة القاهرة

1 - عضو اتحاد كتاب مصر

2 - عضو أتيليه القاهرة

3 - عضو منظمة الكتاب الأفريقيين والآسيويين

4 - عضو جمعية أنصار التمثيل والسينما

5 - عضو الهيئة العربية الدولية لحماية حقوق الملكية الفكرية.

الخلفية العلمية والوظيفية:

- دبلوم معهد المعلمين 1976
- ليسانس الحقوق جامعة عين شمس 1983
- دبلوم الدراسات العليا كلية الإعلام جامعة القاهرة (تلفزيون) 1989
- دبلوم الدراسات العليا معهد النقد الفني أكاديمية الفنون 1997
- وكيل وزارة الإعلام، المشرف على إذاعة وتلفزيون وسط الدلتا. سابقا
- مدير عام الرقابة والمتابعة قطاع القنوات الاقليمية. سابقا

- مدير عام البرامج الثقافية والخاصة قناة القاهرة القناة الثالثة سابقا.
- مذيع بالإذاعة المصرية (شبكة البرنامج العام) بداية من أكتوبر 1984 حتى 1985
- مذيع نشرات إخبارية بالتلفزيون المصري (القناة الثالثة) منذ إنشائها في أكتوبر 1985 حتى 2013.
- مقدم برامج سياسية وإخبارية وثقافية ودينية على شاشة القناة الثالثة قناة القاهرة. حتى 2013 م
- عضو مؤسس ورئيس لإذاعة شباب الاعلاميين سابقا على الموقع:

www.alphraeen.com

المؤلفات والدراسات:

- 1 - ديوان (قاسٍ يا بحر) الهيئة المصرية العامة للكتاب 2004
- 2 - المسرحية الشعرية (شيطانُ الحلم) الهيئة المصرية للكتاب العامة 2007
- 3 - المسرحية الشعرية (صريعُ القوافي) دار الأجيال المصرية 2012
- 4 - أيام المتنبّي بين البداية والنهاية (تأريخٌ فنيّ) دار الأجيال المصرية 2013
- 5 - أيام الحجاج بن يوسف الثقفي بين البداية والنهاية (تأريخٌ فنيّ) بين يديك.
- 6 - الخمر والميسر بين الشريعة والقانون. (دراسة تحت الطبع)

الجوائز وشهادات التقدير:

- 1 - جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة للإبداع المسرحي (النص الطويل) عن مسرحية (شيطان الحلم) 2007

2 - شهادة تقدير أكاديمية الفنون مع دبلوم الدراسات العليا معهد النقد الفني
1997

3 - شهادة تقدير دورة حقوق الإنسان سبتمبر 2004 من UNDP

4 - ميدالية أكاديمية الإعلام بالسادس من أكتوبر. سبتمبر 2004

5 - درع محافظة القليوبية للمشاركة في إعادة جريدة القليوبية للصدور

ورئاسة صفحة الثقافة والفن لعدة سنوات. احتفالية المحافظة 2002

6 - شهادة تقدير اتحاد الإذاعة والتلفزيون في ختام الحياة الوظيفية 2016

للتواصل:

البريد الإلكتروني lotfytv@yahoo.com

عنوان الفيس بوك: [.Facebook.Com / lotfy.a.shamoon](https://www.facebook.com/lotfy.a.shamoon)

المحمول: 01001751622 / 01224781476

الأرضي: 02 / 28436202

فهرس المحتويات

5	الإهداء
7	مقدمة
9	تمهيد
13	سنة أربعين من الهجرة الطائف مسقط رأس الحجاج
19	الحجاج في بلاد الشام جندي يحمل السلاح
29	أصل الصراع أو الفتنة الكبرى
48	البيعة لعلي رضي الله عنه
52	ثم كانت وقعة الجمل
62	صراع علي ومعاوية - وقعة صفين
67	التحكيم
73	حروب الخوارج
80	علي ومعاوية من جديد!

مقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه 85

سنةٌ إحدي وستين من الهجرة

مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنه 139

سنةٌ ثلاثٍ وستنّ من الهجرة

وقعة الحرة 148

سنة أربعٍ وستين من الهجرة

بداية المواجهة بين يزيد بن معاوية وعبد الله بن الزبير 157

البيعة لعبد الله بن الزبير بالحجاز وما وراءها 168

البيعة لمروان بن الحكم في الشام 170

ابن الزبير يهدم الكعبة ويُعيد بناءها 174

طموحات المختار الثقفي والصراع على السلطة 176

سنةٌ خمسٍ وستين من الهجرة

الحجاج شاهدٌ على العصر 180

سنةٌ ستٍ وستين من الهجرة

المختار يحقق نجاحًا 185

سنة سبع وستين من الهجرة

192 المختار يواصل الانتصار

سنة ثمان وستين من الهجرة

199 الصراع مع الأزارقة

سنة تسع وستين من الهجرة

202 عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد الأشدق والصراع على السلطة

سنة إحدى وسبعين من الهجرة

205 عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير

سنة اثنتين وسبعين من الهجرة

208 العراق يدخل حوزة عبد الملك بن مروان

سنة ثلاث وسبعين من الهجرة

212 الحجاج ينصب المنجنيق لضرب ابن الزبير في الكعبة

سنة أربع وسبعين من الهجرة

الحجاج يتولى إمرة المدينة، ويبني مسجد بني سلمة ويختتم بعض الصحابة

219 بالرصاص

سنة خمسٍ وسبعين من الهجرة

الحجاج في العراق - الجارود أول الخارجين عليه 225

سنة ستٍ وسبعين من الهجرة

صراع الخوارج الصفرية وفتنة شبيب والحجاج يعلن النفير العام 232

سنة سبعٍ وسبعين من الهجرة

جيوش الحجاج تتلقى الهزائم على يد الخوارج بقيادة شبيب وامرأته غزالة . 235

سنة ثمانٍ وسبعين من الهجرة

الحجاج بعد غرق شبيب وانقضاء فتنته، يتولى إمرة ساجستان وما وراءها ويرتب

نوابها 240

سنة تسعٍ وسبعين من الهجرة

الطاعون يجتاح الشام ويشدد الصراع مع رتبيل ملك الترك 241

سنة ثمانين من الهجرة

جيش الطواويس، واستمرار الصراع مع الترك 244

سنة إحدى وثمانين من الهجرة

الصراع بين ابن الأشعث والحجاج ابن الأشعث يهزُّ أركان دولة بني أمية .. 246

سنة ثنتين وثمانين من الهجرة

تفاقم أزمة ابن الأشعث واتساع نفوذه عبد الملك بن مروان يساوم ابن الأشعث

ويضع مصير الحجاج بين يديه 252

سنة ثلاث وثمانين من الهجرة

دير الجماجم المعركة الفاصلة وهروب بن الأشعث الحجاج والانتقام الكبير

بناء مدينة واسط ومسجدها 257

سنة أربع وثمانين من الهجرة

تهديد الحجاج لرتيل ملك الترك لحمايته ابن الأشعث مقتل ابن الأشعث

في أرض الترك 268

سنة خمس وثمانين من الهجرة

الحجاج يخشى آل المهلب ويسجنهم وانفاذ البيعة للوليد بن عبد الملك

في الأمصار 270

سنة ست وثمانين من الهجرة

الحجاج يغزو بلاد الترك من جديد بجيش قتيبة ظهور الطاعون بالشام والبصرة

وواسط - وفاة عبد الملك بن مروان 272

سنة سبع وثمانين من الهجرة

عمر بن عبد العزيز يتولى إمرة المدينة تكاثر الأتراك على جيش قتيبة، والحجاج

يدعو لهم على المنابر 275

سنة ثمان وثمانين من الهجرة

الوليد بن عبد الملك يأمر بهدم المسجد النبوي الشريف وتوسعته بإضافة

الحجرات النبوية وعتبة يغزو الترك من جديد 278

سنة تسع وثمانين من الهجرة

عتبة يفتح بلاد الترك ويقف عند بخارا الحجاج في الكوفة يرسم خطة الاقتحام .. 280

سنة تسعين من الهجرة

خريطة الحجاج سبب انتصار قتيبة جيوش الحجاج تغزو بلاد السند فرار

آل المهلب من سجن الحجاج 285

سنة إحدى وتسعين من الهجرة

تجدد الصراع في بلاد الترك مع جيوش الحجاج قتيبة يكسر الترك بعد نقضهم

العهود 289

سنةُ ثنتين وتسعين من الهجرة

قتيبة يتوسع في الفتوحات الإسلامية ويعقد صلحا مع رتبيل ملك الترك ... 291

سنةُ ثلاثٍ وتسعين من الهجرة

قتيبة ينتصر انتصارات عظيمة ويبنى مسجداً بسمرقند 292

سنةُ أربعٍ وتسعين من الهجرة

امتداد الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً وتوغل القاسم بن محمد الثقفي في بلاد

الهند يفتحها الحجاج يقتل سعيد بن جبير 296

سنةُ خمسٍ وتسعين من الهجرة

الفتوحات الإسلامية مازالت تمتد شرقاً وغرباً ثمرات الفتوح تتدفق على دار

الخلافة بدمشق وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي 301

المصادر والمراجع 304

المؤلف في سطور 309

المؤلفات والدراسات: 310